مطبوعات كتابي
الترجمة الكاملة الأمينة لشوامخ الكتب العالمية
يصدرها حلمي مراد

جين اير

شارلوت برونتي

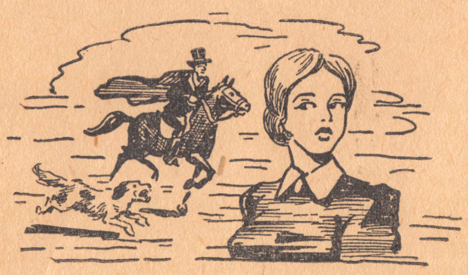


تحفة الأدب الانجليزي الكلاسيكي

١٠ قروش

شارلوت برونتي

جين اير



JANE EYRE

BY :. CHARLOTTE BRONTE

مطبوعات

كتابى

الترجمة الكاملة لشوامخ الكتب العالمية

يصدرها : حلمى مراد

شعار « كتابى »

مصباح الفكر عند الاغريق

الكتاب الخامس عشر

جين اير

تأليف : شارلوت برونتى

ترجمة : اسماعيل كامل

الادارة : عمارة الجندول ـ ١٤ شارع ٢٦ يوليو ـ بالقاهرة
تليفون : ٥٩٥٥٦

مجموعة « كتابى »

(الكتاب الشهرى لتلخيص الكتب العالمية)

صدر منها حتى الآن اثنان وخمسون كتابا ، يضاف اليها كتاب جديد أول كل شهر .. وفيما يلى قائمة الكتب التى صدرت :

خطايا الحب وكتب أخرى • قلب عذراء • الهاربة من الجنة• حواء الجديدة• أحدب نوتردام • جريمة حب • عشيقة نابليون • مذكرات كيوبيد • صنم تحطم • حديقة الله • عندما تحقد المرأة • لعبة الحب والموت • توبة خاطئة • أيها الربيع ترفق • الشيطان على الارض • ليدى هاملتون • الارملة المرحة • حياة جورج صاند • حياة سارة برنار • رباعيات عمر الخيام • حياة بيتهوفن• حياة موسولينى • كوخ العم توم • الزوج والعشيق • البوهيمية • فتاة لها ماض • ترويض النمرة • فن الحب • الجريمة والعقاب • المنافق • أميرةمصر• الامطار • أفروديت • أقنعة الحب السبعة • سالومى • الاعداد : ٣٦ ــ ٣٧ ــ ٣٨ ــ ٣٩ ــ ٤٠ ــ ٤١ ــ ٤٢ ــ ٤٣ ــ ٤٤ ــ ٤٥ ــ ٤٦ ــ ٤٧ ــ ٤٨ ــ ٤٩ ــ ٥٠ ــ ٥١ ــ ٥٢

◆ وتطلب من ادارة كتابى : ١٤ شارع ٢٦ يوليو (فؤاد الاول سابقا) بالقاهرة (عمارة الجندول) ، وثمن كل عدد (من العدد ٧ الى ٢٤) ١٠ قروش خالص أجر البريد المسجل ، ماعدا العددين العاشر والعشرين ، وثمن كل منهما ٢٠ قرشا • والاعداد ١٣ ، ١٦ ، وابتداء من العدد ٢٥ ، ثمن كل نسخة بالبريد المسجل ١٢ قرشا ، أما الاعداد الستة الاولى فقد نفدت ، والادارة مستعدة لشرائها •

◆ الاشتراكات : عن سنة (١٢ عددا) : فى مصر والسودان : ١٢٠ قرشا وفى العراق وسوريا ولبنان والاردن والحجاز : مايوازى ١٤٠ قرشا مصريا وفى الكويت وعدن وحضرموت واليمن وقبرص وانجلترا وامريكا وفرنسا واستراليا : قيمة الاشتراك ١٦٠ قرشا (عن سنة) خالصة أجر البريد ، وفى المانيا ١٦٠ قرشا بخلاف أجر البريد الجوى •

◆ ملحوظة : ترسل قيمة الاعداد والاشتراكات : فى مصر والسودان باذن بريد عادى ، وفى الخارج بشيك على أحد بنوك القاهرة أو بحوالة بريدية نقدية عن طريق مكاتب البريد MONEY ORDER

مطبوعات كتابى

صدر منها : قصة مدينتين ، ذات الثوب الابيض ، الخالدون ، الخاطئة ،حياة امرأة (جزءان) ، الخطيئة الاولى ، أوديب ، مدام بوفارى (جزءان) ، عاشقات فى الخريف، قلوب ضالة ،ديكاميرون، الظمأ للحب.وثمن كل من الاول والرابع والسابع ٢٠ قرشا ، والثانى والثامن والتاسع والعاشر والحادى عشر والثالث عشر والرابع عشر ١٢ قرشا ، والثانى عشر ١٤ قرشا ، والثالث والخامس والسادس ١٠ قروش (خالص أجرة البريد المسجل)

عزيزى القارىء

• أحببت فى هذه المرة ، أن أرتد بك عبر الزمن قرنا كاملا وعقدا ، أى مائة عام وعشرة أعوام ٠٠ وأن أرتاد بك أفق الادب الانجليزى ، لتصل الى احدى شوامخه الراسخة ، الباقية ٠٠

ففى سنة ١٨٤٧ ، اهتمت الاوساط الادبية فى انجلترا ، بكتاب ظهر لمؤلف مغمور ، مجهول ، خرق ماجرى عليه الادباء من تقاليد ، وتجاوز ما كانوا يتفيدون به من عرف فى تأليف القصص الغرامية ٠٠ وان هى الا أيام حتى أصبح الكتاب حديث الصالونات والمجتمعات ، وراح الرأى العام يتساءل عن ذلك المؤلف الجرىء ٠٠ وقبل أن يكتمل العام على ظهور الكتاب ، كان قد طبع مرة ثانية ، فمرة ثالثة ! ٠٠ وأدرك الرأى العام فى تلك الاثناء ، ان المؤلف الجرىء لم يكن « رجلا » على الاطلاق، وانما كان ٠٠ امرأة !٠٠ بل عذراء ، فى التاسعة والعشرين من عمرها، نشأت فى أحضان أب كان من رجال الدين «البيوريتان» ، وكان يحرص على أن يربى أولاده على الزهد ، والتقشف ، والتقوى ، واعتزال الناس !

• ومن وراء الاسم المستعار الذى انتحلته المؤلفة فى الطبعة الاولى من كتابها ــ وهو اسم « كورر بيل » ــ بزغ اسم « شارلوت برونتى » ليتألق ويظل براقا على مر الزمن ٠٠ وعرف الناس انها احدى أخوات ثلاث ، نشأن فى عزلة موحشة، وليس لهن من أنيس سوى القلم والورق٠٠ولم يجدن مايملأن به فراغ حياتهن منذ الصغر ، سوى الادب ومحاولة قرض الشعر وتأليف القصص التى كن ينتزعنها من صميم حياتهن، ومن أحلام اليقظة التى كن يعوضن بها ما حرمن منه فى حياتهن الواقعية !

واستطاعت صغرى الاخوات الثلاث ــ وهى « آن برونتى » ــ أن تخلد اسمها بقصة : « آجنس جراى » ٠٠ وكانت وسطاهن

أكثر توفيقا بقصتها : « مرتفعات وذرنج » ، وان كان صيت هذا التوفيق واتاها متأخرا ، بعد ان ماتت ٠٠ فقد أعيد طبع القصة مرارا ، واقتبس موضوعها لافلام سينمائية أمريكية ، وانجليزية ، ومصرية !٠٠ بيد أن الفتاتين لم تصيبا من المجد والشهرة ما أصابته كبراهن « شارلوت برونتى » ، عندما وضعت الرواية التى اخترتها لك اليوم ٠٠ « جين اير »

على أن « شارلوت » فاقت اختيها فى ناحية أخرى أيضا ٠٠ فى تحمل العناء والآلام والاسى فى هذه الحياة ! ٠٠ لقد عاشت اربعين عاما فى ظلام الحزن والشجن والحرمان العاطفى ٠٠ وكان الحب الوحيد الذى خفق به قلبها ، حبا مقضيا عليه بالفشل من بدايته ٠٠ وأخلدت بعد يأسها منه الى العزلة ، وليس من أنيس لها ـ بعد موت أختيها وأخيها ـ سوى قلمها ٠٠ وفى نهاية الاربعين عاما التى عاشتها ، لاحت طلائع فجر الفرح فى حياتها ، ولكن ٠٠ ولكن القدر لم يشأ أن يمهلها حتى يطلع الفجر !

لقد كانت حياة « شارلوت » مأساة ، لاتقل روعة عن مأساة « جين » ٠٠ وقد تستطيع أن تلمس أوجه شبه بين الاثنتين ، عندما تقرأ قصتيهما ، فلأدعك لهما ، ولا أشغلك عنهما أكثر مما شغلتك

ولك تحياتى

حلمى مراد

قصة حياة المؤلفة : « شارلوت برونتى »



• **كانت** قرية « هاورث » تقوم على رأس سفح مرتفع ـ فى مقاطعة يوركشاير ـ يمعن فى الارتفاع حتى ليحسبه المرء مشرئبا ليمس السماء ٠٠ وخلف الكنيسة ، كانت دار القس تلوح خلال أفواف الضباب والمطر، كأنها صرح عتيق مهجور، ترين عليه الجهامة والاكتئاب ، فلا تكاد تنبعث منه ضحكة ٠٠ وكأنما خلعت المقبرة التى قامت فى حديقة الكنيسة ، شيئا من صمتها الساجي ، ورهبتها الخاشعة ، على راعيها وأسرته وداره ٠٠ وفى حجرات تلك الدار ، التى حفت بها المقبرة من أمام ، والمستنقعات من خلف ، ولد للقس ستة أبناء ، تجرى فى عروقهم الدماء الايرلندية ، ولا يقلون جهامة وغرابة عن هذا الوسط الذى تلقاهم وأحاط بهم ٠٠ خمس بنات ، وولد !

فى عزلة مع الحزن والكآبة

• **وقدر** للاطفال أن يفقدوا أمهم ولما تتجاوز كبراهم الثامنة من عمرها ، بينما كانت صغراهم « آن » تحبو فى ثانى أعوام حياتها ٠٠ **واذ كان الاب من أتباع مذهب « كالفن » ، فقد كتب على الاولاد أن يعيشوا فى زهد وتقشف ، حتى لقد حرموا مذاق اللحم ، لان اللحم ـ فى مذهب الاب ـ من مظاهر الترف! ٠٠ بل ان اللعب كان ضربا من الرفاهية لايليق بهم ٠ ومن ثم طبعت حياتهم بالحزن والكآبة والشعور بالمسئولية ٠٠**

فقد كان حتما عليهم أن يتلقوا عن أبيهم دروسا فى الموت

والحياة الاخرى ، وهم بعد يمتصون أصابعهم ، ويحملقون فيما حولهم ، يحاولون التعرف على الحياة الدنيا !٠٠ وكيف كان لهم أن يعرفوا هذه الحياة وهم الذين لم يكونوا يلقون من الناس أحدا سوى أهل بيتهم ، ولا كانت ابصارهم تقع ـ خلال نوافذ حجرة الاطفال بالدار ـ على غير المقبرة الحزينه ، والمستنقعات الكئيبة ؟! وفى الصمت الواجم الذى كان يرين على عالمهم هذا ، كان الموت والشيطان لايكفان عن الصراع: أولهما يبغى الاستيلاء على أجسادهم ، وثانيهما يسعى للظفر بنفوسهم !٠٠ وكان الاب القس طرفا ثالثا فى الصراع ، يمثل الله ويشرف على تنفيذ تعاليمه ٠ فكان الاب « برونتى » يدعو أولاده الى مكتبه مرة فى كل أسبوع ، ليختبرهم فيما تكون اخته ـ العمة « برانويل » ـ قد لقنتهم من دروس ٠٠ وكان الاطفال يقفون أمامه فى أدب وخضوع ، شأن الصغار أمام أبيهم ، فيسألهم بالدور :

ـ ما الذى يعوز الانسان اذا ما كان فى مثل سنك يا آن ؟

وتجيب « آن » ذات العينين الزرقاوين ، التى لم تتجاوز الرابعة : « التجربة والخبرة يا ابت ! »

ـ وما الذى ينبغى أن أفعله بأخيك « برانويل » اذا ما كان مشاكسا يا اميلى ؟

وتجيب « اميلى » ، التى كانت فى الخامسة من عمرها : « تجادله بالتى هى أحسن ، فاذا لم يرعو لصوت العقل ، تضربه بالسوط ! »

« شارلوت » فى الثامنة من عمرها

◆ **وتثلج** الاجابتان صدره ، فهكذا ينبغى أن تكون أخلاق المتطهرين ـ « البيوريتان » ـ فى رأيه ٠ **ولا يلبث أن يلتفت الى « شارلوت » التى لم تتجاوز الثامنة من عمرها ، والتى لم تؤت قبسا من الجمال ، بل كانت ذات فم واسع معوج ، وعينين**

حالمتين ، فيسألها : ماهو أفضل كتاب فى الدنيا ؟ »

ـ التوراة ٠٠ والطبيعة يا أبت !

ويتحول الاب الى « ماريا » ، كبرى البنات ، فيسألها . « خبرينى يا ابنتى ، ما أفضل الطرق للافادة من الوقت ؟ » ٠٠وتجيب ابنة الربيع العاشر من العمر : « أعتقد ان خيرطريقة للافادة من الوقت ، هى فى تكريسه للاستعداد للحياة الاخرى!»

ويحين دور «برانويل» ، الابن الذى عقد عليه الاب«برونتى» آماله ، وكان ـ اذ ذاك ـ صبيا مشاكسا ، شرسا ، فى السابعة من عمره ٠ فيسأله : « ما أفضل الوسائل لمعرفة الفوارق بين ذكاء الرجال ومدارك النساء ؟ »

ويقطب « برانويل » ، ثم يقول : « مراعاة الفارق بينهم فى الجسم ياسيدى ! » ٠٠ ويبهت مستر « برونتى » لهذا الجواب !

وينتهى الاختبار ، فيسمح الاب لاولاده الستة بأن يخرجوا للنزهة مع كلبهم ، مكافأة لهم ، فينطلقوا فى الارض المعشوشبة التى تتخللها المستنقعات ٠٠ وفى تلك السويعات القلائل ، كانت يد خفية عجيبة تربط بين الاطفال الذين كانوا يعيشون فى عزلة ، وكأنما غفل عنهم البشر ، وبين المنطقة المعشوشبة ـ الحمأة ـ التى كانت تبدو وكأنما نبذها الله وأهملها ٠٠ وما أشد ما كان الشبه بين الفريقين ٠٠ الاولاد اليتامى الذين فقدوا الام ورعايتها ، والمنطقة المهمله اليتيمة التى فقدت رعاية المصلح !

عالم من نسج الخيال !

◆ **وأرسل** الاب«برونتى» بناته الى مدرسة بقرب (برادفورد) ٠ ولكن نقص التغذية ، وشظف الحياة ، لم يلبثا أن قصفا عمرى « ماريا »و« اليزابيث » ، الابنتين الكبريين ٠وعادت «شارلوت»

و « اميلى » و « آن » الى دار القس فى (هاورث) ٠ واذ أصبحت « شارلوت » كبرىاخواتها ، فانها لاتلبث أن تنصب نفسها أما لهم ، تنظم شئونهم ، وترعاهم ، وتعلمهم ، وتقرأ صحيفة الصباح على أبيها وهو يحتسى قهوته ٠٠ وتتزعم الاطفال فى الالحاف على « تابى » الخادم ، كى تروى لهم قصص الجان و « العفاريت » ٠٠ وتسترسل فى الاحلام التى كانت ترى فيها نفسها مع دوق « ولينجتون » ـ بطلها المحبوب ـ فى جزيرة خلت الا منهما !

وكان لابد لمن يقيمون فى دار قس (هاورث) من ان يلتمسوا الزمالة والحياة الاجتماعية فى الخيال ، فقل من كان ينشد زمالتهم أو ينفذ الى حياتهم ٠ ومن ثم فان التاريخ لم يعرف اخوة أوتوا من الخيال المشحوذ ، المرهف ، ما أوتيه ابناء القس « برونتى » ٠٠ البنات الثلاث والولد : فقد راحوا يسودون المذكرات بمغامرات خيالية ، واجتماعات موهومة ، وأقاصيص تصور نفوسهم فى آلاف من مرايا الفكر والوهم ٠٠ وكانوابهذا يخلقون لانفسهم عالما خاصا بهم ، عزز الوشائج بينهم

وتقول شارلوت عن هذه الحقبة : « كنا نعتمد كل الاعتماد على أنفسنا ، ويركن كل منا الى الآخر ، والى الكتب ، والى الدروس ، نلتمس فيها مايملأ حياتنا من لهو وشغل » ٠ وهى تذكر أن محاولة الكتابة الادبية كانت أشد مايستأثر بشغفهم ، وما يبعث السرور فى نفوسهم

« شارلوت » فى المدرسة

◆ **على** ان الاب لم يلبث أن قرر أن من الخليق بشارلوت ـ وكانت قد بلغت الرابعةعشرة ـ أن تنال نصيبا من الدراسة النظامية ، فأرسلها الى مدرسة للبنات ٠٠ وعندما وقفت فى اليوم الاول بين الطالبات ، بدت منكمشة ، وراحت عيناها تطرفان وتختلجان فى الضوء،مما أثار اشفاق البنات الاخريات،

وجزعهن ، بل منهن من كدن يبكين ٠٠ **فقد كانت هزيلة ، ضئيلة ، يكاد من يراها يحسبها لم تتجاوز العاشرة ٠٠ وكان بصرها كليلا ، قصير المدى ، مما كان يجعل عينيها تبدوان كعينى الضفدعة ، اذا واجهت بغتة ضوءا قويا ٠٠ وكان شعرها مضفورا ، وقد ارتدت ثوبا من الصوف الاخضر ، ارتدته عمتها قبل ذلك بجيل !٠٠ وكانت حركاتها أشبه بحركات حيوان صغير خائف !**

واختبرتها مس « وولر » ـ المدرسة ـ فألفتها متخلفة فى أبسط مبادىء الحساب والجغرافيا والنحو ، فلما حاولت ان تعرف مقدرتها على الكتابة ، امسكت الصبية العجيبة بالقلم ، وانحنت حتى كاد أنفها يلاصق الورق ، وراحت تكتب صفحة اثر أخرى ، فى اسلوب راق ٠٠ حتى اذا ابدت المعلمة دهشتها، قالت الفتاة فى بساطة : « لقد كتبت ملء اثنتين وعشرين كراسة من القصص ، فى دارنا ، ياسيدتى ! »

وفكت مس « وولر » ضفائر التلميذة الجديدة ، فاذا شعرها ينساب جميلا على كتفيها ٠ وخصتها المدرسة بنظام خاص للتغذية ، أتاح للفتاة أن تتناول ـ لاول مرة فى حياتها ـ اللحم والحساء و « الصلصة » ٠ وسرعان ما اكتسب جسمها الهزيل التفافا أضفى عليه جمالا

تحلل الشخصيات وهى فى الخامسة !

• **وما** لبثت أن تغلبت على حيائها وانطوائها ، حتى لقد صارت تستبقى زميلاتها مستيقظات ـ فى عنبر النوم ـ الى ساعة متأخرة من الليل ، بما كانت ترويه لهن من قصص أراضى المستنقعات ! ٠٠ وكان الحماس يستولى عليها ، فتتألق عيناها، ويتضرج وجهها ، وهى تستسلم لاجنحة الخيال تحلق عليها

فى مغامرات مثيرة . وقد كتبت احدى زميلاتها يوما تقول :

« أثارت شارلوت الذعر فى نفوسنا ذات مساء بما راحت ترويه عن مغامرات فتاة اعتادت ان تسير أثناء نومها .. لقد جمعت فى قصتها كل ما كان فى متناول خيالها من أهوال .. فمن بحر متلاطم الامواج ، الى قلعة منيعة الجدران ، الى ذرى عالية تشرف على وهاد سحيقة .. وندت صرخة واجفة من احدى المستمعات ، وكانت مريضة حديثة النقاهة .. واذ ذاك، توقفت شارلوت عن الرواية .. وما لبثت أن انبعثت منها صيحة ألم مكتومة ، ثم هتفت تنشد العون ، بصوت مرتجف.. واذا بها غارقة فى الدموع والاسى .. ومكثنا عدة أسابيع لانجرؤ على أن نسألها أن تستأنف القصص ! »

هكذا كانت عواطفها تنساق لخيالها اذا روت احدى قصصها ..

وكانت اذا تحدثت عن أختيها اللتين ماتتا ، تملكها الالم . فاذا أبدى أحد عجبه من دقةوصفها لاطوارهما وقد كانتصغيرة حين ماتتا ، قالت : « **لقد تعودت أن أحلل الشخصيات مذ كنت فى الخامسة من عمرى !** »

وبقدر نشاط قريحتها ، كان خمول جسدها . فكانت اذا ما اشتركت زميلاتها فى اللعب ، تلجأ الى كتاب عازفة عنهن .. ولعل ضعف بصرها كان من أهم أسباب عزوفها عن اللعب .. كان بصرها ضعيفا ، فى الوقت الذى كانت بصيرتها فيه حادة، ثاقبة !

خلقوا من غير طينة البشر !

◆ **وانتهى** الامر بشارلوت الى أن أصبحت مدرسة فىالمدرسة التى تعلمت فيها . بيد أنها لم تكن تميل الى التدريس . فأرسلت بعض أشعارها الى الشاعر « روبرت ساوذى » تلتمس تشجيعه ، ولكنه أرسل لها يقول : « **ليس من الممكن للادب أن**

يكون حرفة امرأة ٠٠ ولا ينبغى ! » ٠ وبعثت بشطر من رواية الى « وردسويرث » - وكان من فطاحل الشعراء اذ ذاك - ولكنه كتب لها زاعما انه لم يستطع أن يتبين : « **ماذا كانت المؤلفة كاتبة لدى موثق للعقود ، أو حائكة ناقصة العقل !** » ٠

وصدتها المحاولتان عن الاتجاه الى احتراف الادب ، فقبلت العمل كمربية لدى أسرة لندنية من الطبقة الوسطى ٠ ولكنها لم تستشعر فى حياتها الجديدة سعادة ولا هناء ٠ فقد كان رب الاسرة يعاملها كما لو كانت خادما ٠٠ وكان الاطفال « يسكبون اللبن على المائدة ، ويدس كل منهم أصبعه فى قدح أخيه ، ويمسحون أفواههم بأيديهم ، أو باطراف ثوب أمهم ٠٠ ويتجشأون كالعجول ، ويبصق كل منهم فى وجه أخيه ، أو فى حقيبة المربية ! »

ومن ثم لم تلبث أن هجرت عملها فى استياء ، وقد ضاعف اخفاقها فيه من شعورها بالنقص ٠ ولكن ٠٠ ما الذى ينبغى لها أن تفعل اذن ؟ ٠٠ **أتتزوج ؟٠٠ كان الزواج أبعد الامور عن ذهنها ، اذ من ذا الذى يتزوج من فتاة « بلا مال ولا جمال » !**

وهكذا لم تكن « شارلوت » سعيدة فى حياتها ٠ ٠ ولا كان أحد من آل « برونتى » سعيدا ، فكأنما خلقوا من طينة غير طينة البشر ودنياهم ٠٠ اذ كانت « آن » لاتقوى على الظهور أمام أغراب عنها ، وكانت تعسة فى عملها كمربية للاطفال ٠ وكانت « اميلى » تأبى العمل بعيدا عن قريتها ومفارقة مستنقعاتها ٠ أما « برانويل » - أمل أبيه - فقد ارتمى بعد محاولات فاشلة لبيع قصصه ، فى أحضان المواخير ، حيث كان يجد جمهورا يقدر تلك القصص ، ويقدر براعته ، اذ كان يستطيع أن يكتب خطابين ، بيديه الاثنتين ، فى آن واحد ! ٠٠ كما كان يحذق رواية النكات الايرلندية اللاذعة !

تهوى أستاذا دميما ٠٠ متزوجا !

● **وكان** لابد من عمل لاصلاح حال الاسرة ، فآلت « شارلوت »

على نفسها أن تضطلع بهذا العبء • وسنحت لها الفرصة حين تلقت يوما رسالة من احدى زميلات الدراسة ، وكانت تدرس فى مدرسة داخلية فى (بروكسل) ، فقررت أن تصحب «اميلى» الى بلجيكا ، حيث تدرسان لعام كيف تدار المدارس ، ثم تعودان فتنشئان فى « هوارث » مدرسة راقية للبنات •

وهكذا رحلت وهى فى السادسة والعشرين من عمـرها ، فالتحقت بمدرسة داخلية يديرها زوجان •• مسـيو ومدام « هيجير » • وسرعان ما تعلقت بالرجل رغم انه كان أبا لخمسة أبناء ، ورغم انه كان « أبشع رجل فى العالم • • كان قصير الساقين ، بارز سقف الجمجمة ، ذا شعر اسود غزير قصـير ، ونظارة تنحدر على أنفه، وتتألق خلفها عينان كجذوتين من نار•• كان مخلوقا ضئيل الجسم ، أسمر البشرة ، ذا وجه لاتستقر ملامحه ، فهو تارة يستعير قسمات قط برى مسعور ، وطـورا قسمات ضبع محموم ! » •• **وكان على النقيض منها تماما : فى السن ، والميول ، والطباع • ولكنه كان أول رجل مرهف الذكاء صادفته !**

واصطفاها الرجل من بين تلميذاته، ليؤثرها بدروس خاصة، جعلت من ذهنها الطفل الساذج « ذهنا قويا فيه صفات تفكير الرجولة » • اذ كشف لها عن دنيا الفلسفة ، والعلم ، والفن ، وقادها الى آفاق جديدة من خبرة البشر •• **وأحست الفتاة الى جواره ، ببوادر يقظة العاطفة • حتى اذا استكملت عامهـا ، وعادت الى (هاورث) ، كتب الرجل الى ابيها يرجو أن تعود اليه تلميذته الفذة !•• وعادت « شارلوت » الى بروكسـل ، « تجتذبها قوة لاقبل لها بمقاومتها ! » • وشد ما كانت غبطتها حين سألها مسيو «هيجير» ان تعلمه الانجليزية ، فأتاح لهـا بذلك الفرص كى تخلو الى الرجل الذى أصبح •• كل شىء فى دنياها !**

تحتفظ بأعقاب سيجار حبيبها !

◆ **وكانت** مدام « هيجير » تلاحظ هذه الاعراض بأعصاب باردة ٠٠ كانت الانجليزية الشابة الخجول لاتكلم أحدا ، ولا تبسم لاحد سوى زوجها ٠٠ **وكانت اذا جلست اليه : « أشرق وجهها ، واكتسب جمالا لم تكن تفطن اليه ! » ٠٠ كانت معه تتحول الى امرأة مشتهاة !** ٠٠ ومن ثم لعبت مدام « هيجير » دورها بدهاء المرأة المجربة ، فتعمدت ــ فى لباقة ــ أن تعدل جدول دروس زوجها ، بحيث لاتتفق أوقات فراغه مع أوقات فراغ تلميذته ٠ وصدت « شارلوت » ــ فى براعة ــ عن أن ترتاد غرفة جلوس الاسرة وكأنها من أفراد هذه الاسرة ٠ على أنه ما كان ينبغى لمدام «هيجير» أن تخشى هذه الفتاة الساذجة٠ **فان « شارلوت » لم تكن ترى الحب قبلات وعناقا ، وانما كان: « الحب ، كما افهمه ، ليس بالشيء الذى يجانب الصواب ، والنبل ، والاخلاص » ٠٠ ولم تكن تبغى من وراء غرامها ، سوى أن تكون مع ذاك الذى أحبته ٠٠ أن تحظى بنظرة منه ، وأن تنصت ساعة الى جرس صوته ، وأن تجمع السيجار الذى كان ينساه وراءه ولما يدخن سوى نصفه ٠٠**

لم تكن تبغى سوى هذا٠٠ولكنها حرمت من هذه البسائط، على قلتها وتواضعها !

وهو ؟!٠٠ انه لم يكن يعى ما يساورها ٠٠ لم يفطن الى وجدها ، ولم يشعر بحبها ، خلال العامين اللذين قضتهما فى (بروكسل) فى هذه المرة ٠٠ كان يحدثها عن العواطف وكأنها أفكار وآراء عقلية مجردة ، فى الوقت الذى كانت هى فيه تكتوى بنيران الجوى ٠٠ عامان قضتهما فى ظلام ، تتخبط بلا رفيق ولا نصير ٠ ثم عثرت ذات يوم على صديق ٠٠ وكان ذلك الصديق : كنيسة !٠٠ كنيسة القديسة « جوديل » ٠٠ ووقفت لحظة تسرح بصرها خلال أبواب هذه الكنيسة ، تحملق فى

الشموع الموقدة ، ثم أقدمت على مالم يقدر لابيها وأختيها أن يدركوه أبدا ٠٠ سارت الى داخل الكنيسة ، لتلقى بنفسها فى أحضان المذهب الكاثوليكى ٠٠ وركعت عند المذبح لكى تعترف، وتفضفض بما كان يضنيها ٠٠ بقصة حبها !٠٠ وروت آلامها ، كما يروى الطفل شكاته لامه ، ثم بارحت الكنيسة • فحزمت أمتعتها ، ورحلت لفورها الى (هوارث) !

« شارلوت » العاشقة تكتب خطابات متاججة

• **وهناك** أمسكت بالقلم ، لتكتب له أروع الرسائل وأحفلها بالعواطف ٠٠ رسائل تتلظى بالنيران المتأججة فى فؤادها : « سيدى ، ان الفقراء لايحتاجون الى الكثير ليقيم أودهم ويصون بقاءهم فى الحياة ٠ بل انهم لايرجون سوى الفتات الذى يتساقط عن مائدة الغنى ٠ **وأنا الاخرى لا أطمع فى غير قسط ضئيل من عطف من أحبهم ، اذ أننى لا أدرى ما الذى أفعله بالولاء الكامل ، الشامل منهم ٠٠ فأنا لم آلف التفكير فى ذلك ٠** ومع هذا ، فاننى أدرك أن ثمة أناسا ذوى تفكير رزين وأعصاب باردة ، خليقون بأن يقولوا ، اذا ماقرأوا هذا : «انها تهذى! »٠٠ ولست أرجو من ثأر سوى أن يجرب هؤلاء الناس يوما ماعانيت من عذاب خلال ثمانية شهور ٠٠ لسوف نرى اذ ذاك ما اذا كانوا هم الآخرون يهذون !٠٠ ان المرء يتحمل العذاب فى صمت ، طالما كانت لديه القوة ، أما اذا انهارت هذه القوة ، فانه يتكلم دون أن يزن كلماته ! »

ولم تتلق ردا ٠٠ كان رجلا « مستقيما » ، فلم يحفل برسائلها ٠٠ ومن جديد ، عادت تكتب اليه : « **لقد حاولت أن أنساك ٠٠ فعلت كل شىء ٠٠ حاولت أن أشغل نفسى باستمرار** ٠٠ لماذا لا أملك أن أشعر نحوك بنفس القدر من الصداقة الذى تشعر به نحوى ، دون زيادة أو نقصان ؟٠٠ لو اننى استطعت ، لتحررت ، ولكان فى وسعى أن أصمت سنوات آ٠٠

انني أسألك صنيعا ، ياسيدى ٠٠ حدثنى عن أطفالك ٠٠ تكلم عما يحلو لك ، يا استاذى ، لمجرد أن أحظى بحديثك ٠ ٠ فانه - بالنسبة لى - بمثابة الحياة ٠٠ **أما ان تمنعنى من الكتابة ، وأما أن ترفض الرد ، فكأنك تنتزع منى السعادة الوحيدة التى حظيت بها من دنياى ، وتنتزع منى آخر نعمة لدى ! »**

تصارع الجنون باللجوء الى القلم !

• **وجاءها** - أخيرا - رد ، فكتبت تقول : «لقد غذانى خطابك ستة شهور ، ولا بد لى الآن من آخر ، ولسوف ترسله ،لابدافع من الصداقة - اذ أنك لاتشعر بها كثيرا - وانما لان لك قلبا رفيقا ، شفوقا ، يأبى عليك ان تقضى على امرىء بالعذاب الطويل ، لمجرد أن تجنب نفسك لحظات من السأم ! »

وأخذت تلجأ الى قلمها ، لتنقذ نفسها من الجنون ٠ ٠ ولكنها لم تتلق جوابا ٠٠ واذ ذاك ، صهرت عذابها وصبته فى قالب قصة ٠٠ قصة للاجيال ، وللخلود ٠٠ **هى قصة « جين اير »** التى نقدم اليك أول ترجمة عربية أمينة ، دقيقة ، لها فى هذا الكتاب

وعندما ظهرت « جين اير » للمرة الاولى - فى سنة ١٨٤٧- أحدثت ضجة هائلة ، ولقيت رواجا عظيما ، حتى لقد أعيد طبعها فى ديسمبر من نفس العام ، ثم طبعت مرة ثالثة فى ابريل سنة ١٨٤٨ ٠٠ وتوالت الطبعات بعد ذلك ، ولا تزال تتوالى ٠٠ **ولكن المهم في الامر ، أن يكون الكتاب أول انتاج لمؤلفة مجهولة ، مغمورة ، ويطبع ثلاث مرات في حوالى العام ، بل أقل من عام ٠ ومتى ٠٠ قبيل منتصف القرن التاسع عشر، ولما يبلغ التعليم مبلغه اليوم ، ولما تنفسح أمام الانتاج الادبى الانجليزى أسواق العالم كما تنفسح اليوم !**

قصة هواها باسم مستعار !

• **وأطرف** من هذا كله ، روح الكاتبة وشعورها ، وهى تدفع

بكتابها الاول الى دنيا النشر .. فلقد قالت لاختيهـــا : « ان الكتاب ليخطئون اذ يصرون على أن يجعلوا بطلاتهم جميـلات ، ويتخذون من هذا قاعدة .. ولسوف أثبت انهم مخطئون .. سأقدم بطلة خالية من الجمال ، ضئيلة الجسم ، مثلى تماما! » .. **ولم ينقض اسبوعان على ظهور الكتاب ، حتى كان حديث القوم فى صالونات الشاى والمجتمعات، يتناولونه فى اعجاب وانبهار، ويتساءلون : من ذلك الكاتب الذى انتحل لنفسه اسم « كورر بيل »** ، فما شك القوم فى ان المؤلف الذى وضع رواية غرامية على غير المألوف فى قصص الهوى ، اذ جعل بطلتها مربية ليس فيها مايبهر الرجال ، ولكنها تقع فى هوى رجل متزوج من امرأة معتوهة مخبولة .. ما شك القوم فى أن المؤلف لم يجسر على نشر اسمه الحقيقى على الرواية ، لما فيها من خرق للتقاليد التى جرى عليها المؤلفون .. **ولكن أحدا لم يتصور اطلاقا ان المؤلف ليس فى الواقع « مؤلفا » ، وانما هو .. « مؤلفة » .. انثى .. وعذراء !**

وكان اديب انجلترا الخالد الذكر « ثاكيراى » قد تورط فى نفس الوقت ، فى مثـل هذا الخرق لتقاليـــد مؤلفى القصص الغراميـــة ، اذ أصدر رواية « فانيتى فير » .. فلم يتردد فى الاعتراف بعبقرية « كورر » ، حتى انه بادر فأرسل اليه نسخة من روايته ، تحمل اهداء بخط يده .. وما خطر له قط ـ اذ ذاك ـ ان الزميل العبقرى ، كان .. **ابنـة قس « بيوريتانى » متزمت !**

ولقد ردت « شارلوت برونتى » هذه التحية بأجمل منهـا ، اذ صدرت الطبعة الثانية من كتابها ، باهداء الى «ثاكيراى» .. وكان الرأى العام قد فطن الى شخصيتها ، فلم يسعه سوى أن يظن أن « المؤلفة » العاطفية الجريئة ، لابد أن تكون **« عشيقة »** للمؤلف العاطفى الجرىء !

تفقد اخوتها فى أسابيع قلائل

• **وما درى** الناس أن « شارلوت برونتى » كانت ترزح تحت أفدح الاحزان ، فى الوقت الذى سلط المجد فيه أضواءه على « كورر بيل » . فان اخاها « برانويل » مات ولم يكن قد تجاوز الحادية والثلاثين من عمره .. وكان قد رحل الى لندن ، ليبرز فى فن الرسم ، فتردى فى مباذل الفنانين ، ثم عمل مدرسا لابناء رجل موسر ، ولكنه طرد من عمله حين ظهر انه كان يدبر خطته للفرار مع أم تلاميذه !.. **وانحدرت به الحال حتى عمل كمحصل فى أحد الخطوط الحديدية ، الى أن اكتشف المفتش انه كان يرسم فى دفاتره صور « فينوس » بدلا من أن يسجل الارقام ، وكان يثبت قصائد من الشعر فى مكان الحسابات !**

وعندما هوت مكانة « برانويل » الى الحضيض ، عكف على ترجمة « الاوديسة » الى شعر انجليزى راق .. وافرط فى الشراب ، حتى قضى نحبه مخمورا !.. ولم تنقض اسابيع قلائل ، حتى لحقت به « اميلى » ، التى قضت العمر صامتة ، بينما كان قلبها يتأجج بسعير نفثته فى قصة «مرتفعات ويذرنج» .. وان هو الا شهر ، حتى أنشب السل مخالبه فى رئتى «آن» .. صغرى الاخوات !.. وحملتها « شارلوت » الى البحر عسى أن تفيد من نسيمه ، ولكن « آن » أدركت أن النهاية قد دنت ، فشدت على يد « شارلوت » وهى تهمس : « تشجعى ! » .. ولم يحن أصيل ذلك اليوم حتى ماتت !..

ووقفت « شارلوت » وحيدة ، فى ضياء الشمس الآفلة ، وفى أذنيها أصداء أبيات من شعر « اميلى » :

« اذا كانت الارض والقمر قد وليا ..
والشموس والاكوان قد غابت عن الوجود
وبقيت أنت وحيدة ..
فان الوجود كله .. سينحصر فيك ! »

تعيش فى الماضى مع الذكريات

◆ أعلن الخادم فى دار مسز « هارييت مارتينو » مقدم الآنسة « بروجدن » .. وأقبلت فى أعقابه إمرأة ، لم ير الضيوف من تصغرها جسما من قبل .. وكانت مستحيية ، خفيضه الصوت ، حتى ان الخادم لم يسمع اسم « برونتى » من شفتيها واضحا ، فظنه « بروجدن » ! ..ومدت «شارلوت» الى صاحبة الدار يدا صغيرة طريه ، كأنها « مخلب طائر صغير » ، ثم انزوت فى أحد الاركان، وعيناها تطرفان فى كلل وارتباك..

وكانت « شارلوت » قد غالبت خجلها وانطواءها ، وغادرت (هاورث) لتزور ناشرى كتابها ، فبذل الشريكان كل حيلةفى حملها على قبول برنامج حافل بزيارات وحفلات ومآدب تليق بشهرتها .. وراحت تقضى نهارها فى التنقل والقاء المحاضرات، وتأوى فى ليلها الى حجرات فخمة أعدت لنزولها .. **وكان القوم يتوقعون أن يلتقوا بفتاة فيها كل ما فى الانوثة من رغبة فى انتزاع الاعجاب ، فاذا بهم ازاء مخلوقة صامتة ، منطوية ، تكاد تتوارى خلف قطع الاثاث أو تحتها ، اذ كانت تحس بآلام عنيفة لوجودها بين الناس !.. وعندما تركها الناشران فى النهاية ، لتختار مايحلو لها من أماكن تزورها ، اختارت اثنين من السجون ، وملجأ للقطاء ، ومستشفى للمجاذيب !**

وكتبت « شارلوت » بعد ذلك قصتين .. « شيرلى » ـ التى تمثل صفحه من حياتها ، عندما كانت تعمل مربية فى لندن ـ و « فيلليت » أو « فييت » ، التى استمدتها من ذكريات حياتها

فى بلجيكا ٠٠ قصتان من الماضى ، فقد مضى كل شىء ، بالنسبة لها ، ولم يعد لها فى حاضرها سوى الذكريات تعيش عليها ٠٠ بل انها نفسها أصبحت تمت الى الماضى ، فقد كانت تبدو فى الستين من عمرها ، قبل أن تتجاوز الاربعين !

زواج بعد الاربعين !

• **أفكان** ثمة مجال للحب عند تلك التى كانت تعيش فى الماضى ؟!

لقد تطايرت الشائعات بأن قسا من أبناء الجيرة صارحها بهواه ٠ وكان الامر حقيقه واقعة ، فقد شاء أحد القساوسة أن يتيح لها بعثا جديدا فى الحياة ٠٠ وكان جامد الفكر خلوا من المواهب ، فى حين أنها كانت موهوبة ، مشهورة ، ولكنها ٠٠ حزينة ٠ ومع الفارق الكبير بينهما ، فانها قبلت ٠٠ **وبعد كثير من الهم والاسى ، وقفت الى جواره بعد ظهر عيد الميلاد من سنة ١٨٥٤ ، فى ثوب الزفاف ، لتربط حياتها بحياته ٠٠ وكانت هذه هى الفرحة الوحيدة فى حياتها !**

ودامت هذه الفرحة شهورا ، ثم تطايرت الانباء من « يوركشاير » الى لندن ، بأن « شارلوت » قد حملت ، وان البهجة دبت من جديد ، فى فؤاد ابنة (هاورث) الحزينة ٠٠ ولكنها سرعان ما مرضت ، ولازمت الفراش ٠ وراح الأطباء يطمئنونها بأن الوهن أمر طبيعى يصحب الحمل لمن كانت مثلها ٠ وأخذت تقضى وقتها مسرحة البصر خلال النوافذ الى « الامطار الدافقة التى كانت تغرق الحديقة ، والى المستنقعات التى لفها الضباب » ٠٠ وكانت تحس فى ضعفها بقوة غريبة ، عجيبة ٠٠ **وما درت أن الموت كان ينمو مع نمو الحياة الجديدة التى كانت تدب فى أحشائها ٠٠ ثم اشتد نمو الموت حتى فاق نموالجنين ، فما لبثت أن زهدت مولد الطفل ، وفقدت كل اغتباط كان يفعم**

نفسها لمقدمه ٠٠ وكانت تقول لزوجها وهو يحنو عليها : «اننى من التعب بحيث لم أعد أقوى على ان أحفل به » ٠٠ ثم ترفع رأسها نحوه لتقول : « لا ، لن أموت ! ٠٠ لن يفرق بينننــــا ! » ٠٠ **ولكن رياح شهر مارس حملتها معها عبر نهر الظلمات ، الى ٠٠ الى حيث تبدأ الحياة من جديد ، فى العالم الآخر !**

---

١٠ تواريخ فى حياة « شارلوت برونتى »

١٨١٦ : ولدت بمقاطعة (يوركشاير)
١٨٣٠ : التحقت بمدرسة داخلية للبنات
١٨٤٢ : درست فى بلجيكا ، ووقعت فى غرام استاذها
١٨٤٤ : عادت الى دار أسرتها فى (هاورث) وقد يئست من غرامها
١٨٤٦ : نشرت بالاشتراك مع اختيها « اميل » و « آن » ديوانا شعريا ، تحت أسماء مستعارة : « كورر ، واليس ، واكتون بيل »
١٨٤٧ : نشرت « جين اير »
١٨٤٩ : أتمت كتابة روايتها الثانية « شيرلى »
١٨٥٣ : اتمت كتابة روايتها الثالثة « فيلليت »
١٨٥٤ : تزوجت من القس ارثر بيل نيكولس ٠ ومن طريف المصادفة، ان ثانى اسمائه « بيل » هو نفس الاسم المستعار الذى كانت تتخذه قبل اشتهارها
١٨٥٥ : ماتت وهى حامل

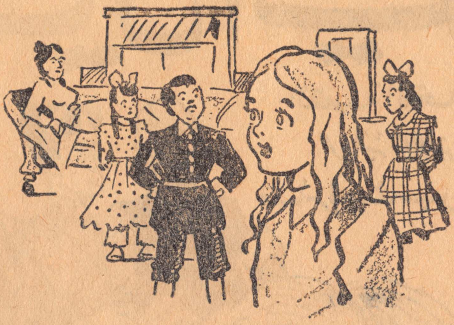
چين اير

القصة الخالدة

للروائية الانجليزية

شارلوت برونتي





الفصـل الاول

• لم يكن فى الوسع ان نتمشى فى ذلك اليـوم ٠٠ فلقد قضينا - فى الواقع - ساعة كاملة من الصباح ، ونحن نتجول بين الاشجار الجرداء ٠٠ بيد أن رياح الشتاء القارس ما لبثت بعد الغداء - اذ تتغدى مسز « ريد » عادة فى ساعة مبكرة ، عندما لايكون ثمة ضيوف - ان أخذت تجلب معها سحبا قاتمة، ومطرا ثاقبا ، لايتأتى معهما أن نخرج لاية رياضة ٠ ولقـد فرحت بذلك ، لاننى لم أكن أحب مطلقا ان أسير لمسـافات طويلة ، لاسيما فى الاصائل الباردة ٠ وكم كان يروعنى أن أعود الى المنزل فى غسق الليل ، بأصـابع يهرؤها البرد ، وبقلب يملأه الاسى لتأنيبات « بيسى » المربيـة ، ويستذله الشعور بضعف بنيتى بالنسبة لكل من « اليزآ » و « جون » و « جورجيانا ريد » !

وكان هـؤلاء - « اليزا » و « جون » و « جورجيـانا » - يلتفون فى تلك الاثناء حول والدتهم فى حجرة الجلوس ،وهى مضطجعة على أريكة بجـوار المدفأة ، ومن حولهـا أحباؤها

الصغار ، وقد كفوا فى تلك الآونة عن العراك والضجيج ، فتبدت عليهم السعادة موفورة كاملة ! أما أنا ، فقد أعفتنى مسز « ريد » من شرف الانضمام الى هذه الثلة ، قائلة انها تأسف اذ تضطر الى اقصائى بعيدا ، وانها ان لم تسمع من « بيسى » ، وان لم تر بنفسها ، أننى جادة السعى فى أن تكون طباعى أكثر تآلفا وبساطة ، وفى ان تكون أخلاقى أكثر جاذبية ومراحا ـ أى أن تكون أوفر مما هى عليه الآن لطفا ، وصراحة ، ومواءمة للطبيعة ـ فسوف تحرمنى كل الامتيازات التى لا تغدق على غير السعداء من الاطفال الصغار !..

وكنت أسألها : « وما الذى قالت بيسى اننى فعلته؟ » ، فتجيب: « اسمعى ياجين .. أنا لا أحب من يكابرون ويستجوبون .. فضلا عن اننى أكره فى الطفلة ان تتحدث الى من يكبرونها بمثل هذه الطريقة . هيا اجلسى فى مكان ما ، واخلدى الى الصمت ، ما لم تستطيعى التحدث بلطف ! »

وكانت تتصل بحجرة الجلوس غرفة صغيرة لتناول الافطار، فتسللت اليها . وكانت تحوى صوانا للكتب ، فسرعان ما استوليت منه على كتاب عنيت بأن يكون زاخرا بالصور ، ثم ارتقيت قاعدة النافذة ، فرفعت قدمى ، وجلست متربعة كجلسة الاتراك ، وجذبت الستارة الحمراء المشجرة حتى كدت أسدلها على تماما ، فأصبحت بذلك فى عزلة مزدوجة : فقد كانت طيات الستارة القرمزية تحجبنى وتحجب عنى الرؤية من ناحية اليمين ، بينما كانت ألواح الزجاج الى اليسار ، تحمينى ـ دون ان تفصلنى فصلا ـ من طقس ذلك اليوم الكئيب من أيام شهر نوفمبر . وفيما كنت أقلب صفحات كتابى بين الفينة والاخرى ، أخذت أتفحص « طلعة » الشتاء بعد ظهر ذلك اليوم . كانت ثمة صفحة باهتة من الضباب والسحاب على البعد ، ومنظر يتألف من أرض مخضلة،

ودغل عبثت به العاصفة ، وأمطار تهطل مدرارة دون انقطاع ، وتندفع هوجاء أمام زوبعة هائلة تثير الشجن فى النفوس

وكنت لا ألبث ان أعود الى كتابى : « تاريخ الطيور البريطانية » ، من تأليف « بويك » .. وما كان موضوعه يعنينى فى كثير ، ولكننى - رغم طفولتى - لم أستطع ان أمر ببعض صفحاته الاولى دون احتفاء ، اذ كانت تتناول مآوى الطيور ، وتلك الصخور والجبال المنعزلة فى جوف البحر ، والتى لا تسكنها سوى تلك الطيور .. كما كانت تتحدث عن ساحل النرويج الذى ترصع الجزر طرفه الجنوبى ، من (ليندنيس) أو (نيز) الى (نورث كيب) :

حيث المحيط الشمالى يغلى فى دوامات واسعة
حول جزر (ثول) النائية ، العارية ، الحزينة
وحيث موج المحيط الاطلسى يتدافع
متدفقا بين جزر (هبريد) العاصفة !

كذلك لم أقو على أن أغفل تصويره تلك الشطآن الصخرية الجرداء فى (لابلاند) و (سيبريا) و(ايسلاند) و (جرينلاند)، وما يترامى منها فى المنطقة القطبية المتجمدة .. ولا تلك المناطق الشاسعة ، المهجورة ، الموحشة .. مستودعات الصقيع والجليد ، حيث حقول الثلوج الراسخة ، التى تراكمت فى قرون من الشتاء ، تلتمع فى آرتفاعات شاهقة ، طبقات فوق طبقات حول القطب ، وتتركز فيها قساوات البرد القارس المتعددة !.. ومن هذه الممالك التى تبدو فى شحوب الموت ، كونت لنفسى فكرة مبهمة ككل الافكار نصف المفهومة التى تطفو معتمة فى أذهان الاطفال ، ولكنها تثير العواطف والاحاسيس الى حد عجيب . فقد كانت الكلمات فى هذه الصفحات الاولى تصور فى جلاء بالغ الصخرة التى شمخت بمفردها عالية فى بحر زاخر بالامواج والرذاذ ، والقارب المحطم الذى رسا

عند شاطىء مقفر ، والقمر البارد الشاحب الاسارير الذى أطل خلال قضبان من السحب على حطام سفينة غرقت لتوها. ورحت أعيش فى مناظر الكتاب ، فلم أدر أى « شعور » كان يراود صحن الكنيسة وقد غرق فى وحدته بنصبه المنقوش، وبوابته ، وشجرتيه ، وأفقه الواطىء الخفيض يحده سياج مهدم ، وهلاله الجديد الذى بزغ شاهدا على ساعة الاصيل.. والسفينتان الساكنتان فوق بحر هامد ، ظننتهما شبحين بحريين. أما العفريت الذى كان يدق ظهر لص فى جدار خلفه ، فقد مررت به على عجل ، لانه بعث فى نفسى الرعب والهلع. وكذلك فعلت بمنظر الشىء الاقرن ، الذى جلس على احدى الصخور فى ترفع وشموخ ، وهو يشرف على الحشد الذى أحاط على البعد باحدى المشانق

كانت كل صورة فى الكتاب تروى قصة كثيرا ما وجدتها غامضة على ادراكى غير الناضج ، ومشاعرى التى لما تكتمل .. ولكنها - مع ذلك - كانت دائما مشوقة ، وفى طرافة القصص التى كانت « بيسى » ترويها لنا أحيانا فى أمسيات الشتاء ، عندما يصادف ان يكون مزاجها صافيا ، فتجىء بمنضدة الكى الى غرفة الاطفال ، وتدعونا الى الجلوس حولها ، ثم تأخذ - وهى تكوى لمسز ريد ملابسها المصنوعة من « الدانتلا » وطاقية نومها - تغذى مسامعنا المرهفة بعبارات عن الحب والمغامرة ، تنتزعها من القصص الخرافية القديمة والروايات الشعرية العتيقة ، أو تستقيها - كما اكتشفت فيما بعد - من صفحات قصص « باميلا » و « هنرى ايرل مورلاند »

* * *

• **وهكذا** كنت - وأنا أحمل كتاب « بويك » على ركبتى - سعيدة .. سعيدة على طريقتى الخاصة ، على الاقل .. ولم أكن أخشى سوى أن يعكر شىء ما صفو خلوتى ، وهذا ما لم يلبث

ان حدث ، فان باب الحجرة سرعان ما فتح ليجلجل صـوت جون ريد :

ـ أوه ٠٠ مدام موب ! (يقصد السخرية من جين)

ثم توقف عندما وجد الحجرة خالية ـ كما كانت تبدو ـ ثم استطرد يتساءل : « ترى أين هى ؟ »

وصاح ينادى شقيقتيه : « ليزى ! جورجى ! ان جين ليست هنا ٠٠ ابلغا ماما أنها خرجت فى المطر ٠٠ هـذه الحيوانة الشقية ! »

فقلت فى نفسى : « لقد أحسنت اذ أسدلت الستارة » ٠٠ وتمنيت فى لهفة أن لايكشف « جون ريد » عن مخبـأى ، وما كان ليعثر عليه من تلقاء نفسه ، لانه لم يكن سريع النظر ولا سريع الادراك ٠٠ ولكن « ليزا » ما لبثت ان أطلت برأسها من الباب وصاحت لفورها :

ـ انهـا على قاعدة النافذة بلا ريب ياجاك (فهـكذا كـانوا ينادون جون فى البيت !)

وخرجت فى الحال لاننى كنت أرتعد لمجرد التفكير فى ان يجذبنى جاك هذا ٠ وسألتـه فى استخذاء وارتبـاك : « ماذا تريد ؟ »

فكان جوابه : « قولى : ماذا تريد ياسيد ريد ! ٠٠ أريدك على أن تأتى الى هنا ! »

ثم جلس فى مقعد ذى مسندين ، وأشـار بايماءة منه ان أقترب وأقف أمامه !

كان « جون ريد » تلميذا فى الرابعة عشرة من عمره ، أى انه كان يكبرنى بأربـع سـنوات ، اذ كنت آنذاك لا أعـدو العاشرة ٠ وكان ضخم الجسم ، قوى البناء بما يفوق سنه ، وقد أوتى بشرة معتمة لاتنم عن صحة ، وأسـارير غليظة فى وجه عريض ، وأطرافا ثقيلة ، وطباعا متطرفة ! ٠٠ وكان شرها

بعادته أمام المائدة ، مما جعله صفراوى المزاج ، واعتم عينيه ، وغشى بصره ، ورهل خديه . وكان جديرا به ان يكون فى مدرسته فى ذلك الوقت ، ولكن أمه سحبته منها ليقضى فى المنزل شهرا أو اثنين « بسبب صحته المرهفة » ! بينما كان مستر « مايلز » ـ ناظر المدرسة ـ يؤكد ان صحة الصبى سوف تتحسن جدا اذا ما قلت كمية الكعك والحلوى التى ترسل اليه من المنزل !.. بيد ان قلب الام عاف فكرة بهذه « القسوة ! » ، وانحاز الى الفكرة الاكثر رقة ، وهى ان شحوب «جون» كان بسبب ارهاقه فى العمل ، وربما ـ أيضا ـ بسبب حنينه الى الوطن !

ولم يكن « جون » يطوى فى أعماقه حبا شديدا لأمه أو شقيقتيه ، بينما كان يكن لى بغضا وكراهية ، ولذلك كان ينهرنى ويعاقبنى .. لا مرتين أو ثلاثا فى الاسبوع ، ولا مرة أو اثنتين فى اليوم ، وانما باستمرار وعلى الدوام !.. ولذلك كان كل عصب من أعصابى يخشاه ويرهبه ، وكانت كل مضغة من لحم على عظامى تنكمش اذا هو اقترب منى !..وكم من لحظات أذهلنى فيها الرعب الذى كان يبعثه فى نفسى ، فاننى لم أكن لاجد من يدرأ عنى وعيده وأذاه .. اذ أن الخدم لم يشاءوا اغضاب سيدهم الصغير بمظاهرتى ضده ، بينما كانت مسز ريد تدعى العمى والصمم فى هذا الشأن .. فهى لم تره قط يضربنى ، وهى لم تسمعه أبدا يهيننى ، وان كان يفعل الامرين فى حضرتها ـ من آن الى آخر ـ ويمعن كل الامعان فى ذلك من وراء ظهرها !

ولما كنت قد شببت على أن أطيعه ، فقد اقتربت من مقعده ، فقضى نحو ثلاث دقائق وهو يخرج لى لسانه الى أقصى مايستطيع ، حتى أوشك أن ينتزعه من جذوره . وكنت واثقة من انه لن يلبث ان يضربنى . وفيما كنت أوجس خيفة من

الضرب ، رحت أسرح الخاطر فى الصــــورة الكريهة الدميمة لوجه هذا الذى كان موشكا ان يضربنى · ويبدو انه قرأ فى وجهى ماكان يدور برأسى ، لانه ما لبث ـ دون ان ينبس بحرف ـ أن ضربنى على حين غرة ، وبعنف ، فترنحت · ولما استعدت توازنى ، ارتددت الى الخلف خطوة أو اثنتين بعيدا عن مقعده ·· فقال :

ـ هذا جزاء قحتك فى الرد على ماما منذ قليل ، ولطريقتك فى التسلل خلف الستائر ، وللنظرة التى كانت ترتسم فى عينيك منذ دقيقتين ·· أيتها الفأرة !

وكنت قد اعتدت شتائم « جون ريد » ، ولذلك لم يدر ببالى أن أرد عليها ، وانما كان كل همى منصرفا الى تحمــــل ألم الضربة التى كان من المحتوم ان تعقب السباب · وسألنى : « ماذا كنت تعملين خلف الستارة ؟ »

ـ كنت أقرأ !

ـ أرينى الكتاب ··

فاستدرت الى النافذة ، وجئته بالكتاب من هناك ، فقال : « ليس لك أن تأخذى كتبنا · انك عالة كما تقول ماما ،وليس لك مال ، لان والدك لم يترك لك شيئا · وكان أجدر بك ان تتسولى لا أن تعيشى هنا مع أطفال سادة مثلنا ، وان تتناولى من الطعام مثل الذى نتناوله ، وان ترتدى ثيابا على نفقة ماما· والآن ·· ســـوف أعلمك كيف لاتنبشين رفاف كتبى ، فهى ملكى ·· بل ان هذا المنزل كله ملك لى ، أو انه سيكون كذلك بعد سنوات قلائل · هيا اذهبى وقفى بجانب الباب ·· بعيدا عن المرآة والنوافذ ! »

ففعلت ذلك،دون أن أفطن لاول وهلة الى ماكان يعتزمه·ولكننى حين رأيته يرفع الكتاب ويزنه على أصابعه ، ثم يقف ليهم بأن يطوح به ، وثبت بغريزتى جانبــــا ، وانا أصيح فى فزع · ولكنى لم أسرع بقدر كاف ، فاندفع المجلد وأصابنى ،فوقعت،

وارتطم رأسى بالبـــاب فشج ٠ واندفعت الدماء من الجرح ، واستبد بى الالم ، ثم تجاوز ذعرى ذروته ، وتوالت مشــاعر أخرى على ، فصحت : « يالك من صبى شرير قاس ٠٠ انك شبه قاتل ٠٠ انك كتاجر الرقيق ٠٠ بل انت تشبــه أباطـرة الرومان !! »

وكنت قــد قرأت « تاريخ روما » لجولد سميث ، وكونت لنفسى فكرة عن نيرون ، وكاليجولا ، وغيرهما ، واخترت لهم أشباها ممن كانوا حولى ، الامر الذى ماكان ليخطر قط ببالى ان أجهر به ٠ وصاح الصبى :

ـ ماذا ! ماذا !٠٠أقالت ذلك لى أنا ؟ هل سمعتماها يا اليزا وجورجيانا ؟ ألا يجدر أن أبلغ ماما ؟ ولكن يجب أولا ٠ ٠ ٠

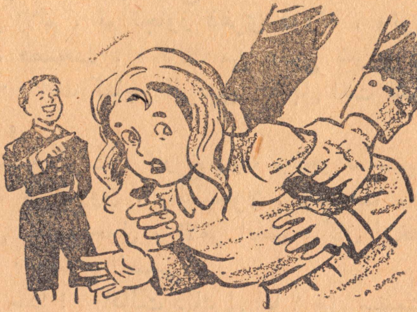
وجرى نحوى ٠٠ وشعرت به يمسك بشعرى وكتفى ويطبق عليها فى استماتة ٠ ٠رأيت فيه شخصا عاتيا ٠٠ قاتلا حقا ٠ وشعرت بقطرة أو اثنتين من الدم تنحدران من رأسى الى عنقى، وأحسست بألم حاد ٠٠ وتغلبت تلك الآلام على خوفى ،فواجهته فى ضرب من الخبل والجنـــون ٠٠ ولست أدرى تماما ماذا صنعت يداى ، ولكنـــه راح يصيح بى : « يالك من فأرة ! فأرة !٠٠ » ثم مضى يصرخ بأعلى صوته ٠٠ وسرعان ماخفت اليه النجدة ، اذ جــرت « اليزا » و « جورجيانا » الى مسز « ريد » ـ التى كانت قد صعدت الى الطابق العلوى ـ فاذا بها تفد الى مكان الواقعة ، تتبعها « بيسى » ، والوصيفة « آبوت» ٠٠ وفرقن بيننا ، ثم سمعت هــذه الكلمات : « أعوذ بالله ! أعوذ بالله !٠٠ أى جنون يدفعك الى مهاجمة السيد جون ! »

ـ هل رأى أحد مثل هذه الصورة من الهوس ؟!

وأدلت مسز « ريد » برأيها فى النهاية ، قائلة :

ـ احملاها الى الحجرة الحمراء ، واغلقا عليها الباب بالمفتاح!

وسرعان ما هبطت أربع أيد عــلى ، فحملتنى الى الطــابق العلوى



الفصل الثـــانى

• **ورحت** أقاوم طوال الطريق ٠٠ وكان ذلك شيئـا جديدا بالنسبة لى ، كما بدا ان الظرف عزز جدا تلك الفكرة السيئة التى كانت « بيسى » و « مس آبوت » تميلان الى اعتقادها فى ٠ والواقع اننى خرجت قليـلا عن طورى ، أو بالاحرى أفلت منى الزمام٠ وأدركت أن عصيانى الذى لم يدم أكثر من لحظة واحدة، قد عرضنى لعقوبات عجيبة ٠ وكأى عبد ثائر ، عزمت فى يأسى على المضى الى آخر الشوط ٠ وقالت « بيسى » :

ـ امسكى ذراعيهـا يا « مس آبوت » لانها أشبه بقطة مجنونة !

فصاحت وصيفـة السيدة : « ياللخزى ! ياللعار ! ياله من سلوك مذهل يامس اير ٠٠ أن تضربى سيدا صغيرا ٠٠ ابن ولية نعمتك ٠ وسيدك الصغير ! »

ـ سيدى ؟! كيف يكون سيدى ؟ هل انا خادم ؟

ـ كلا ٠٠ انك أقل من خادم ، لانك لاتعملين شيئـا مقابل ايوائك ٠ هيا اجلسى وفكرى فى ذنبك !

وكانتا قد وصلتا بى عندئذ الى الغرفة التى اختارتها لى مسز « ريد » ، ثم دفعتا بى الى مقعد ـ بلا مسند أو ظهر ـ ودار بخلدى أن أثب عن ذلك المقعد كالزنبرك ، ولكن سرعان ما قبضت على يداهما . وقالت بيسى :

ـ اذا لم تجلسى هادئة ساكنة أوثقناك !.. أعيرينى رباط ساقك يامس آبوت لانها تستطيع أن تقطع رباطى على الفور !

فاستدارت « مس آبوت » لتمد ساقا قوية تحمل الرباط اللازم . ولكن هذا الاعداد للقيود ، وما كان يعنيه من اذلال جديد ، بددا شيئا من ثورتى ، فصحت : « لا تخلعيه .. لن أتحرك من مكانى » ..وتأكيدا لذلك تشبثت بكلتا يدى بالمقعد، فقالت بيسى : « حذارى أن تفعلى ! »

ولما استوثقت من استسلامى أرخت قبضتها ، ثم نهضت هى و « مس آبوت » ، وقد عقدت كل منهما ذراعيها ، وأخذتا تتأملان وجهى فى تجهم وشك ، وكأنهما لم تكونا تطمئنان الى سلامة عقلى !.. وأخيرا ، التفتت « بيسى » الى « الجارية ! » الاخرى وقالت : « انها لم تفعل هذا من قبل ! »

فكان الجواب : « ولكن هذا الطبع فيها دائما ، ولقد طالما أفضيت لسيدتى برأيى فى هذه الطفلة ، فكانت تقرنى عليه .. يالها من مخلوقة صغيرة ماكرة !.. اننى لم ار أبدا فتاة فى سنها تخفى وراء ظهرها مثل هذا الخبث ! »

فلم ترد عليها « بيسى » ، ولكنها ما لبثت ان خاطبتنى قائلة : « ينبغى أن تعلمى يا آنسة أنك مدينة لمسز ريد بكثير من الالتزامات ، فهى التى تؤويك ، ولو انها طردتك لاضطررت الى الذهاب الى الملجأ ! »

ولم يكن لدى ما أقوله ردا على هذه الكلمات ، فهى لم تكن جديدة على ، بل ان ذكريات وجودى الاولى كانت تحوى تلميحات من هذا القبيل ، حتى بات تعييرى بأننى عالة ، أشبه فى أذنى

بنغمة غامضة ، غاية فى الايلام والاذلال ، وان لم أكن أفقه كل ماتعنيه • وقالت « مس آبوت » بدورهـا : « **ويجـدر بك ان لاتحسبى نفسك ندا للآنستين وللسيد ريد لمجرد أن تعطفت والدتهم بتنشئتك معهم •• لسوف يصيبون ثروة كبيرة ، أما أنت فلن ينالك شيء ، ولذلك فبقاؤك هنا رهن بأن تتواضعى وان تحاولى استمالة قلوبهم** »

وأضافت بيسى فى صوت خال من الغلظة والعنف : « إنمـا نقول هذا لصالحك ، فيجدر بك أن تحاولى أن تكونى نافعـة ولطيفة ، اذ تجدين لك بهذا مأوى هنـا • أما اذا صرت حادة الطبع فظة الخلق ، فان السيدة ستطردك ، على ما أعتقد ! »

وقالت مس آبوت : « ولسوف يعاقبها الله كذلك •• انهـا قد تقع ميتة فى ابان ثورتها وهياجها ، فالى أين تذهب بعـد ذلك ؟ (الى جهنم !) •• تعالى يابيسى ، ولنتركها ، فلسـت أرجو أن أزلزل قلبها •• ألا صلى يامس اير اذا ما خلوت الى نفسك ، لانك ان لم تندمى فقد يهبط اليك شر من المدخنه ، ويحملك بعيداً عن هنا ! » •• ثم ذهبتا بعد ان أغلقتـا الباب خلفهما بالمفتاح

★ ★ ★

● **كانت** الغرفة الحمراء حجرة فائضة ، مهملة ، ينذر جدا أن ينام فيها أحد • بل ان فى وسعى أن أقول ان أحدا لم يكن ينـام فيهـا الا اذا تصادف أن غص قصر (جيتسهيد هـول) بالزوار ، وأصبح لزاما أن يستعملوا كل ماكان فيه من غرف ، رغم أنها كانت من أكبر وأفخم غرفات القصر • وكان بها سرير مقام على أعمدة ضخمة من خشب (المهوجنى) ، وقد أسـدلت عليه ستائر من الدمقس الاحمر الغامق ، فبدا أشبه بخيمـة وسط الغرفة ، بينما كانت النافذتان الكبيرتان ـ بمصاريعهما المغلقة دائما ـ تكادان تتواريان فى اطـواء سـتائر من نفس

القماش ، كما كان البساط أحمر اللون ، والمنضدة القائمة بجوار السرير مغطاة بغطاء قرمزى ٠ وكانت الجدران ذات لون مائل للاصفرار تمازجه مسحة خفيفة من حمرة ، فى حين كان صوان الملابس ومنضدة الزينة والمقاعد من (المهوجنى) القديم ٠ الداكن الطلاء ٠٠ ولم يخل من هذه الظلال القاتمة الغالبة على الحجرة ، سوى ما ارتفع والتمع بياضه من حشيات ووسائد على السرير ، يعلوها لحاف ناصع كالثلج من طراز (مارسيليا) ٠ وكان ثمة مقعد لا يقل عن هذه الاشياء ظهورا وسط الظلال القاتمة ٠٠ كان مقعدا وثيرا ، على مقربة من رأس السرير ـ أبيض اللون كذلك ـ يقبع أمامه مقعد صغير للقدمين ، ويبدو فى نظرى أشبه بعرش باهت اللون !

وكانت هذه الغرفة باردة، اذ قلما كانت توقد فيها نار، كما انها كانت ساكنة ـ لبعدها عن غرفة الاطفال والمطابخ ـ مهيبة ، لما كان معروفاً من أنها قلما وطأتها قدم أو دخلها انسان ، اللهم الا الخادم التى كانت تلجأ اليها فى يوم السبت من كل أسبوع، لتنفض عن المرايا والاثاث الغبار الذى تراكم خلال الاسبوع ٠ وفى فترات متباعدة ، كانت مسز « ريد » تزور هذه الغرفة لتتفقد محتويات درج خاص فى صوان الملابس ، أودعت فيه أوراقا مختلفة وصندوق حليها وصورة مصغرة لزوجها الراحل ٠ وفى هذه الكلمات الاخيرة يكمن سر الغرفة الحمراء ٠٠ السر الذى جعلها مهجورة رغم عظمتها وفخامتها !٠٠ فلقد توفى « مستر ريد » منذ تسع سنوات ٠٠ وفى هذه الغرفة بالذات لفظ آخر أنفاسه ٠٠ هنا رقد فى جلال ومهابة ، وهنا وضع تابوته رجال (الحانوتى) ٠٠ ومنذ ذلك اليوم لف الغرفة جو من رهبة قدسية ، صانها من الاقدام !

وكان مقعدى ـ الذى سمرتنى فيه بيسى ومس آبوت القاسية ـ عبارة عن كرسى خفيض بالقرب من الموقد المصنوع

من الرخـام ٠ وكان السرير ينتصب امـامى ٠ والى يمينى كان صوان الملابس العالى الداكن اللون بأضوائه المنعكسه المتكسرة التى تتباين باختلاف اللمعان المنبعث من ألواحه٠٠والى يسارى كانت النافذتان بستائرهما المسدوله ، وبينهما مرآة كبـيرة تعكس منظر السرير الفخم والحجرة الكبيرة ٠ ولما كنت غير واثقة من أنهما ــ أى الوصيفتين ــ قد أغلقتا البـاب بالمفتاح ، فاننى لم أكد أجرؤ على الحراك ، حتى نهضت أتفقد البـاب ٠ وشد ما كان أسفى حين وجدته موصدا بالمفتاح فعـلا !٠٠ لم يكن ثمة سجن يفوق ذلك استحكاما ٠ وكان لابد لى أن أمـر ــ فى عودتى ــ أمام المرآة ، فاذا نظراتى الحائرة تتفقد ، على الرغم منى ، ما كان ينعكس عليها ٠٠ كان كل شىء يبدو فى الصورة المنعكسة ، الجوفاء ، أشد برودة وحلكة ممـا كان فى الواقع !٠٠ وكان للشكل الصغير ، الغريب ، الذى راح يحملق فى وجه شاحب ، يعلو ذراعين يومض بياضهما خلال الظـلال ، وبعينين تشعان خوفا ، وتتحركان فى حين كان كل ماحولهما ساكنا ٠٠ كان لذلك الشكل منظر شبح حقيقى ، كتلك الاشباح الصغيرة ، نصـف الجنيـات ، التى كانت « بيسى » تروى لى ــ فى قصص المساء ــ كيف كانت تخرج وتنبعث من البطـاح المنعزلة المعشوشبة ، لتظهر أمام أعين المسافرين الذين تخلفوا عن الركب !٠٠ وعدت الى مقعدى ، وفى رفقتى الخرافات ٠ ٠ ولكن ساعة انتصارها الكامل على لم تكن قد حانت بعـد ، لان دمى كان لايزال حارا ، وكـانت ثورة الاسـيرة الثـائرة على أشدها !٠٠ وكان على أن أواجه تدفق الافكار المتصلة بالماضى قبل أن تخور عزيمتى أمام الحاضر المظلم ، ومن ثم عادت الى عقلى المضطرب كل ألوان الظلم القاسى التى عانيتها من « جون ريد » ، وكبرياء شقيقتيه ، وكراهية والدته ٠٠ عادت أشبـه برواسب حالكة فى بئر عكرة موحلة ٠ وتساءلت : **لماذا كنت**

معذبة على الدوام ، مستضعفة على الدوام ، متهمة باستمرار ، مذنبة الى الابد ؟٠٠ لماذا لا أقوى على ارضاء أحد ؟٠٠ لماذا لم تكن محاولاتى مجدية في استمالة أحـــد ؟٠٠ ان « اليزا » ، العنيدة الانانية ، محترمة ٠٠ و «جورجيانا» ، بطبعها الفاسد ، وحقدها اللاذع ، وسلوكها المتحامل الوقح ، تلقى استحسانا عاما ! وكأنما كان جمالها ووجنتـاها الحمراوان وجدائلهـا الذهبية ، متعة لبصر كل من يتطلع اليها ، وتعويضـا عن كل عيوبها !٠٠ و « جون » ، لم يكن ثمة من يعارضه ، وقل أن عوقب ، مع أنه كان يلوى أعناق الحمام ، ويتلف نبات الحمص الصغير ، ويحرض الكلاب على الغنم،ويجرد الكروم من ثمارها ، ويحطم براعم خير النباتات فى البيوت الزجاجيـة بالحديقـة ، ويدعو أمه بالفتاة العجوز ، كما كان يعيرها أحيانا ببشرتهـا السمراء الشبيهة ببشرته !٠٠ كذلك كان شـديد الاستخفاف برغباتها ، وكثيرا ما مزق أو أتلف لها ثوبها الحريرى ٠٠ ومع ذلك ، فقد ظل « عزيزها الغالى » !٠٠ **أما أنا فكنت لا أقترف خطأ ، وأحاول أن أؤدى كل واجب علي ، ومع ذلك فقد كانوا ينعتوننى بالشقية ، المضجرة ، المشئومة ، الماكرة٠٠ من الصباح الى الظهر ومن الظهر حتى الليل !**

وكان رأسى لايزال يوجعنى ويدمى بسبب الضربة،وللسقطة التى نالتنى ، دون أن يوجه أحد منهم أى لوم الى « جون » على أن ضربنى بتهور ونزق ٠ أما أنا فقد انهالوا على تعييرا وتأنيبا لمجرد اننى انقلبت عليه لاتقى مضيه فى قسوته الهوجاء ٠٠

وحدثتنى نفسى ، وقد ألهمها الالم المبرح قوة سابقة لاوانها ــوان كانت طارئة ، عابرةــ بأن أصيح «هذا ظلم ! هذا ظلم!»٠ وحفزتنى العزيمة التى ساورتنى كذلك ، الى أن أبحث عن ذريعة عجيبة للتخلص من الاضطهاد الذى لايحتمل ٠٠ الى الهرب ، أو ــ اذا لم يتسن لى ذلك ــ الى الامتناع عن الاكل والشرب حتى يدركنى الموت !

أى رعب شملنى فى عصر ذلك اليوم الموحش ؟! ٠٠ وأى لجب اصطخب فى رأسى ؟٠٠ وأى تمرد غشى قلبى ؟٠٠ ومع ذلك فأية ظلمة ، وأية جهالة ضارية شب فيها أوار تلك المعركة التى دارت فى رأسى ! ٠٠ ولم أستطع الاهتداء الى جواب عن السؤال الذى مافتئت أردده : « لماذا أتعذب هكذا ؟ » ٠٠ أما الآن ـ ولن أقول بعد كم سنة تقضت ـ فاننى أرى الرد واضحا كل الوضوح :

كنت فى قصر (جيتسهيد) نشازا ، لاأشبه أحدا ممن كانوا هناك ٠٠ فلم يكن ثمة انسجام بينى وبين مسز « ريد » وأطفالها وأتباعها المختارين !٠٠ واذا كانوا لم يحبونى ، فما كان أقل حبى لهم ، فى الواقع !٠٠ ولم يكن لزاما عليهم أن ينظروا بعين الحب الى مخلوقة لاتستطيع أن تأتلف مع واحد منهم ٠٠ مخلوقة لم تكن تتجانس معهم ، وانما كانت تغايرهم فى المزاج، والكفاية ، والنزعة ٠٠ مخلوقة تافهة لم تكن تقوى على خدمة مصالحهم ومضاعفة غبطتهم ٠٠٠ مخلوقة مؤذية ، تنمى فى نفسها جذور الحنق على معاملتهم ، وتتعهد فيها جراثيم السخط على أحكامهم ! وكنت أدرك اننى لو كنت طفلة دموية المزاج ، متوقدة الذكاء ، عديمة الاكتراث ، ظالمة ، جميلة ، مرحة، نزقة، لاحتملت مسز ريد وجودى بمزيد من الرضى ، ولبادلنى أطفالها مزيدا من الاحساس القلبى بالزمالة ، ولخفف ميل الخدم الى جعلى كبش الفداء فى غرفة الاطفال ٠٠ مهما أكن عالة ، عديمة النصير !

★ ★ ★

◆ **أخذ** ضوء النهار يغادر الغرفة الحمراء ، اذ ناهزت الساعة الرابعة ، وانحدر العصر الغائم نحو الغسق ، وسمعت المطر وهو لايزال يصفع زجاج النوافذ بلا انقطاع ، كما سمعت

الرياح وهى تعوى فى الغابة الصغيرة التى تقع خلف القصر . وأخذت البرودة تشل حركاتى تدريجا، واذ ذاك غاضت شجاعتى وعاودنى احساسى العادى بالهوان وعدم الثقة بالنفس والانقباض اليائس ، فكان أشبه بقطرات باردة تهبط على جمرات حقـــدى الذاهب ! لقد أجمعوا على أننى شريرة .. ولعلنى كنت كذلك .. والا فكيف لم أعد أشغل الا بتصور أن أقضى على نفسى جوعا؟!

كان ذلك جريمة بلا ريب .. ولكن ، هل كنت أهلا للموت؟ أو هل كان القبو ـ تحت محراب الكنيسة ـ هدفا يغرى بذلك ؟. لقد علمت ان مستر « ريد » كان مدفونا فى ذلك القبو ، فقادنى التفكير الى استعادة ذكراه . وتعمقت فى ذلك التفكير فى هلع متزايد متضاعف .. ولم أكن أقوى على تذكره جيدا ، ولكنى كنت أعلم أنه خالى .. شقيق أمى .. وأنه أخذنى وأنا طفلة يتيمة الوالدين الى منزله ، وأنه ـ فى لحظاته الاخيرة ـ انتزع من مسز « ريد » وعدا بأن تربينى وتعولنى كواحدة من أطفالها . ولعل مسز « ريد » كانت تحسب انها برت بوعدها !.. فقد فعلت ذلك ، على مابدا لى ، بقدر ما كانت تسمح به طبيعتها ، اذ كيف لها ـ فى الحقيقة ـ أن تحب فتاة متطفلة ليست من دمها ، ولا تربطها بها صلة بعد أن توفى زوجها ؟!.. لاريب فى أنه كان عملا جد شاق أن تجد نفسها مرتبطة برغمها بوعد قطعته على نفسها ، بأن تقوم مقام الام نحو طفلة غريبة لاتقوى على أن تحبها ، وأن ترى فتاة غريبة ليست من دمها ، تقحم نفسهـــا دائما على أفراد أسرتها ؟!

وومضت فى خاطرى فكرة عجيبة .. انى لا أشـــك ـ بل ما شككت اطلاقا ـ فى أنه لو بقى مستر « ريد » على قيد الحياة، لكان قد عاملنى برفق . وفيما كنت أجلس وأتطلع الى الفراش الابيض ، والى الجدران الظليلة ، وعيناى الحائرتان تتحدران أحيانا نحو المرآة المعتمة البريق ، أخذت أتذكر ماسمعتـه عن

الموتى عندما يضايقهم فى قبورهم أن تنتهك رغباتهم الاخيرة ، فيعاودون زيارة الارض لينزلوا العقاب بالحانثين وينتقموا للمضطهدين !٠٠ **وخيل لى أن روح مستر « ريد » ـ وقد أزعجتها المظالم التى هبطت على رأس ابنة شقيقته ـ قد تترك مثواها ، سواء فى قبو الكنيسة أو فى عالم الراحلين المجهول ، وتقف أمامى فى هذه الحجرة ، فقمعت دموعى، وكفكفت نشيجى، خشية أن يوقظ أى مظهر للحزن العاصف صوتا قد ينساب من وراء الطبيعة ليسرى عنى ، وخوفا من أن يبزغ من الظلام وجه منير يحنو علي فى اشفاق غريب !٠٠ وشعرت بأن هذه الفكرة تغدو مخيفة ، مروعة ، اذا ما تحققت ، رغم ما كان فيها من عزاء وسلوى من الناحية النظرية** !٠ لذلك حاولت بكل قواى أن أخنقها وأن أخمدها ، كما حاولت أن أكون ثابتة الجنان ، قوية العزم ، فدفعت شعرى عن عينى ، ورفعت رأسى، ثم حاولت أن أتطلع بجرأة الى ماحولى فى أنحاء الغرفة المظلمة ٠ وفى هذه اللحظة ، برق ضوء على الجدار ، فتساءلت : أهى أشعة من القمر تسللت من فتحة فى مصراع النافذة ؟٠٠ كلا ، فان ضياء القمر ساكن ، وهذا ضوء يتحرك !٠٠ وفيما كنت أحملق ، تسلل الضوء الى السقف ، واهتز فوق رأسى ٠ وبوسعى أن أحدس الآن أن ذلك الخيط من الضوء كان ـ فى الغالب ـ نورا صادرا من مصباح يحمله شخص عبر الحديقة، ولكننى ـ فى ذلك الوقت ، وأفكارى مهيأة للرعب والفزع ، وأعصابى تهتز بالانفعال والاضطراب ـ خلت أن الشعاع المارق بسرعة ، انما كان نذيرا برؤيا قادمة من عالم اخر ! فدق قلبى بعنف ، والتهب رأسى ، وامتلأت أذناى بصوت حسبته اندفاع أجنحة ، وخيل الى أن شيئا تجلى على مقربة منى ، فضاق صدرى، واختنقت أنفاسى ، وخارت قواى ، فبادرت الى الباب ورحت أهز القفل فى يأس واستماتة ٠ وارتفع وقع أقدام فى الممر الخارجى، ثم دار المفتاح فى الباب لتدخل « بيسى » و « آبوت » ٠٠٠

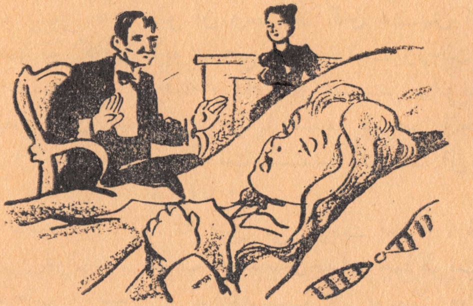
وقالت بيسى : « مس آير ٠٠ هل أنت مريضة ؟ »
وصاحت آبوت : « يالها من ضوضاء مروعة !٠٠ لقد هزت كل كيانى ! »
وارتفع صياحى : « اخرجينى !٠٠ دعينى أذهب الى غرفة الاطفال ! » ٠٠ فعادت بيسى تسألنى : « لماذا ؟ هل أصابك أذى؟ هل رأيت شيئا ؟»
فتشبثت بيد « بيسى » دون أن تحاول أن تنتزعها منى ، ثم صحت : « آواه !٠٠ لقد شاهدت ضوءا ، وظننت شبحا يوشك على الظهور !»
فقالت آبوت فى شيء من الاشمئزاز : « لقد صرخت متعمدة ٠٠ ويالها من صرخة!٠٠ ولو أنها كانت تعانى ألما شديدا لالتمسنا لهـا العذر ، ولكنها أرادت فقط أن تأتى بنـا جميعا الى هنـا ٠ اننى أعرف حيلها الخبيثة ! »
وانبعث صوت يسأل فى حـزم : « ماهذا كلـه ؟ » ٠٠ ثم ظهرت مسز « ريد » فى الردهة ، وقد أخـذت حواف قبعتهـا ترفرف حول رأسها ، وأخذت منامتها تبعث حفيفـا شديدا ٠ واسترسلت قائلة : « لقد أصدرت لكمـا أوامـرى بأن تتركا « جين اير » فى الغرفة الحمراء الى أن أحضر اليها بنفسى! »
فقالت بيسى ضارعة : « لقد صرخت مس جين صرخة مدوية ياسيدتى ! » ٠٠ فكان الرد الوحيد : « اطلقيها ٠٠ اتركى يدى بيسى ياطفلة ، وثقى من انك لن توفقى الى الخـروج بهـذه الوسائل ٠ اننى أمقت الخداع وخاصة فى الاطفـال ، ومن واجبى أن أريك أن الحيل لاتجدى ٠٠ لسـوف تمكثين هنـا ساعة أخرى ، ولن أطلق سراحك بعدها ، الا اذا أذعنت تماما ، وأخلدت الى السكون ! »
ــ آوه ياخالتى ٠٠ ترفقى بى ! اغفرى لى ! لست أقوى على

احتمال ذلك .. دعينى أعاقب بطريقة أخرى ، فلسوف أموت اذا ...

— الزمى السكون ! ان العنف أدعى لاثارة الاشمئزاز !

ولا ريب أنها أحست بالاشمئزاز ، لاننى كنت فى نظرها ممثلة نابغة بارعة بالنسبة لسنى .. بل لقد كانت ترى فى مزيجا من الاهواء الوبيلة ، والروح الوضيعة ، والرياء الخطر !

وبعد أن انسحبت « بيسى » و « آبوت » ، كان صبر مسز « ريد » قد عيل ، وضاق صدرها بآلامى الملتاثة ، وزفراتى الهائجة ، فدفعتنى بفظاظة الى الخلف ، ثم أغلقت الباب على بالمفتاح ، دون أن تنبس بحرف . وما ان سمعتها تبتعد حتى انتابتنى — على ما أعتقد — نوبة من النوبات ، ثم أسدل الاغماء الستار على ذلك المنظر !



الفصل الثالث

• **أذكر** بعد ذلك اننى أفقت وأنا أحس كأننى كنت فى كابوس مخيف ٠٠ وكنت أرى أمامى بريقا أحمر رهيبا ، تقطعه قضبان كثيفة سوداء ٠ وسمعت كذلك أصواتا جوفاء تتحدث وكأنما يخنقها اصطخاب رياح أو مياه ٠ وبلبل حواسى الانفعال والشك ، والشعور الجارف بالرعب والفزع ٠ وقبل أن تنقضى فترة طويلة ، انتبهت الى أن أحدا يتناولنى باهتمامه ، فيرفعنى ثم يجلسنى برفق لم أعهده من قبل ، فاعتمدت برأسى على وسادة أو ذراع ما ، واستشعرت الراحة ٠ وبعد خمس دقائق انقشعت سحب الحيرة ، وعرفت جيدا اننى فى فراشى ، وان البريق الاحمر كان نيران المدفأة فى غرفة الاطفال ٠ وكان الوقت ليلا : شمعة تشتعل على المنضدة ، و « بيسى » واقفة عند مؤخر السرير وفى يدها حوض ، وسيد يجلس على مقعد بالقرب من وسادتى وقد انحنى فوقى ٠٠

وشعرت براحة لاتوصف ، وباحساس لطيف بالحماية والامان ، عندما أدركت أن بالحجرة غريبا ٠٠ شخصا لايمت

الى القصر بصلة ، ولا يتصل بمسز « ريد » بقرابة ما ٠وحولت نظرى عن « بيسى » ـ ولو أن وجودها كان عندى أقل اثارة للكراهيه مما لو كانت آبوت هى الموجودة ـ ورحت أتفحص وجه ذلك السيد حتى عرفته ، فاذا هو مستر « لويد » ٠٠ الصيدلى الذى كان يستدعى أحيانا عندما يمرض الخدم ٠٠ أما لنفسها ولاطفالها ، فقد كانت السيدة تلجأ الى طبيب ! وسألنى : « والآن ٠٠ من أنا ؟ »

فنطقت باسمه وانا أمد له يدى فى الوقت نفسه ، فتناولها وهو يبتسم ويقول : « سوف تتحسنين جدا ، عما قريب » ٠٠ثم أرقدنى وخاطب « بيسى » ليكلفها ان توليني من الرعاية الشديدة مايحول دون ازعاجى فى الليل ٠ وبعد أن أصدر بعض تعليمات أخرى ، وعد بأن يعود مرة ثانية فى اليوم التالى، ثم غادرنى وقد برح بى حزنى ، اذ كنت أشعر بأننى أنعم بالحماية والصداقة مادام هو جالسا فى المقعد بجانب وسادتى ٠ فلما أغلق الباب خلفه أظلمت الحجرة كلها ، وعاد قلبى يغوص من جديد ، لان حزنا لايوصف قد أثقله ٠

وسألتنى بيسى بصوت أرق مما اعتدت منها : « أتشعرين برغبة فى النوم يا آنسة ؟ » ٠٠ وكدت لا أجرؤ على الرد عليها، لاننى خفت أن تكون الجملة الثانية جافة ، فغمغمت قائلة : « سأحاول ! »

ـ أترغبين فى أن تشربى أو تأكلى شيئا ؟

ـ كلا ٠٠ أشكرك يابيسى

ـ اذن ، لاذهب الى فراشى ، فان الساعة قد جاوزت الثانية عشرة ٠ ولكن فى وسعك أن تنادينى اذا احتجت الى شىء أثناء الليل

يالها من دماثة عجيبة ! ٠٠ وشجعنى ذلك على أن ألقى اليها سؤالا ، فقلت : « بيسى ٠٠ ماذا جرى لى ؟ هل أنا مريضة ؟ »

ـ أظنك قد مرضت فى الحجرة الحمراء بسبب بكائك ، ولكنك سوف تتحسنين حالا بلا ريب

ثم مضت بيسى الى حجرة الخادم المشرفة على شئون البيت ٠ وكانت على مقربة ، ولذلك سمعتها تقول : « تعالى ياسارة ونامى معى فى حجرة الاطفال ، فاننى لا أجرؤ على أن أنفرد الليلة مع تلك الطفلة التعسه ، اذ قد تموت ! ٠٠ من العجيب أن تصيبها تلك النوبة ٠٠ ترى هل شاهدت شيئا ؟! ٠٠ لقد كانت سيدتنا غاية فى الفظاظة معها ! »

وعادت « سارة » معها ، فاندست الاثنتان فى الفراش، حيث أخذتا تتهامسان لنصف ساعة ، قبل أن تستغرقا فى النوم ٠ واستطعت ان ألتقط نتفا من حديثهما ، أمكننى أن استدل منها ـ بكثير من العناء ـ على الموضوع الاصلى للمناقشة كقولهما :

ـ مر بها شىء يرتدى بياضا فى بياض ، ثم اختفى !

ـ كان خلفه كلب ضخم اسود ٠٠

ـ ثلاث طرقات عالية على باب الغرفة ٠٠

ـ ضوء فى فناء الكنيسة فوق قبره مباشرة !

وأخيرا ، نامت الاثنتان ٠٠ وانطفأت النار والشمعة ٠ أما أنا ، فان ساعات تلك الليلة الطويلة قد تقضت وأنا فى يقظة مروعة ، اذ توترت منى الاذن والعين والعقل معا ، بخوف لايمكن أن يشعر بمثله سوى الاطفال !

★ ★ ★

• **ولم** يتبع حادث الحجرة الحمراء هذا أى مرض جثمانى شديد أو طويل ، ولكن الحادث أصاب أعصابى بصدمة مازلت أشعر برد فعلها حتى اليوم ٠٠ **نعم يامسز « ريد » ، اننى مدينة لك ببعض الآلام العقلية المروعة التى تعترينى ، ولكنى**

خليقة بأن أصفح عنك ، لانك لم تكونى تدرين ماتعملين: فبينما كنت تمزقين نياط قلبى ، كنت تحسين انك انما تستلين منى نزعاتى الشريرة !

وغادرت فراشي ـ حوالى ظهر اليوم التالى ـ فجلست متلفعة بشال ، على مقربة من المدفأة فى حجرة الاطفال • وكنت أشعر بضعف وهزال فى بنيانى ، ولكن أسوأ ماكنت أعانيه تمثل فى شقاء نفسى يفوق الوصف •• شقاء ظل يستنزف منى الدموع فى صمت ، فكنت لا أكاد أمسح دمعة عن خدى ، حتى تسقط أخرى • ومع ذلك فقد خلت أنه يجدر بى أن أكون سعيدة لان أحدا من آل « ريد » لم يكن موجودا ، اذ خرجوا جميعا فى عربة أمهم • وكذلك كانت آبوت تخيط فى حجرة اخرى ، بينما كانت بيسى ـ وهى تنتقل هنا وهناك لترتب اللعب أو تنظم الادراج ـ تخاطبنى ، وهى تطوى حديثها على كلمة رقيقة بين آن وآخر • وكانت تلك حال جديرة بأن تبدو لى بمثابة جنة من النعيم والسلام ، بعد ان اعتدت حياة التقريع الدائب ، وحياة السخرة دون شكر أو ثناء ، بيد أن أعصابى كانت اذ ذاك قد بلغت ـ فى الواقع ـ حالا لا تجدى فى تهدئتها طمأنينة أو غبطة !

وكانت بيسى قد هبطت الى المطبخ ، فجاءتنى بكعكة فى طبق لامع من الخزف رسم عليه عصفور من عصافير الجنة يعشش فى اكليل من النباتات الملتفة وازرار الورد • ولقد طالما أثار هذا الرسم فى نفسى شعورا بالاعجاب ، فكنت أتوسل كى يسمح لى بأن أمسك بهذا الطبق فى يدى لاتأمله من قرب ، ولكنى كنت فى نظرهم غير أهل لمثل هذا الامتياز •• **أما الآن ، فهاهو ذا الاناء الثمين قد وضع على ركبتى ، وقد دعيت فى الحاح الى أن آكل هذه الحلقة الصغيرة من الحلوى التى كانت فيه •• فياله من فضل لايجدى ، اذ جاء متأخرا ، كمعظم الافضال التى يطول**

حبسها برغم اشتداد اللهفة عليها ! ٠٠ ولم أقو على أكل الكعكة، لان ريش العصفور وألوان الزهور الزاهية مالبثت أن تبدت لعينى شاحبة بصورة عجيبة !٠٠ لذلك وضعت كلا من الطبق والكعكة جانبا ، فسألتنى بيسى عما اذا كانت تأتينى بكتاب ٠ واذا بكلمة « كتاب » تفعل فى نفسى فعل المنبه العابر، فتجعلنى أتوسل الى « بيسى » أن تجيئنى بكتاب « رحلات جليفر » من المكتبة ٠٠ ولقد طالما تصفحت هذا الكتاب مرات ومرات ،لاننى كنت أعتبره قصة تقوم على حقائق ، وكنت اكتشف فيه موردا للمتعة أعمق مما فى القصص الخرافية ٠٠ حتى لقد رحت أبحث عبثا عن « الجنيات » ــ التى ورد ذكرها فيه ــ بين أوراق نبات « كف الثعلب » ، وتحت أعشاش الغراب ، وفى أركان الجدران القديمة التى تكسوها النباتات الزاحفة المتسلقة ٠ فلما لم أجدها ــ فى النهاية ــ اهتديت الى الواقع الاليم كما بدا لى ، وهو انها قد رحلت كلها عن انجلترا الى بلد ما موحش ، حيث الغابات اكثر اتساعا وكثافة ، وحيث السكان أقل عددا ٠ أما عن « ليليبوت » و « برويدنجناج » ــ المملكتين اللتين وردتا فى أقاصيص « جليفر » ــ فقد اعتقدت أنهما قائمتان فعلا على سطح الارض ، ولم يساورنى شك فى أننى سأحظى يوما ، خلال رحلة طويلة ، بأن أرى مملكة تضم حقولا ومنازل وأشجارا صغيرة ، وأناسا وأبقارا وأغناما وطيورا ضئيلة الحجم ٠٠ وبأن أشهد مملكة أخرى تحوى حقولا فى ارتفاع الغابات ، وقططا عملاقة ، ورجالا ونساء يشبهون الابراج ٠٠ومع ذلك فاننى وجدت الآن، وقد وضع هذا الكتاب المعزز بين يدى ورحت أقلب صفحاته وأبحث فى صوره الرائعة عن السحر الذى لم يفتنى قط ــ حتى ذلك الوقت ــ أن أهتدى اليه ٠٠ وجدت أن كل هذا لايثير فى نفسى سوى الفزع والاكتئاب : كانت العمالقة مجرد « جنيات » هزيلة ، والاقزام « عفاريت » صغيرة حقودة ، و « جليفر »

جوالا يهيم على وجهه فى مناطق محفوفة بالهلاك ٠٠ لذلك أغلقت الكتاب الذى لم أجرؤ على أن آتصفحه بعد ذلك ، ثم وضعته على المنضدة بجانب الكعكة التى لم آذقها ٠ وكانت بيسى قد فرغت لتوها من تنفيض الحجرة وتنظيفها ، ثم غسلت يديها ، ففتحت درجا صغيرا مليئا بقطع من الحرير والاطلس ، وبدأت تصنع قبعة صغيرة لدمية « جورجيانا » وهى تغنى فى نفس الوقت ٠٠ وكان مطلع أغنيتها :

« فى الايام التى كنا فيها نحيا حياة الغجر
منذ زمن بعيد ٠٠٠ »

لكم سمعت هذه الاغنية من قبل فطربت لها ، اذ كانت بيسى رخيمة الصوت ، آو هكذا كان يخيل لى ٠ غير اننى – فى هذه المرة – لمست فى اللحن حزنا لا يوصف ، برغم ان الصوت ظل رخيما !٠٠ وكان العمل يشغلها أحيانا ، فتبطىء وهى تردد مقطع الاغنية ، حتى لتبدو عبارة « منذ زمن بعيد » ، أشبه بترنيمة جنائزية !٠٠ على انها ما لبثت أن انتقلت الى قصة غنائية ٠٠ وكان الغناء فى هذه المرة محزنا حقا :

« تقرحت قدماى وكلت ساقاى
والطريق طويل ، والجبال موحشة
وسرعان ما يطبق الغسق مظلما كئيبا
على طريق الطفل اليتيم المسكين !

... ...

« لماذا يقصوننى بعيدة هكذا ، ووحيدة هكذا
الى حيث تمتد المستنقعات وتتكدس الصخور الكالحة !
لقد تحجرت قلوب البشر ، ولكن الملائكة الرحيمة وحدها
ترعى خطوات الطفل اليتيم المسكين !

... ...

« ومع ذلك ، فان نسيم الليل يهب رقيقا ، على البعد

وقد تقشعت السحب والتمعت النجوم المشرقة ..
والله ـ برحمته ـ قد تجلت رعايته
فبث الطمأنينة والامل فى نفس الطفل اليتيم المسكين !
... ...

« مهما تتعثر قدماى أثناء عبورى الجسر المحطم
أو يضلنى فى البطاح ضياء زائف خداع
فان الهى .. برعايته وبركته
سيضم الى أحضانه الطفل اليتيم المسكين !
... ...

« وثمة ايمان يمدنى بالقوة :
لو اننى حرمت كلا من المأوى والاقرباء
فالسماء منزل ، وفيها لن أعدم الراحة
لان الله نصير الطفل اليتيم المسكين ! »

★ ★ ★

• **وقالت** بيسى بعد أن فرغت من الغناء : « كفى يامس جين، لاتبكى ! » .. وما كان أشبهها بمن تقول للنار «لاتشتعلى» ! ..
ولكن أنى لها أن تتكهن بالعذاب الوبيل الذى كان يفترسنى؟
وأقبل مستر « لويد » فى الضحى يعودنى ، فهتف وهو يلج غرفة الاطفال : « ماذا ؟ .. أهى مستيقظة ؟ .. كيف حالها أيتها المربية ؟ » .. فأجابته بيسى بأننى تحسنت جدا
ـ اذن ، فجدير بها أن تبدو أكثر ابتهاجا . تعالى هنا يامس جين .. ان اسمك جين .. أليس كذلك ؟
ـ بلى ياسيدى .. جين اير
ـ حسنا . لقد كنت تبكين يامس جين اير .. فهل لك ان تخبرينى بالسبب ؟ أتتألمين من شىء ؟
ـ كلا ياسيدى !
فتدخلت بيسى قائلة : « اوه .. أظنها تبكى لانها لم تستطع

الخروج مع السيدة .. فى العربة »

– ليس لهذا السبب بكل تأكيد ! .. انها أكبر من مثل هذه التوافه !

وكان هذا رأيى كذلك . ولما كان الزعم الباطل قد جرح عزة نفسى ، فقد أجبت على الفور : « اننى لم أبك فى حياتى لمثل هذا الامر ، فأنا أكره الخروج فى العربة .. انما أبكى لاننى تعسه ! »

فقالت بيسى : « اوه .. ويحك يا آنسة ! » .. وهنا تبدت الحيرة على وجه الصيدلى . وكنت واقفة أمامه ، فأخذ يتفرسنى بعينين صغيرتين ، رماديتين ، لم تكونا شديدتى التألق ، ولكننى أستطيع أن أدرك اليوم أن نظراتهما كانت تنم عن ذكاء .وكان وجهه صارم القسمات ، غير انه كان صبوحا ، ينم عن طيبة . واذ تأملنى مليا ، قال : « ما الذى أسقمك بالامس ؟ »

فأجابت بيسى متدخلة فى الحديث مرة أخرى : «لقد وقعت»

– وقعت ! كيف ؟ هل ترينها ارتدت طفلة من جديد ؟.. ألا تستطيع فتاة فى سنها ان تمشى جيدا ؟.. انهـــا ولابد فى الثامنة أو التاسعة من عمرها !

وشعرت بالالم – مرة أخرى – لكرامتى الجريحة ، فقلت فى برود أوضح له الامر : « لقد أوقعت ! » . وفيماكان مستر لويد يتناول بعض السعوط ، أردفت قائلة : « ولكن هــذا لم يكن سبب مرضى »

وبينما كان يعيد علبة السعوط الى جيب صداره ، رن أحد الاجراس عاليا لدعوة الخدم للغداء .. وأدرك المقصــود بذلك فقال : « هذا من أجلك أيتها المربية ، وفى وسعك أن تنزلى .. أما أنا فسألقى على مس جين درسا ، ريثما تعودين »

وكانت بيسى تفضل البقاء ، ولكنها اضطرت الى الذهاب لان المواظبة على مواعيد الوجبات كانت تراعى بكل دقة فى قصر

(جيتسهيد)

واسترسل مستر لويد يقول بعد خروج بيسى : « انوقوعك لم يكن السبب فى مرضك ٠٠ فما هو السبب اذن ؟

ـ لقد حبست فى حجرة بها شبح ، الى مابعد هبوط الظلام!

فرأيت مستر « لويد » يبتسم ويعبس فى آن واحد ٠ ثم قال : « شبح !؟٠٠ يالك من طفلة ، رغم مظهرك !٠٠ اتخافين الاشباح ؟ »

ـ أخاف من شبح مستر « ريد » ، فقد مات فى تلك الغرفة، ثم وضع فيها ٠ ولا تستطيع بيسى وغيرها أن تذهب الى تلك الغرفة فى الليل ، ما استطاعوا !٠٠ ولقد كان من القسوة أن أحبس وحدى بها ، دون شمعة تبدد الظلمة ٠٠ قسوة بالغة لن أنساها قط !

ـ هراء ! وهل هذا يشقيك الى هذا الحد ؟ ٠٠ ثم ، هل يساورك الخوف الآن ٠٠ فى وضح النهار ؟

ـ كلا ٠٠ ولكن الليل لن يلبث ان يأتى مرة أخرى بعد قليل !٠٠ ثم اننى غير سعيدة ٠٠ غير سعيدة مطلقا ٠٠بسبب أمور أخرى !

ـ أية أمور أخرى ؟٠٠ هل فى وسعك أن تحدثينى عن بعضها ؟

وكم وددت ان أجيبه عن هذا السؤال فى صراحة !٠٠ ولكن ، كم كان صعبا أن أصوغ أى جواب !٠٠ ان فى وسع الاطفال أن يحسوا ويشعروا ، ولكنهم يعجزون عن تحليل مشاعرهم ، وحتى اذا تسنى لهم ذلك التحليل فى أذهانهم الى حد ما ، فانهم لايعرفون كيف يعبرون عنه بالكلمات ٠ وخشية ان تضيع فرصتى الاولى ، والوحيدة ، فى التخفف من أحزانى بالافصاح عنها ، فقد قررت ـ بعد فترة من القلق والحيرة ـ أن أصوغ جوابا حقيقيا ، على ايجازه وهزاله ، فقلت : « **لسبب**

واحد .. هو انني بلا أب أو أم أو اخوة أو أخوات ! »

ـ ان لك خالة وأبناء خالة شفوقين

فتوقفت عن الكلام مرة أخرى ، ثم قلت فى حيرة وتخبط :
« ولكن جون صرعنى ، وخالتى حبستنى فى الغرفة الحمراء !»

ومرة ثانية ، أخرج مستر لويد علبة السعوط ثم سألنى :
« ألا ترين قصر (جيتسهيد) مقاما جميلا ؟.. ألست شاكرة لاقامتك فى مثل هذا المكان البديع ؟ »

ـ انه ليس منزلى ياسيدى .. وتقول « آبوت » ان ليس لى أدنى حق فى الاقامة هنا الا كخادم !

ـ أوه ! لايمكن ان تكونى من البــلاهة بحيث ترغبين فى مغادرة مثل هذا المكان الفخم !

ـ اذا وجدت مكانا آخر أستطيع الذهاب اليه ، فاننىأتركه مغتبطة ، مسرورة .. ولكنى لا أستطيع مغادرة (جيتسهيد) قبل ان أصبح امرأة !

ـ ربما .. من يدرى ؟.. ألك أقرباء غير مسز ريد ؟

ـ لا أظن ياسيدى

ـ أليس لك أقرباء لابيك ؟

ـ لست أدرى !.. لقد سألت الخالة « ريد » ذات مرة ، فقالت ان من المحتمل أن يكون لى بعض أقرباء فقراء وضيعين من عائلة أبى ، ولكنها لاتعرف عنهم شيئا !

ـ اذا كان لك مثل هــؤلاء الاقرباء ، فهــل ترغبين فى الذهاب اليهم ؟

فأخذت أفكر .. ان الفقر يبدو فى نظر الكبار عابسا كالحا .. وهو أكثر عبوسا ومرارة فى نظر الاطفــال ، ولو انهم لايدركون الكثير عن الفقر وأهواله بالنسبة للطبقة العــاملة الكادحة ، ولا يرون لكلمــة « الفقر » معنى ، اللهم الا الملابس المهلهلة ، والطعام القليــل ، والمدافىء الخاليــة من النيران ،

والطباع الفظة ، والرذائل الوضيعة ٠٠ كمـــا كان الفقر فى نظرى مرادفا للضعة والهوان ، ولذلك أجبت قائلة : « **لا ٠٠ لست أحب أن تكون لى صلة بأناس فقراء !** »

ـ حتى ولو كانوا شفوقين بك ؟

فهززت رأسى وأنا لا أدرك كيف يتأتى للفقراء من الناس ان يكونوا شفوقين ! ٠٠ **ثم كيف لى أن أتحدث مثل حديثهم ، وان أتخذ لنفسى أخلاقهم ، وان أكون غير متعلمـة مثلهم ، فأشب كواحدة من النســـوة الفقــيرات اللاتى كنت أراهن فى بعض الاحيان وهن يرضعن أطفالهن ، أو يغسلن الملابس عند أبواب الاكواخ فى قـــرية (جيتسهيد) ؟! ٠٠ كلا ! ٠٠ لم أكن من الشجاعة بحيث أشترى حريتى بالفقر !**

ـ ولكن هـــل أقرباؤك فقراء الى هذا الحد ؟ هـل هم من الطبقة العاملة ؟

ـ لست أدرى ٠٠ ولكن الخالة « ريد » تقول انه اذا كان لى أقرباء فلابد انهـــم من زمرة المتســـولين ٠٠ وأنا لا أحب ان أتسول !

ـ أتودين الذهاب الى مدرسة ؟

ففكرت مرة أخرى ٠٠ كنت لا أكاد أعرف ماهى المدرسة ، وان كانت بيسى قد وصـــفتها أحيـانا كمكان تجلس فيـــه السيدات الصغيرات فى مقاعد ، ويرتدين أزياء خاصة ،ويطلب منهن أن يكن غاية فى الرقة والكياسة ٠ ولقد كان جون ريد يمقت مدرسته ، ويذم أساتذته ، ولكن أذواق أسرة «ريد» لم تكن فى نظرى أحكاما يؤخذ بها ٠ وكانت بيسى تتحدث بما جمعته من أقوال فتيات الاسرة التى كانت تعمل عندها قبل ان تجىء الى (جيتسهيد) ، فكان فى وصفهـا للنظام المدرسى ماينم عن شىء من الشدة القاسية ٠٠ ولـــكن ما أسهبت فى ذكره من ألوان الثقافة التى تحصل عليها هؤلاء الفتيـــات ، كان بدوره

شيئا جذابا مشوقا بالنسبة الى ، اذ كانت بيسى تتحدث فى زهو عن الرسوم الجميلة التى تنقلهـا تلميذات المدارس عن المناظر الطبيعيـة والازهار ، والاغـانى التى ينشدنهـا ، والمسرحيات التى يمثلنها ، والمفارش التى يطرزنها ، والكتب الفرنسيه التى يستطعن ترجمتها ٠٠ ولذا كانت نفسى تهفو الى ان أكون مثلهن !٠٠ هذا الى أن المدرسة سـوف تكون بمثابة تغيـير كامل بالنسبة لى ، لما تنتظمه من رحلة طويلة ، وابتعاد تام عن (جيتسهيد) ، ودخول فى حياة جديدة !٠٠ وكانت نهاية تأملاتى أن قلت بصوت مسموع : « الحق اننى أتمنى ان أذهب الى المدرسة »

فقال مستر لويد وهو ينهض واقفا : « حسنا ٠٠ حسنا٠٠ من يدرى ماسوف يحدث ؟ » ٠٠ ثم أردف محدثا نفسـه : « ينبغى للطفلة ان تغير الهواء والمناظر ، فان أعصابها ليست فى حالة طيبة ! »

واذ ذاك عادت بيسى ٠٠ وفى اللحظة ذاتها ، سمع صوت العربة ترقى الطريق المحصوبة ، فسألها مستر لويد : « أهذه سيدتك أيتها المربية ؟٠٠ أحب ان أتحدث اليها قبل انصرافى ! »

★ ★ ★

◆ **و دعته** بيسى الى غرفة الفطور ، وسارت أمامه ٠ وفى المقابلة التى تمت بينه وبين مسز « ريد » ــ كما أدركت من الحوادث التى جرت بعد ذلك ــ تجرأ الصيدلى على ما أظن ، فأوصى بالحاقى باحدى المدارس ٠ ولا شك أن مسز « ريد » رحبت بتلك التوصية ، اذ حدث فى الليلة التـالية لملازمتى الفراش ، ان جلست آبوت وبيسى ــ فى غرفة الأطفـال ــ تتناقشان فى ذلك الموضوع ، وهما منهمكتان فى التطريز ، وقد حسبتانى نائمة ٠٠ فقالت آبوت ان سيدتها كانت غاية فى السعادة للتخلص من فتاة متعبة سيئة الخلق مثلى ، تبدو

دائما وكأنها تراقب كل انســـان ، وتدبر له المكائد فى مكر ودهاء !٠٠ وأظنني سمعت آبوت تصفنى بأننى أشبه « جاى فوكس » فى طفولته ٠٠ (و « جاى فوكس » شقى تروى فى سيرته الاساطير المخيفة !)

وعلمت للمرة الاولى من أقوال آبوت ـ فى تلك المناسبة ـ ان أبى كان قسيسا فقيرا ، وان أمى تزوجت منه على غـــير رغبة أصدقائها الذين لم يروا فيه ندا لها ، وان جدى «ريد» ذهب فى الهياج والسخط على عصيانها وتمردها الى حــد ان حرمها من كل شلن فى ثروته ، وبعد انقضاء عام على زواج أمى وأبى ، أصيب الاخير بحمى التيفوس أثناء زيارته للفقراء فى احـدى المدن الصناعيـة التى تفشى فيهـــا ذلك الوباء ، فى ابراشيته ٠ وما لبثت العدوى ان انتقلت الى أمى ، فمـــات الاثنان ولما يمض شهر واحد بين موت الاول وموت الثانية !

ولما سمعت بيسى تلك القصة ، تنهدت وقالت : « ما أجدر المسكينه مس جين بالرثاء يا آبوت ! »

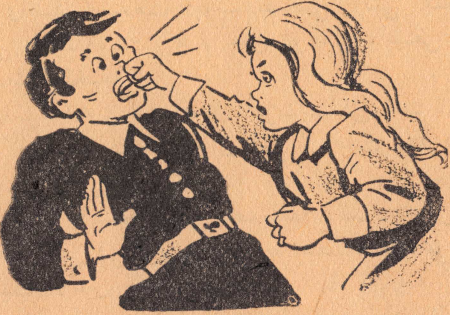
فأجابتها آبوت : « نعم ٠٠ لو انها كانت طفلة ظريفة جميلة، لاشفق الانسان على حرمانها ونبذها ، ولكن المرء لا يسعه أن يعنى بمثل هذه الضفدعة الصغيرة ! »

فوافقتها بيسى قائلة : « **انها ليست على قدر كبير من الجمال حقا ٠ ولو ان فتــاة فى مثل جمال مس جورجيانا وجدت فى مثل ظروف مس جين ، لـكانت أحظى بالرثاء والعطف ! »** ٠

فصاحت آبوت متحمسة : « اننى شغوفة بمس جورجيانا ٠٠ يا للعزيزة الصغيرة ، بجدائلها الطويلة ، وعينيها الزرقاوين ، ولون بشرتها الجميل ٠٠ كأنها صـــورة مرسومة !٠٠ اننى يابيسى أفكر فى أرنب من أرانب « ويلز » للعشاء ٠ فما رأيك؟»

ـ وأنا كذلك ٠٠ ومعه بصل مشوى ٠ تعـــالى نهبط لندبر الامر !

ثم مضت الاثنتان



الفصل الرابع

◆ من الحديث الذى دار بينى وبين مستر « لويد » ، ومن العبارات التى سمعتها ـ أثنــاء مرضى ـ من بيسى وآبوت ، جنيت من الامل مايكفى لان يكون حافزا لرغبتى فى الشفاء . اذ بدا لى أن تغييرا كان يوشك أن يطرأ عما قريب ، فتلهفت عليه ، ورحت أنتظره فى صمت وهدوء .. بيد أنه أبطأ مــع ذلك ، وانقضت أيام وأسابيع استعدت فيها صحتى العادية ، دون أن تبدر من أحد اشارة جديدة الى الموضــوع الذى كان يشغل بالى . وكانت مسز « ريد » ترمقنى من حــين الى آخر بنظرة حادة ، ولكنها ندر أن وجهت لى الحديث ، لانهــا منذ مرضى رسمت سياجا يفرق بينى وبين أطفالهــا أكثر من ذى قبل ، وخصصت لى حجرة صغيرة أنام فيها بمفردى ، كمــا حكمت على بأن أتناول طعامى وحــدى ، وأقضى كل يومى فى غرفة الاطفال ، بينما كان أبناء خالى فى حجرة الاستقبال على الدوام . ورغم ذلك لم تلح فى الجو بارقة تنبىء بارسالى الى المدرسة . على اننى كنت أشعر شعورا جازما بأن مسز « ريد » لن تطيق طويلا أن يظلنى واياها سقف واحد ، لان نظراتهــا

الى أصبحت تنم عن نفور طاغ ، تأصلت جذوره فى نفسها أكثر من أى وقت مضى !

وكان من الواضح أن « اليزا » و « جورجيانا » تنفذان أوامر خاصه ، اذ أصبحتا تقتصدان فى الحديث معى ما استطاعتا ، فى حين كان جون يخرج لسانه حتى خده كلما رآنى . وقد حاول مرة ان يضربنى ، ولكنى واجهته على الفور وقد ثارت ثائرتى ، واندفعت بنفس شعور الحنق العميق وبنفس التمرد الذى أثارنى من قبل ، فجرى من أمامى وهو يردد السباب واللعنات ، مقسما اننى جدعت أنفه . والواقع اننى هويت على هذا الجزء الناتىء من وجهه بضربة تجمع فيها كل ماكان فى يدى من قوة . ولما رأيت ان هذه الضربة ، أو مابدا فى عينى من نظرة ، قد أخافته ، وجدت بى ميلا شديدا الى المضى فى تأديبه ، ولكنه كان قد وصل الى أمه وسمعته يروى لها — بصوت ينشج بالبكاء — كيف انقضت عليه جين القذرة ، انقضاض القطة المتوحشة !.. ومنعته أمه من الاسترسال قائلة : « لاتحدثنى عنها ياجون ، فقد حذرتك من أن تقترب منها لانها لا تستأهل أية عناية ، ولا أرضى لك أو لاختيك ان تكونوا رفاقا لها » !

وعندئذ اتكأت على سياج الدرج ، وصحت فجأة ودون أى تفكير فى كلماتى : « بل هم الذين لا يستأهلون أن يكونوا رفاقا لى » !

وكانت مسز « ريد » قوية البنيان نوعا ما ، فلما سمعت منى ذلك التصريح العجيب ، الوقح ، جرت فى خفة ترقى الدرج ، ثم دفعتنى كالاعصار الى غرفة الاطفال ، حيث سحقت أحد ضلوعى ، وأمرتنى بصوت متوعد بألا أنهض من ذلك المكان ، أو أنبس ببنت شفة ، طوال بقية النهار

ووجدتنى أسألها ، عن ارادة تقريبا : « ترى ما الذى كان

خالى يقوله لك ، لو انه كان على قيد الحياة ؟ » ٠٠ وأقول ، «عن ارادة تقريبا» ، لان لسانى -على مابدا- نطق بالكلمات دون ما موافقة منى على النطق بها ، وكأن الذى تحدث شيء فى أعماقى لم يكن لى عليه سلطان ٠ وشهقت مسز « ريد » قائلة: « ماذا ؟ » ٠٠ وعكرت عينيهـــا السمراوين ، البـاردتين ، الرصينتين بطبعهما ، نظرة خائفه ، فرفعت يدها عن ذراعى ، وحملقت فى وكأنها لم تكن تدرى فعـــلا ما اذا كنت طفلة أو « عفريتة » !٠٠ وكنت قد انسقت للموقف ، قائلة :

- ان خالى « ريد » فى السماء ، ويســـتطيع أن يرى كل ماتفعلين وتفكرين فيه ٠ وكذلك يستطيع أبى وأمى !٠٠ انهم يعرفون انك تحبسينني طوال النهار ، وانك تتمنين موتى !

على انها سرعان ما استردت جأشها ، فأخذت تهزنى بشدة وتلوى كلتا أذنى ، ثم غادرتنى دون ان تنطق بحرف واحد ٠ وتولت بيسى ملء الفترة التالية بمواعظ استغرقت ســاعة كاملة ، وأثبتت لى بما لا يدع أدنى شك ، اننى أشقى وأتعس طفلة نشأت تحت سقف من السقوف ٠٠ على اننى لم أصدق كل ما قالته ، لاننى لم أكن أشعر بغير الاحساسات الشريرة التى كانت تعصف بين أضلعى !

★ ★ ★

◆ **وانقضى** شهر نوفمبر ، ثم ديسمبر ، ونصف ينـاير ٠ وكانوا قد احتفلوا بعيد رأس السنة - فى القصر - بالابتهاج المعتاد ، فتبودلت الهدايا ، وأقيمت ولائم الغـداء والعشاء ٠ وكنت بطبيعة الحال مبعدة عن كل متعة ٠٠ بل كان كل نصيبى فى ذلك السرور أن أشاهد يوميا « اليزا » و « جورجيانا » وهما تتخذان زينتهما ، ثم وهما تهبطان الى حجرة الاستقبال فى ثيـــاب حريرية تزينهـــا أحزمة قرمزية اللون ، وقد بدا شعرهما فى حلقات محكمة ٠ كما كنت - فيما بعـد ذلك -

أصغى الى صوت البيانو أو القيثار يعزفان فى الطابق الاسفل، والى وقع أقدام الساقى والخدم ، والى صلصلة الاكواب والاوانى الخزفيه عند تناول المأكولات والمشروبات المرطبة ، والى همهمة الاصوات المتكسرة عندما تنفتح أبواب حجرة الجلوس لتغلق ثانية ٠ حتى اذا تعبت من هذه المهمة ـ مهمة التسمع ـ عدت من رأس السلم الى حجرة الاطفال المنعزلة الصامتة ٠وهناك ،لم أكن أشعر ـ رغم كآبة المكان ـ بالتعس والشقاء ، لاننى لم أكن فى الحقيقة أحس أدنى رغبة فى ان أنضم الى تلك الجماعة، اذ قلما كان أحد يفطن الى وجودى فى الجماعات ٠ ولو ان « بيسى » كانت رقيقة ، رفيقة ، لوجدت لذة فى ان أقضى معها الامسيات فى هدوء ، بدلا من قضائها تحت عينى مسز «ريد» المخيفتين ، وفى حجرة تزخر بالسيدات والسادة ! ولكن بيسى كانت تبادر ـ بمجرد الفراغ من معاونة سيدتيها فى ارتداء ملابسهما ـ فتهبط كعادتها الى مواطن النشاط والمرح فى المطبخ وحجرة مدبرة شئون المنزل ، وهى تحمل معها شمعة٠ لذلك كنت أجلس ودميتى على ركبتى ، الى أن تخفت نيران المدفأة ، فآخذ أتلفت حولى من حين الى آخر لاستوثق من ان لاشىء أسوأ منى يعمر الغرفة المليئة بالظلال !٠٠ حتى اذا أصبح لون الجمرات أحمر معتما ، خلعت ملابسى على عجل وأنا أشد كل أنشوطة وخيط كأفضل ماينبغى ، ثم لذت بمهدى من البرد والظلام ٠ والى هذا المهد كنت آخذ دميتى دائما ، اذ يجدر بالمخلوقات الآدمية ان تحب شيئا ما !٠٠ وكنت فى أثناء افتقادى أتفه ما أودعه حبى ، قد رضت نفسى على أن أجد متعة فى حب صورة محفورة باهتة اللون ، فى قذارة (خيال المقاتة) !٠٠ **ولكم أعجب الآن اذ أتذكر كيف كنت مشغوفة ، كل ذلك الشغف السخيف الحار ، بمثل هذه اللعبة الصغيرة، وكيف كنت أتوهمها حية وقادرة على الاحساس !٠٠ كنت**

لا أقوى على النوم ما لم أطو عليهـــا منامتى ، حتى اذا رقدت هكذا سالمه دافئة ، شعرت بالســعادة ، اعتقادا منى بأنهـا سعيدة بدورها !

وكانت الساعات تبدو طويلة ، وأنا أترقب رحيل المدعوين، وأصغى الى وقع أقدام بيسى عــلى الدرج ، اذ كانت تصعد فى بعض الاحيان لتبحث عن « كستبانها » أو مقصها ، أو ربمـا لتأتينى بشىء لعشائى - كقطعة من الفطائر أو قرص من الجبن - ثم تجلس عــلى الفراش الى أن آكل ، فاذا انتهيت من ذلك ، لفتنى فى غطـــائى ، وقبلتنى مرتين ، قائلة : « طابت ليلتك يامس جين ! » .. وكانت بيسى تبدو لى أجمل وأرحم مخلوقة فى العالم ، حين تكون رقيقة بهذا الشكل ، فكنت أتوق الى أن تظل هكذا دائما : غاية فى الظرف والايناس ، فلا تنهرنى أو تعنفنى أو تكلفنى بواجب شاق لايتصوره عقل ، كمـــا كانت تفعل فى أحيان كثيرة ، وما أرى الا ان « بيسى لى » كانت - بلا شك - فتاة على جانب موفور من القدرة العقلية ، لانها كانت تتقن كل ماتعمله ، وكانت ذات مهـــارة ملحـوظة فى رواية القصص . أو هكذا حكمت عليهـــا من تأثرى بالقصص التى كانت تحكيها فى غرفة الاطفال !.. وكانت كذلك جميلة اذا صح ما أذكره عن وجهها وشخصها ، لاننى أتذكرها شـــابة ناحلة الخصر ، سوداء الشعر والعينين ، ذات ملامح جميلة ، وبشرة صافية لطيفة ، ولكنها كانت سريعة الانفعال ، لاتكترث لمبدأ أو عدالة ، ورغم ذلك ، فاننى كنت أفضلها عــلى كل من عداها فى قصر (جيتسهيد) !

* * *

◆ **وحوالى** الساعة التاسعة من الصــباح الخامس عشر من فبراير ، نزلت بيسى الى الطابق الارضى لتناول الافطار ، ولم تكن ابنتا خالى قد استدعيتا بعد للقاء أمهما ، فمضت «اليزا»

ترتدى قبعتها الصغيرة ومعطفها الثقيل ، استعدادا للذهاب الى الحديقة لاطعام دجاجها ٠٠ وهو عمل كان حبيبا الى نفسها ، ولم تكن أقل غراما به منها ببيع البيض لمدبرة المنزل ، وتوفير ماتحصل عليه من نقود من وراء ذلك !٠٠ **فقد كانت تميل للتجارة ، وبها نزعة ملحوظة للادخار ، لاتظهر فى بيع البيض والفراريج فحسب ، وانما تتجلى كذلك فى عقد المساومات القاسية مع البستانى بشأن جذور الازهار والبذور والشتلات٠ اذ كانت لدى هذا العامل أوامر من مسز « ريد » بأن يشترى من سيدته الصغيرة كل ماترغب فى بيعه من منتجات حديقتها ٠٠ بل ان « اليزا » لم تكن لتتردد فى بيع شعر رأسها اذا وجدت فى ذلك ربحا طيبا !٠٠ أما نقودها ، فقد كانت تخفيها فى أول الامر فى أركان غير مطروقة بالمنزل ، بعد أن تلفها فى خرقة أو فى ورقة قديمة محواة ٠ غير أن الخادم ما لبثت ان اكتشفت بعض هذه المخابىء ، فخشيت « اليزا » ان تفقد ذات يوم كنزها الغالى ، ومن ثم رضيت بأن تعهد به الى والدتها ، وفرضت عليه « ربحا » فاحشا بلغ حوالى الخمسين أو الستين فى المائة ، كانت تتقاضاه كل ثلاثة أشهر ، وتقيد حساباتها فى دفتر صغير بكل دقة بالغة !**

أما « جورجيانا » فكانت فى ذلك الصباح تجلس على مقعد عال ، تصفف شعرها أمام المرآة ، وتزين خصلاته بزهور صناعية وبعض ريش الطيور الذى كانت تجده بوفرة فى أحد الادراج بالطابق العلوى ٠ وأما أنا فكنت أسوى فراشى امتثالا لاوامر بيسى المشددة بأن أرتبه قبل عودتها ٠٠ فقد أصبحت تستخدمنى كثيرا كمساعدة للخادم بحجرة الاطفال ، لتنظيف الغرفة وازالة الغبار عن مقاعدها ٠٠ الخ ٠ فلما فرغت من فرش اللحاف ، وطويت منامتى ، مضيت الى قاعدة النافذة لارتب ما تناثر عليها من كتب مصورة وأثاث منزل الدمية ٠

ولكن « جورجيانا » فاجأتنى آمرة بأن أترك أدوات لعبها ، اذ كانت تملك كل المقاعد والمرايا والصحاف والاكواب الصغيرة. ومن ثم توقفت عن مهمتي . ولكى أشغل نفسى بعمل آخر ، أخذت أشم زهور الشتاء التى كانت تزين النافذة ، مفسحة بذلك فراغا أمام زجاج النافذة أرى خلاله الاراضى الخارجية ، حيث كان كل شيء هادئا ، جامدا ، بفعل الصقيع القاسى

وكانت هذه النافذة تطل على مسكن البواب وطريق العربات. وما ان أذبت الكثيرمن القناع الفضى اللون (الصقيع) - الذى كان يغطى ألواح الزجاج - لكى أطل على المدخل الخارجى ، حتى شاهدت البوابة تفتح على مصراعيها ، ورأيت عربة تدخل وتدلف فى طريق العربات . وأخذت أرقبها فى غير اكتراث .. اذ أن كثيرا من العربات كانت تفد الى القصر دون ان تأتى واحدة منها بزوار يهموننى فى شيء !.. ووقفت العربة أمام مدخل البيت ، ثم دوى جرس الباب عاليا ، وأدخل الزائر . واذ لم يكن فى كل ذلك مايعنينى مطلقا ، فان انتباهى سرعان ما وجد حركة شغلته ، وتمثلت فى هزار صغير جائع ، قدم يشقشق فوق غصون شجرة للكرز غير مورقة ، سمرت الى الجدار ، على مقربة من الافريز . وكانت بقايا افطارى من الخبز واللبن مازالت على المائدة ، ففتت جزءا من رغيف .. وفيما كنت أحاول فتح النافذة لاضع الفتات على افريزها الخارجى ، صعدت بيسى مسرعة الى غرفة الاطفال لتهيب بى : « اخلعى مرولتك يامس جين . ماذا تعملين هناك ؟ هل غسلت يديك ووجهك فى هذا الصباح ؟ »

فشددت اطار النافذة مرة أخرى ، قبل ان أجيب ، لاننى كنت راغبة فى أن أؤمن الطائر على خبزه . واستسلم الاطار ، فانفتحت النافذة . ونثرت الفتات على افريزها ، كما نثرت بعضه على أحد غصون شجرة الكرز ، ثم أغلقت النافذة

وأجبت : « كلا يابيسى ٠٠ انما فرغت لتوى من التنفيض »

ـ يالك من فتاة متعبة مهملة !٠٠ وماذا تعملين الآن ؟٠٠ان وجهك يتضرج بالدماء ، كما لو كنت منهمكة فى ارتكاب نوع من الاذى ٠ لماذا كنت تفتحين النافذة ؟

ولكنها وفرت على عناء الرد ، اذ كانت فى عجلة شديدة من أمرها ، مما منعها من الاصـغاء الى أى شرح ٠ وجذبتنى الى حوض الاغتسال حيث انهمكت فى تدليك وجهى ويدى تدليكا قاسيا بالماء والصابون وفوطة خشنة ٠ ولكن هذا التدليك كان قصير الامد لحسن الحظ ٠ وصففت بيسى شعرى بفرشـاة خشنة ، وخلعت عنى مرولتى ، ثم أسرعت بى الى قمة الدرج، فأمرتنى ان أهبط مبـاشرة الى حيث كانوا يريدوننى بغرفة الافطار ٠ ووددت ان أسألها عمن يريدنى ، وعما اذا كانت مسز « ريد » هنالك ٠ ولكن بيسى كانت قد ذهبت وأغلقت خلفى باب حجرة الاطفال ، فتوقفت مخلوعة القلب ، أرتعد ٠ لشد ماكنت اذ ذاك طفلة بائسة جبانة ، بتأثير الخوف المنبعث من العقوبات الظالمة الجائرة !٠٠ لقـد خفت ان أعود الى حجرة الاطفال ، كما خفت ان أتقدم الى حجرة الاسـتقبال ، وظللت عشر دقائق واقفة فى تردد وانفعـال ، حتى حزم رأيى رنين جرس دوى فى غرفة الافطار فى قوة وعنف يهيب بى ان أدخل ٠٠ وتساءلت وأنا أدير بكلتا يدى مقبض الباب الجامد ، الذى قاوم جهودى لحظة أو اثنتين : « من ذا الذى يريدنى ؟ ومن عساى أرى فى الحجرة غير الخالة « ريد »؟٠٠ رجلا أو امرأة ؟»

★ ★ ★

• **ودار** مقبض الباب فانفتح الباب ٠ ودخلت ، ثم انحنيت فى أدب ٠ ورفعت نظرى الى عمود أسود !٠٠ أو هكذا عـلى الاقل بدا لى لاول وهلة ذلك الشبح القاتم الناحل ، فى ردائه الاسود ، وقد وقف منتصب القامة عـلى البساط !٠٠ وكان يعلو هامته وجه متجهم يشبه قناعا منحوتا ، منصوبا على أحد

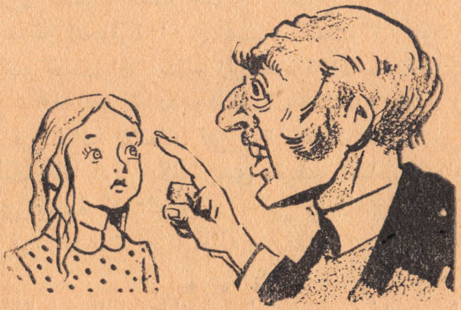
الاعمدة كأنه تاج !٠٠ وكانت مسز ريد تشغل مقعدها المعتاد بجانب المدفأة ، فأشارت لى ان أقترب ٠ واذ فعلت قدمتنى الى الغريب الشبيه بالتمثال ، قائلة : « هذه هى البنت الصغيرة التى كتبت اليك بشأنها »

وحول الرجل – اذ كان رجلا ! – رأسه ببطء نحو المكان الذى وقفت فيه ٠ وبعد ان تفحصنى بعينين سوداوين ، فضوليتين ، تلتمعان تحت حاجبين كثين ، قال بصوت رزين خافت : « ان حجمها ضئيل ، فما عمرها ؟ » ٠٠ فقالت : « عشر سنوات »

فأجاب فى شك وهو يتفحصنى بضع دقائق : « هذا كثير جدا ! »

ثم لم يلبث ان خاطبنى قائلا : « ما اسمك أيتها البنت الصغيرة ؟ »

– جين اير ياسيدى ٠٠



ورفعت نظرى اليه وأنا أجيبه ، فبدا لى سيدا فارها ، اذ كنت وقتذاك صغيرة جدا ٠ وكانت ملامحه ضخمة ، تنم – ككل هيئته على السواء – عن فظاظة ووقار متكلف ٠ وعاد يقول : « حسنا ياجين اير ٠٠ وهل أنت طفلة طيبة ؟ »

وكان من المستحيل ان أرد على ذلك بالايجاب ، لان عالمى الصغير كان يرى فى رأيا مخالفا ، ومن ثم أخلدت الى الصمت، وتولت عنى مسز « ريد » الرد بهزة معبرة من رأسـها ، ثم استرسلت على الفور قائلة : « ربما يحسن الاقلال من الكلام فى هذا الموضوع يامستر بروكلهيرست ! » ٠٠ فقال : «يؤسفنى حقا ان أسمع ذلك ، اذ لابد لها ولى من ان نتحدث معا قليلا » ٠٠ وتنحى عن وقفته المنتصبه ، ثم جلس على المقعد ذى المسندين المقابل لمسز « ريد » ، وقال : « تعالى هنا ! »

وتقدمت عبر السجادة ، فأوقفنى وجهـا لوجه أمامه ٠٠ ويا للوجه الذى أوتيه !٠٠ لقد كان اذ ذاك فى مستوى نظرى ٠٠ فيـا لانفه الضخم ، ويا لفمه !٠٠ ويا لاسنانه الكبيرة البارزة !٠٠ وأردف يقول : لاشىء أدعى للحزن من منظر طفل شقى ٠٠ لاسيما اذا كان بنتا صغيرة شقية !٠٠ أتعرفين أين يذهب الاشقياء بعد الموت ؟ »

فكان جوابى السريع ، الصحيح : « **انهم يذهبـون الى الجحيم !** »

ــ وما هو الجحيم ؟٠٠ هل فى وسعك اخبارى ؟

ــ حفرة مليئة بالنار !

ــ وهل تحبين السقوط فى تلك الحفرة والاحتراق هنالك الى الابد ؟!

ــ كلا ياسيدى !

ــ وماذا يجدر ان تفعليه لتتقى ذلك ؟

ففكرت لحظة ٠ وعندما أسعفنى الرد ، لم يكن مقبولا اذ قلت : « **يجب ان أحافظ على صحتى حتى لا أموت !** »

ــ وكيف تحافظين على صحتك ؟٠٠ ان أطفالا يصغرونك فى السن يموتون فى كل يوم ، ولقد دفنت أنا طفلا فى الخامسة من عمره منذ يوم أو اثنين ٠٠ طفلا صغيرا لطيفا ، صعدت

روحه الى السماء ، وأخشى ان لا نستطيع قول ذلك عنك اذا أنت مت !

ولم أكن فى حالة تمكننى من تبديد شكه هذا ، فاكتفيت بأن أرخيت نظرى نحو قدميه الضخمتين المزروعتين فى السجادة ، ثم تنهدت متلهفة على ان أكون بعيدة عن هذا المكان . وقال : « أرجو ان تكون هذه الزفرة من القلب وان تكونى قد ندمت على ان كنت السبب فى مضايقة ولية نعمتك العظيمة !»

فقلت فى نفسى : « **ولية نعمتى ! ولية نعمتى ! .. انهم جميعا يدعون مسز « ريد » ولية نعمتى .. واذا كان الامر كذلك ، فلابد ان ولية النعمة شىء بغيض !** »

واسترسل مستجوبى يقول : « اتصلين فى المساء والصباح ؟ »

ـ نعم ياسيدى !

ـ وهل تقرئين الانجيل ؟

ـ أحيانا !

ـ بغبطة وسرور ؟ .. هل أنت مشغوفة به ؟

ـ اننى أحب سفر الرؤيا ، وكتاب دانيال ، وسفر التكوين ، وصمويل ، وقسطا بسيطا من سفر الخروج ، وبعض أجزاء من سفر الملوك ، وأخبار الايام ، وقصتى أيوب ويونان !

ـ والمزامير ؟ أرجو ان تحبيها كذلك !

ـ كلا ياسيدى !

ـ كلا ؟ أوه .. أمر مؤلم ! .. ان لى ولدا صغيرا ـ أصغر منك ـ يحفظ ستة مزامير عن ظهر قلب ، واذا سألته هل يفضل ان يأكل قطعة من كعك الزنجبيل بالبندق ، أو أن يحفظ بيتا من المزامير ، لقال : « أوه ! بيتا من المزامير ، لان

الملائكة تترنم وتسبح بها ! » •• وهو يقول :« أتمنى ان أكون أحد الملائكة الصغار هنـــا على الارض » •• وعنـدئذ يظفر بكعكتين مكافأة له على تقواه فى صغره !

قلت : « ان المزامير ليست مشوقة ! »

ـ هذا يؤكد ان لك قلبا شريرا ، وأنك يجب ان تدعى الله أن يغير لك قلبك هذا ، ويمنحك قلبا جديدا نظيفا •• أى ان ينتزع منك قلبا من حجر ، ويمنحك قلبا من لحم !

وهممت بأن أطرح سؤالا عن كيفية اجراء عملية تغيير قلبى، لولا ان تدخلت مسز « ريد » فى الحديث ، فســـألتنى ان أجلس ، ثم تولت زمام الحـديث بنفســـها قائلة : « أظننى يامستر بروكلهيرست قد أشرت فى خطابى اليك ـ منذ ثلاثة أسابيع ـ الى أن هذه البنت الصغيرة ليست كما أود من حيث الخلق والميول ، فاذا أنت قبلتها فى مدرسة (لوود) ، فانه ليسرنى ان تطلب الى المشرفة والمعلمات أن يشـددن الرقابة عليها ، وأن يدرأن عنها ـ قبل كل شىء ـ اسوأ عيوبها ، وهو الميل الى الغش والخداع !•• وأنا أقول ذلك على مسمع منك يا « جين » ، حتى لا تحاولى غش مستر بروكلهيرست ! »

لا عجب اذن فى أن أخشى وأن أكره مسز « ريد » ! فقـد جبلت بطبيعتها على ان تجرحنى بقســـوة • بل اننى لم أذق السعادة قط فى حضرتها !•• وقد كنت أحرص على طاعتها ، وأحاول جهدى ان أرضيها ، ومع ذلك كانت جهـودى تمنى بالفشل ، ولا ألقى عنها جزاء سوى أمثال العبارات الســالفة الذكر !•• والآن ، وقد فاهت بذلك أمام رجل غريب ، فقـد مزق الاتهام نياط قلبى ، وأوحى الى بأنها كانت تمحو الامل المرجو من المرحلة الجديدة فى حياتى •• المرحلة التى قضت على هى بأن أنتقل اليهـــا !•• وشعرت ـ وان لم اقو عـلى الافصاح عن مشاعرى ـ بأنها تبذر فى طريق مستقبلى بذور

الكراهية والقسوة . ثم رأيت نفسي وقد انقلبت فى نظر مستر بروكلهيرست الى طفلة مخادعة ، مؤذية ، فماذا كان فى وسعى ان أعمله لعلاج هذا الافساد ، ودفع هذا الاذى ؟.. «لاشيء !» .. وجاهدت لكى أكظم شهقة باكية ، ثم كفكفت فى الحال بعض العبرات التى كانت أدلة قوية قاطعة على آلامى !

وقال مستر بروكلهيرست : « ان المكر - فى الحقيقة - عيب محزن فى الطفل ، وهو والزور والبهتان سواء ! وسيلقى كل الكذابين عقابهم فى البحيرة التى تتقد بالنار والكبريت !.. وعلى أية حال ، سوف نحكم عليها الرقابة يامسز ريد ، وسأتحدث فى ذلك مع مس تمبل والمعلمات »

وعادت ولية نعمتى تقول : « أريد ان تنشأ تنشئة تتفق مع مايرتجى لها من آمال ، لتغدو نافعة ، ولتحافظ على التواضع . أما عن الاجازات فسوف تقضيها - اذا سمحتم - فى المدرسة على الدوام ! » .. فأجابها مستر بروكلهيرست : « ان قراراتك غاية فى الحكمة ياسيدتى ، فان التواضع من نعم المسيح وشمائله . وهو من أليق الفضائل وأنسبها لتلميذات (لوود) . ولذلك فأنا آمر بتوجيه عناية خاصة الى غرس هذه الفضيلة فى التلميذات . ولقد درست خير الوسائل التى تقتل فيهن غرور الحياة ، وروح الكبرياء . وتجمعت لدى الادلة على مبلغ نجاحى فى ذلك . اذ ذهبت ابنتى الثانية « أوجستا » مع والدتها لزيارة المدرسة ، وعند عودتها هتفت قائلة : « أواه يا أبى العزيز ، كم تبدو جميع الفتيات فى (لوود) هادئات بسيطات ، بشعرهن الممشط خلف آذانهن ، ومراولهن الطويلة ، وتلك الأكياس الصغيرة الهولندية فوق صدورهن ! انهن أشبه ببنات الفقراء ، فقد أخذن يتطلعن الى ثوبى وثوب والدتى ، وكأنهن لم يشاهدن فى حياتهن رداء حريريا من قبل » !

فقالت مسز ريد : « هذه هي الامور التي تروق لي تماما • ولو انني نقبت في جميع أنحاء انجلترا ، لما وجدت نظاما خيرا من هـذا مواءمة لطفلة مثل جين اير ! •• الشـدة يامستر بروكلهيرست العزيز •• انني أوصي بالشدة في كل شيء ! »

ـ ان الشدة ياسيدتي أول واجبات الرجل المتدين ، وهي تراعى في كل نظام أو اجراء يتعلق بمدرسـة (لوود) : فالمصروفات معتدلة ، والازياء بسيطة ، ووسائل الراحة عادية في غير مبالغة ، والطباع تتسم بالصلابة والنشاط • هذا هو النظام اليومي في المدرسة وبين ساكناتها !

ـ حسنا جدا ياسيدي • في وسعي اذن ان أطمئن الى قبول هذه الطفلة تلميذة في (لوود) ، والى أنها سوف تتعلم مايتسق مع مركزها وما يرجى لها !

ـ لك ذلك ياسيدتي ، فسوف ندخلها في فصل الحضانة الخاص بالمختارات من الصغرات •• وهـذه ميزة لا تقدر ، وأرجو ان تقابلها الطفلة بالشكر والامتنان !

ـ اذن سأرسلها لك بأسرع ما أستطيع يامستر بروكلهيرست ، اذ أؤكد لك انني أتلهف على التخلص من تبعة أصبحت شاقة متعبة !

ـ بلا شك ياسيدتي •• بلا شك • والآن طاب صباحك • سوف أعود الى قصر بروكلهيرست في مدى أسبوع أو اثنين ، لان صديقي الطيب « الارشيدوق » لن يدعني أتركه قبل ذلك • وسأرسل الى مس تمبل أبلغها نبأ قدوم فتاة جديدة ليتسنى استقبالها •• أستودعك الله !

ـ رافقتك السلامة يامستر بروكلهيرست ، وابلغ تحياتي الى مسز ومس بروكلهيرست ، والى أوجستا وتيودور والسيد بروتون بروكلهيرست

ـ شكرا ياسيدتي •• وانت أيتها الطفلة الصغيرة • ها هو

ذا كتاب عنوانه « مرشد الطفل » ، فاقرئيه مع صلواتك ، لاسيما الجزء الخاص بالوفاة المباغتة ، الاليمة ، التى كانت من نصيب « مارتا ج ٠ » ٠٠ وهى طفلة شقية انغمست فى البهتان والخداع !

وفيما كان ينطق بتلك الكلمات ، وضع فى يدى كراسة نحيفة مخاطة فى غلاف ، ثم دق الجرس لاستدعاء عربته ، ورحل ليتركنى ومسز « ريد » على انفراد

★ ★ ★

• **وانقضت** بضع دقائق فى صمت وسكون : هى تعمل بابرتها ، وأنا أرقبها ٠ ولعلها كانت فى ذلك الوقت قد بلغت السادسة أو السابعة والثلاثين من عمرها ٠ **وكانت امرأة قوية البنية ، معتدلة الكتفين ، متينة الاطراف ، غير فارعة الطول ، وان كانت ممتلئة فى غير بدانة ٠ وكان لها وجه ضخم ، أما فكها الاسفل فكان شديد البروز والصلابة ، فى حين كان جبينها عريضا ، وذقنها كبيرة وبارزة ، كما كان لها فم وأنف عاديان ٠ وتحت حاجبيها الخفيفين ، كانت تأتلق عينان فى غير رأفة أو حنان ٠ وكان جلدها قاتما معتما ، وشعرها كتانيا ، وجسمها فى قوة الجرس ، اذ أن المرض لم يكن يقترب منها على الاطلاق !٠٠ وكانت فى تدبير المنزل دقيقة ماهرة ، تسيطر على شئون منزلها وعلى مستأجرى المزرعة سيطرة تامة ، وان كان أطفالها ـ وحدهم ـ هم الذين كانوا يتحدونها أحيانا ويسخرون من هذه السيطرة !٠٠ كما كانت تتخير ملابسها ، ولها من سيماها وقوامها مايتيح لها المنظر الانيق !**

أما أنا فكنت جالسة على مقعد خفيض ، على مسافة بضع ياردات من مقعدها الكبير ، أتأمل قوامها ، وأتصفح قسمات وجهها ، بينما أمسكت فى يدى الكراسة التى تحوى قصة موت « الكاذبة » المفاجيء ، وهى القصة التى وجه نظرى اليها

كانذار قبل فوات الاوان · وكان كل ما مر بى منذ قليل ، وما قالته مسز ريد عنى لمستر بروكلهيرست ـ بل كل ما حـــواه حديثهما ـ لايزال طازجا يخز ذهنى !·· أجل ، شعرت بأن كل كلمة كانت لاتزال لاذعة ، حادة ، كما سمعتها من قبل ·· وجاشت فى أعماقى ثورة امتعاض · ورفعت مسز ريد عينيهـــا عن عملها ، فاستقرتا على عينى ، بينما توقفت أصابعهـــا عن حركاتها الرشيقة · وقالت: « غادرى الغرفة ،وعودى الى حجرة الاطفال ! »

ولا شك فى أن نظراتى أو شيئا آخر فى قد ضايقها ، لانها كانت تتكلم فى انفعال بالغ وان حاولت كظمه ··فنهضت ومضيت الى الباب·ولكنى عدت مرة أخرى ، واجتزت الغرفة الى النافذة ، ثم اقتربت منها ·· كان لابد من أن أتكلم ، فقد داستنى بشدة ويجب أن أرد لها الكيل ·· ولكن كيف ؟·· أى حول لى حتى أثأر من غريمتى ؟!·· على اننى ما لبثت ان استجمعت قواى فى هذه الجملة الكليلة :

« اننى لست مخادعة ، والا لقلت لك اننى أحبك ، ولـكنى أصرح بأننى لا أحبك ، واننى أكرهك ، أكثر ممـــا أكره أى انسان فى العالم عدا جون ريد ·· وهذا الكتاب عن «الكاذبة» يحسن أن تعطيه لفتاتك « جورجيانا » ، لانها هى ـ ولستأناـ التى تروى الاكاذيب !

وظلت يدا مسز ريد ساكنتين لاتعملان ـ فى التطريز ـ كما ظلت عيناها كالثلج ، تنظران الى عينى فى برود ، ثم سألتنى بلهجة من يخاطب خصما فى سنه ، لا باللهجة التى يخاطب بها الطفل عادة :« وماذا تبقى لديك من أقوال ؟ »·· وأثارت نظرتها وصوتها كل كراهية لهـــا فى نفسى ، فاسترسلت أقول وأنا أهتز من مفرقى الى أخمص قدمى ، وقد استولى على هياج لاأقوى على كبح جماحه :

ـ يسعدنى أن لا رابطة من القرابة بينى وبينك، ولن أدعوك خالتى مرة أخرى ماحييت ، ولن اجىء لزيارتك عندما أكبر ٠ واذا سألنى سائل كيف كنت اشعر نحوك ، وكيف كنت تعاملينني ، فسأخبره بأن مجرد التفكير فيك يسممنى ، وانك عاملتنى بقسوة دنيئة !

ـ وكيف تجرؤين على تأكيد ذلك ياجين اير ؟!

ـ كيف أجرؤ يامسز ريد ؟٠٠ كيف أجرؤ ؟٠٠ لانه الحق !٠ انك تحسبيننى بلا مشاعر أو احساسات وتحسبين أننى أقوى على العيش دون بصيص من الحب والحنان ، ولكننى لاأستطيع الحياة هكذا ، وأنت لاشفقة ولا رحمة فى قلبك ٠ وسأظل أذكر ـ ما حييت ـ كيف دفعتنى بفظاظة وعنف الى الحجرة الحمراء ، ثم أغلقت الباب بالمفتاح ، بالرغم من اننى كنت أتألم، وبالرغم من اننى كنت أصرخ وانا اختنق بالضيق والاسى : «ارحمينى ! ارحمينى ياخالتى ريد !»٠ وما جعلتنى أقاسى ذلك العذاب الا لان ولدك الشرير ضربنى وصرعنى لغير ما سبب !٠٠ سوف أخبر كل انسان يسألنى بهذه القصة نفسها ، لان الناس يحسبونك امرأة طيبة ، ولكنك شريرة جامدة القلب ٠ ٠ انك مخادعة غشاشة !!

وقبل ان أفرغ من هذا الرد ، كانت روحى قدبدأت ترفرف منتشيه بأغرب شعور خامرنى بالحرية والنصر ، وكأنما تحطم قيد غير مرئى ، فانطلقت نحو حرية لم أكن قوية الامل فيها!٠٠ وما كان هذا الاحساس دون ما سبب ، فقد تجلى الدعر على مسز ريد ، وسقط شغل الابرة من فوق ركبتيها ، ورفعت يديها ثم راحت تنتفض ، وهى تترنح يمنة ويسرة ٠٠ بل ان أسارير وجهها أخذت تتلوى ، وكأنها توشك على البكاء وهى تقول : « انك ياجين مخطئة،ماذا بك ؟٠٠ لماذا ترتعدين هكذا بشدة؟٠ هل لك أن تشربى بعض الماء ؟ »

ـ كلا يامسز ريد

ـ أتريدين شيئا آخر ياجين ؟٠٠ ثقى من أننى أرغب فى أن أكون صديقة لك !

ـ انك لا تريدين شيئا من هذا ٠٠ لقد أخبرت مستر بروكلهيرست بأن سلوكى سيء ، واننى مخادعة بطبعى ، وسوف أخبر كل من فى (لوود) بحقيقتك ، وبما فعلته !

ـ انت ياجين لاتدركين هذه الاشياء ٠٠ يجب أن يصلح كل عيب فى الاطفال !

فصرخت بصوت وحشى مرتفع : « ليس الخداع من عيوبى! »

ـ ولكنك سريعة الانفعال ياجين ٠٠ يجب أن تعترفى بذلك٠ والآن هيا ارجعى الى حجرة الاطفال وارقدى بها قليلا ياعزيزتى!

ـ لست عزيزتك ، ولست أقوى على الرقاد ٠ ابعثى بى الى المدرسة فورا يامسز ريد ، لاننى أكره العيش هنا !

فغمغمت هامسة : « حقا يجب أن أعجل بارسالها الى المدرسة » ٠٠ ثم جمعت شغل الابرة ، وغادرت الغرفة فجأة

★ ★ ★

٭ وبقيت وحدى هنالك ٠٠ وقد ربحت المعركة ! ٠ كانت أعنف معركة خضتها ، وهذا أول نصر ظفرت به ، فوقفت لحظة على السجادة ـ حيث كان مستر بروكلهيرست واقفا من قبل ـ لانعم بخلوة المنتصر ٠٠ وابتسمت لنفسى ، وشعرت بالزهو والفرح فى أول الامر ، ولكن هذا السرور الوحشى مالبث أن تبدد ، كما خفتت دقات قلبى المتسارعة ٠ فان الطفل لايستطيع أن يتنازل من يكبرونه سنا ـ كما فعلت ـ ولا يستطيع أن يترك الزمام لمشاعره الصاخبة ، كما تركت زمام مشاعرى ، دون ان يشعر فيما بعد بوخز الندم ، ورعشة رد الفعل !٠٠ ولقدكانت نفسى ـ عندما اتهمت مسز ريد وتوعدتها ـ أشبه ببركان يفيض وهجا وحيوية ، وتدميرا ، ثم ما لبثت ، بعد قليل ، أن غدت

أشبه بهذا البركان ذاته ، وقد أصبح أسود هامدا ، بعد ان خمدت نيرانه ولهبه •• فان انقضاء نصف ساعة فى سكون وتفكير ، أظهرنى على جنون مسلكى ، وعلى بشاعة موقفى الزرى البغيض !

لقد ذقت شيئا من الانتقام لاول مرة ، فبدا لى عند تجرعه أشبه بخمر معطرة ، منعشة ، منشطة ، ثم ما لبث طعمها أن أصبح كطعم معدن أكله الصدأ ، مما جعلنى أحس اننى تناولت سما زعافا ، حتى لقد وددت أن أذهب الى مسز ريد ، لاسألها – عن طيب خاطر – أن تسامحنى وتغفر لى ، ولكنى كنت أعلم – سواء من تجاربى أو بغريزتى – أن ذلك المسلك سيحملها على طردى باحتقار بالغ ، وبذلك تثير كل لاعجة فى نفسى من جديد • لذلك آثرت أن أتجنب الكلام القارص ، وأن أبحث عما أذكى به شعورى الخبيث ، غير السخط والحنق ، ومن ثم تناولت كتابا – وكان يضم بعض قصص عربية – وجلست أحاول القراءة • ولكنى لم أفهم موضوعا للكتاب ، لان أفكارى كانت تسبح بينى وبين الصفحة التى كنت أجدها – فى الاوقات العادية – شائقة لذيذة • وفتحت الباب الزجاجى المفضى من حجرة الافطار الى الحديقة ، فاذا بها ساكنة صامتة ، وقد كسا أرضها صقيع حالك ، لم تفلح فى اذابته شمس أو رياح ، فغطيت رأسى وذراعى بطرف معطفى ، ثم خرجت لاتمشى فى ناحية من المزارع تكاد تكون منعزلة كل الانعزال ، ولكنى لم أجد أية بهجة فى الغصون الصامتة ، أو الكيزان المتساقطة من أشجار الشربين ، أو آثار الخريف المتجمدة ، أو الاوراق الحمراء التى اكتسحتها الانواء ، فتجمعت أكواما على الارض وقد تيبست بفعل الجليد • واتكأت الى احدى البوابات ، ورحت أسرح النظر فى حقل خاو ، ليست فيه أغنام ترعى ، وقد لفحت الرياح حشائشه وصقلتها • كان يوما جد حالك ، والسماء جد معتمة ،

والجليد يغطى كل شىء ٠ وما لبث البرد أن أخذ يتساقط فى فترات متقطعة ، ليتكدس على الارض الجامدة ، والمرج الاشيب، دون أن يذوب ، فوقفت كطفلة غاية فى التعس والشقاء ، لاهمس الى نفسى بين حين وآخر : « ماذا أعمل ؟٠٠ ماذا أعمل ؟ »

وفجأة ، سمعت صوتا واضحا ينادينى : « يا آنسةجين ٠٠ أين أنت ؟ ٠٠ تعالى لتتناولى غداءك ! » ٠٠ وأدركت تماما ان بيسى هى صاحبة الصوت ، ولكننى لم أتحرك ، فما لبث وقع قدميها الخفيف أن اقترب فى رشاقة ثم قالت : « أيها الشقية الصغيرة ٠٠ لماذا لاتأتين عندما ينادونك ؟ » ٠ وفىغمرة الافكار التى كنت أهيم فيها ، لاح لى ان وجود بيسى يبعث السرور والاغتباط ، على الرغم من عبوسها المعتاد ٠ والواقع اننى بعد مشاحنتى مع مسز ريد وانتصارى عليها ، لم أعد أحفل كثيرا بغضب المربية أو رضاها ٠ غير اننى تقت الى أن أنعم بخفة روحها الشابة ، فطوقتها بذراعى الاثنتين ، وقلت : « تعالى يابيسى ! لاتنتهرى ولا تزجرى !! » ٠٠ وكان تصرفى هذا أكثر صراحة وأقل خوفا وجبنا مما عهدتنى ، ولكنه أرضاها الى حد ما ، فقالت وهى تتأملنى : « يالك من طفلة عجيبة ياجين !٠٠ يالك من مخلوقة صغيرة هائمة فى العزلة !٠٠ أظنك ستذهبين الى المدرسة ؟ » ٠٠ فأومأت برأسى ٠ وعادت تقول :

ـ وهلا تأسفين لترك بيسى المسكينة ؟

ـ وماذا يهم بيسى من أمرى ، وهى لاتنى تعنفنى وتنهرنى ؟

ـ لانك مخلوقة صغيرة غاية فى الغرابة ، شديدة الذعر والحياء ٠٠ يجب أن تكونى أكثر جرأة واقداما !

ـ ماذا ! لكى أضرب أكثر من هذا ؟

ـ هراء !٠ ولكنك بلا ريب تتكلفين من أمرك عسرا ٠ ولقد قالت أمى بعد أن قدمت لزيارتى فى الاسبوع الماضى ، انها

لاتتمنى لاحد من أبنائها أن يكون فى موضعك .. والآن تعالى فان لدى لك أنباء جديدة سارة !

ـ لا أظن لديك شيئا من هذا يابيسى

ـ يالك من طفلة !.. ماذا تعنين ؟ ولماذا تتطلعين الى بعينين حزينتين ؟.. ان السيدة وأبناءها سيخرجون بعد ظهر اليوم لتناول الشاى ، وسوف تتناولينه معى . وسأطلب الى الطاهية أن تخبز لك كعكة صغيرة ، وبعد ذلك سـوف تعاونينني فى فحص أدراجك ، اذ يجب أن أعد لك حقائبك فى الحال ، لان سيدتى تريدك على أن تغادرى (جيتسهيد) بعد يوم أو اثنين . وسوف تختارين من اللعب ما ترغبين في أخذه معك !

ـ عدينى يابيسى ألا تسلقينى بلسانك حتى أرحل !

ـ حسنا ، لك هذا !.. ولكن اذكرى جيدا أنك بنت طيبـة جدا ، ولا تعودى تخافيننى . ولا ترتاعى اذا حدث أن كلمتك فى شيء من الحدة ، اذ ان ذلك يغضبنى منك كثيرا !

ـ لا أظننى سأخشاك بعد اليـوم يابيسى ، لاننى ألفتك ، ولن ألبث ان ألقى نوعا آخر من الناس ، أخافه وأخشاه !

ـ اذا خشيت أمرهم فسوف يكرهونك

ـ كما تكرهينني يابيسى ؟!

ـ أنا لا أكرهك يا آنسة ، بل أنا واثقة من أننى أحبك أكثر مما أحب الآخرين جميعا !

ـ انك لاتظهرين لى ذلك !

ـ يالك من صغيرة لاذعة ! لقد اتخذت لنفسك طريقة جديدة تماما فى الكلام .. فمـا الذى أحالك جريئة جسـورة بهذا الشكل ؟

ـ لسوف أفارقكم عما قليل .. هذا فضلا عن ...

وهممت بأن أحدثها عن بعض ما وقع بيني وبين مسز ريد ، ولكنني ترويت ، ورأيت أنه من الخير أن أخلد الى الصمت فيما

يتعلق بهذا الموضوع · وعادت تقول :

ـ اذن فأنت مغتبطة لتركى ؟

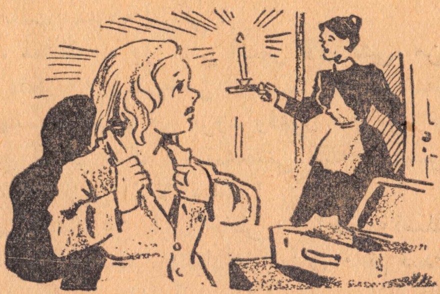
ـ كلا ، مطلقا ·· بل اننى أشعر الآن بشيء من الاسف !

ـ الآن فقط ·· وبشيء من الاسف !·· كم تنطق سيدتي الصغيرة بهذه الكلمات في برود وفتور ·· بل اننى أجرؤ فأقول : لو طلبت منك أن تمنحينى قبلة ، فسوف ترفضين وتقولين انك تؤثرين أن لا أقبلك !

ـ سوف أقبلك عن طيب خاطر ·· احنى رأسك

فأحنت بيسى رأسها ، وتبادلنا العناق · ثم تبعتها الى المنزل وأنا مرتاحة القلب ، راضية · وانقضى عصر ذلك اليوم في هدوء وانسجام · وفى المساء، روت لى بيسى بعض قصصها الساحرة، وغنت لى بعض أغنياتها الحلوة

وهكذا لم تبخل الحياة ـ على فتاة مثلى ـ ببعض ومضات من ضياء الشمس !



الفصل الخامس

• **لم** تكد الساعة تدق الخامسة من صباح التاسع عشر من شهر يناير ، حتى أقبلت « بيسى » الى حجرتى الضيقة ، وهى تحمل شمعة ، فوجدتنى قد فرغت من ارتداء ثيابى تقريبا ، اذ كنت قد استيقظت قبل مقدمها بنصف ساعة ، فغسلت وجهى ، وارتديت ملابسى على ضوء القمر الجانح الى الغروب ، والذى كان شعاعه ينساب خلال النافذة الضيقة القريبة من سريرى ٠٠ وكان مقررا ان أبرح (جيتسهيد) فى ذلك اليوم ، فى العربة التى كانت تمر أمام الدار فى الساعة السادسة صباحا ٠ وكانت « بيسى » هى الشخص الوحيد الذى استيقظ اذ ذاك ، فأشعلت النار فى مدفأة غرفة الاطفال ، حيث شرعت فى اعداد فطور لى ٠ **وقليل من الاطفال هم الذين يستطيعون ان يأكلوا وهم تحت وطأة الانفعال الذى يبعثه التفكير فى رحلة ما ٠٠ وكذلك لم أستطع أنا ٠ وعبثا حاولت « بيسى » ان تحملنى على ان أتناول بضع ملاعق من اللبن المغلى والخبز اللذين أعدتهما لى ، فلفت بعض « البسكويت » فى ورقة دستها فى**

حقيبتى . ثم آعانتنى على ارتداء معطفى وقلنسوتى ، وبعد ان تدثرت هى بشال ، غادرت معى غرفة الاطفال .. فلما مررنا بمخدع مسز « ريد » ، قالت : « هلا دخلت فودعت السيدة ؟»

ـ لا يابيسى ، فقد جاءت الى سريرى ليلة أمس ، عندما هبطت أنت لتناول العشاء ، وقالت ان لا داعى لان أزعجها فى الصباح ، أو ان أزعج أبناء خالى . ثم أضافت اننى يجب ان أذكر انها كانت دائما خير صديقة لى ، ومن ثم فيجب ان أتحدث عنها بكل خير ، وان أبدى عرفانى لصنيعها

ـ وماذا قلت يا آنسة ؟

ـ لاشىء .. غطيت وجهى بغطاء السرير ، وأعرضت عنها مولية وجهى شطر الحائط !

ـ كان هذا التصرف خطأ منك يامس جين

ـ بل هو الصواب بعينه يابيسى ، فما كانت سيدتك بصديقة لى ، بل انها كانت عدوتى

ـ أواه ، يامس جين !.. لا تقولى هذا !

فصحت وقد اجتزنا البهو ووصلنا الى الباب الخارجى : « وداعا ياجيتسهيد ! »

وكان القمر قد غرب ، واشتد الظلام .. فحملت « بيسى » مصباحا ، وقع ضوؤه على درجات مبتلة ، وطريق مكسوة بحصباء اخضلت بمياه جليد حديث الذوبان . وكان الصباح الشتوى باردا ، لاذع الزمهرير ، فأخذت أسنانى تصطك وأنا أسرع فى الدرب الموصل الى السياج الخارجى . ولاح نور فى غرفة حارس الباب ، فلما بلغناها ، وجدنا زوجة البواب تشعل النار فى مدفأتها .. وكانت حقيبة ثيابى ـ التى نقلت الى هناك فى الليلة السالفة ـ جاثمة لدى الباب . ولم يكن قد بقى على الساعة السادسة سوى بضع دقائق . وبعد ان دقت الساعة بقليل انبعث من بعيد ضجيج عجلات ، مؤذنا بمقدم

العربة ٠٠ فسرت الى الباب ، وأخذت أرقب مصباحيها وهما يقتربان حثيثا خلال الظلام ٠وتساءلت زوجة البواب : «**أراحلة هى وحدها ؟** » ٠ **فأجابت بيسى : « أجل »**

ـ وما طول المسافة التى ستقطعها ؟

ـ خمسون ميلا

ـ يالها من مسافة طويلة ! الا تخشى مسز ريد من ان تدعها تقطع مثل هذه المسافة وحدها ؟

ووقفت العربة لدى الابواب الخارجية ، بجيادها الاربعة . وسطحها المحمل بالركاب ٠وصاح الحارس والحوذى يستحثاننا بصوت عال ، فنقلت حقيبتى بسرعة ، ثم انتزعت من أحضان « بيسى » التى كنت قد تعلقت بعنقها ورحت أقبلها ٠٠ وصاحت هى فى الحارس ، وهى ترفعنى الى جوف العربة : « اعتن بها وارعها جيدا » ٠٠وكان الجواب : « أجل ، أجل ! »، ثم أغلق الباب ، وصاح صوت : « هل كل شىء على مايرام ؟ »، وانطلقت بنا العربة !

وهكذا افترقت عن « بيسى » وعن (جيتسهيد) ٠٠ وهكذا طوح بى القدر الى المجهول ، والى ما خلته ـ اذ ذاك ـ المناطق النائية ٠٠ الغامضة !

★ ★ ★

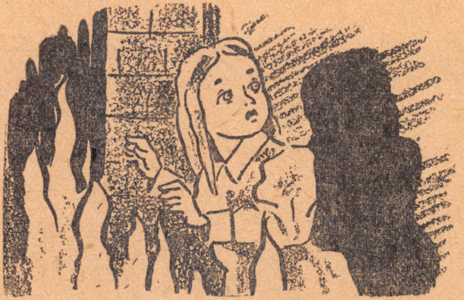
● **ولست** أذكر عن الرحلة الا القليل ٠ كل ما أدريه هو ان اليوم لاح لى طويلا ، طولا غير طبيعى ، واننا ـ فيما بدا ـ كنا نطوى مئات الاميال ، اذ مررنا بعدة مدن ، وقفت العربة فى احداها ، وكانت مدينة جد كبيرة ، ففكت الخيل عن العربة ، وهبط الركاب ليتناولوا الغداء ٠٠ وحملت أنا الى فندق صغير، حيث أرادنى الحارس على أن أتناول بعض الطعام ، فلما أبيت لاننى لم أكن أشعر برغبة فى الاكل ، تركنى فى غرفة رحبة ، فى كل من طرفيها مدفأة ، وقد تدلت من سقفها ثريا ، وثبت

الى جدارها ـ على ارتفاع ـ صوان أحمر حافل بالآلات الموسيقية. ورحت أطوف بالمكان فترة طويلة ، وأنا أشعر بوحشة ضافية، وبهاجس مستبد أوحى الى بأن ثمــة من كان يوشك ان يأتى فيختطفنى ، اذ كنت أؤمن بوجود المختطفين ، لان مغامراتهم كثيرا ماتخللت القصص التى كانت « بيسى » ترويها الى جوار المدفأة .. وعاد الحارس أخيرا ، فاذا بى أرفع مرة أخرى الى العربة . وصعد « حارسى » الى مقعده ، فنفخ فى بوقه المدوى، وانطلقت العربة تدرج على الطريق المرصوفة بالاحجار ،مغادرة مدينة (ل ...)

وأقبل الاصــيل مشــبعا بالرطوبة ، يشيع فيــه شىء من الضباب ، حتى اذا اقترب الغسق ، بدأت أحس بأننا أصبحنا حقا على بعد كبير من (جيتسنهيد) ، ولم نعد نمر بمدن ما . وتغير الاقليم ، فبرزت عند الافق تلال سمراء .. فلما اشتد الغسق ، هبطنا واديا معتمــا ، من تأثير غابة انتشرت فيه . وظللت فترة طويلة أسمع الرياح الهوجاء تندفع خلال الاشجار، بعد ان حجب الظلام الرؤية عن الابصار .. وما لبث الحفيف الرتيب أن أسلمنى فى النهاية الى النعاس

على انه لم يمض طويل وقت على نومي ، حتى أيقظنى وقوف العربة فجأة . وفتح الباب ، فاذا امرأة تقف لديه وعليها سيماء الخدم . ورأيت وجهها وثوبها على ضوء المصباحين ، بينمــا تساءلت هى : « هــل توجد هنــا صبية تدعى جين اير ؟ » . فأجبتها : « أجل » . وسرعــان ما حملت الى خارج العربة ، وأنزلوا حقيبتى ، ثم انطلقت العربة لتوها . وكانت أطرافى قد تيبست لطول الجلوس ، كما ان ضــجة العربة وحركتها شتتتا حواسى ، فرحت أستجمعها . وتلفت حولى ، فاذا المطر، والريح ، والظلمة تملأ الجو .. ولكنى تبينت ـ مــع ذلك ـ جدارا أمامى غير واضح المعالم ، وبابا مفتوحا فيه . وخلال هذا

الباب مررت مع مرشدتى الجديدة ، التى أغلقتــه وأحكمت رتاجه ·· وتجلى لى اذ ذاك بيت ، أو بيوت ـ اذ كان المبنى ممتدا لمسافة طويلة ـ ونوافذ كثيرة ، يتألق الضوء فى بعضـها · وسرنا فى درب مرصوف بحصباء ، كانت ميـاه المطر لاتزال تجرى عليها · ثم فتح لنا باب ولجناه ، وآذ ذاك قادتنى الخادم فى ردهة الى حجرة تتلظى النار فى مدفأتها ، وهناك خلفتنى وحيـدة ·· فوقفت أدفىء ـ على وهج النـار ـ أصابعى التى جمدها البرد ، ثم تلفت حولى فلم أر شمعة موقدة ، ومع ذلك



فقد كان الضوء غير المستقر ، المنبعث من المدفأة ، يكشف على التناوب عن جدران مكسوة بالورق ، وطنافس ، وسـتائر ، وقطع أثاث من خشب « المهوجانى » اللامـع · كانت الحجرة حجرة آستقبال ، لا تضارع ـ سواء من حيث درجة اتساعها ، أو فخامتها ـ حجرة الجلوس فى (جيتسهيد) ، ولكن بهـا قدرا كافيا من أسباب الراحة · وكنت أحاول جاهـدة ان أستبين معالم صورة على الحائط ، عندما فتح الباب ، ودخلت امرأة تحمل شمعة ، وفى عقبيها امرأة أخرى

وكانت أولاهما سيدة طويلة ، ذات شـعر فاحم ، وعينين سوداوين ، وجبين عريض ، شاحب · وكان خصرها ملتفا ـ من

جانب ـ بشال ،وقسماتها مهيبة ، وقوامها منتصبا ،مستقيما٠ وقالت وهى تضع شمعتها على منضدة : « ان الطفلة أصغر من ان ترسل وحيدة في رحلة طويلة كهذه ! » ٠ وتأملتنى باهتمام دقيقة وآ اثنتين ، ثم أضافت قائلة : « يحسن وضعها فى الفراش عاجلا ، فهى تبدو متعبة ٠٠ أتشعرين بتعب ؟ » ٠٠ فأجبتها : « بعض الشىء ياسيدتى ! »

ـ وما أراك الا جوعانة كذلك ، بلا شك ٠٠ لتتناول بعض العشاء قبل أن تأوى الى سريرها يا « مس ميلر » ٠٠ أهذهأول مرة تتركين فيها أبويك لتلتحقى بالمدرسة ياصغيرتى ؟

فأوضحت لها اننى بلا أبوين ٠٠ وسألتنى عن الوقت الذى انقضى منذ وفاتهما ، ثم عن عمرى ، وعن اسمى ، وعما اذا كنت أعرف القراءة ، والكتابة ٠٠ فأجبتها عن كل هذا ،وقلت اننى كنت أعرف أيضا بعض مبادىء الحياكة ، فمست خدى بسبابتها فى لطف ، وقالت انها ترجو ان أكون صبية طيبة ، ثم صرفتنى مع مس « ميلر »

★ ★ ★

• **ولابد** أن السيدة التى فارقتها كانت فى حوالى التاسعة والعشرين ، أما التى انصرفت معى فكانت تصغرها ببضع سنوات ٠ ولقد بهرتنى الاولى بصوتها ، ومظهرها ، والجو المحيط بها ٠ أما مس ميلر فكانت أقرب الى المرأة العادية ، وكانت بشرتها شديدة الاحمرار ، وان بدا الاسى على محياها٠ وكانت سريعة فى حركاتها وتصرفاتها ، شأن من أنيطت بها عدة أعمال ٠ وكانت تبدو ـ كما وجدتها فعلا فيما بعد ـ مساعدة مدرسة ٠٠ ومررت ، وهى تتقدمنى ، من قسم الى قسم ، ومن ردهة الى ردهة ، فى مبنى كبير غير منتظم ، حتى اذا نفذنا من ذلك الجزء الكئيب ، الصامت ، الذى اجتزناه من المبنى ، اقتربنا من همهمة أصوات عديدة ٠٠ ولم نلبث ان

ولجنا قاعة رحبة ، طويلة ، صفت فيها موائد كثيرة ، وفى كل من طرفى الغرفة كانت ثمة مائدتان تشتعل على كل منهما شمعتان .. وعلى مقاعد خشبية حول الموائد ، جلس جمع كبير من الفتيات من كافة الاعمار ، من التاسعة أو العاشرة حتى العشرين .. واذ رأيتهن على ضوء الشموع الخافت ، خلت ان عددهن يجل عن الحصر ، وان لم يكن - فى الواقع - قد تجاوز الثمانين فتاة ، وقد ارتدين زيا موحدا ، تألف من ثوب بنى اللون ، غريب الطراز ، ومرولة من قماش قطنى .. وكانت تلك ساعة الاستذكار ، وقد انهمكن فى أداء واجباتهن للغد ، وما كانت الهمهمة التى سمعتها سوى همساتهن وهن يكررن الدروس ليحفظنها عن ظهر قلب !

وأومأت لى مس « ميلر » كى أجلس على مقعد بقرب الباب ، ثم سارت الى رأس القاعة ، وصاحت : « على العريفات (رئيسات الطالبات) ان يجمعن الكتب ويبعدنها ! » .. فنهضت أربع فتيات طويلات ، عن أربع موائد متباعدة ، وطفن بالطالبات يجمعن الكتب ويقصينها . وعادت مس « ميلر » تصيح بصوتها الآمر : « لتذهب العريفات ويحضرن صحاف العشاء ! » . فغادرت الفتيات الطويلات القاعة ، وسرعان ما عدن وقد حملت كل منهن صحفة عليها شطائر لم أدر ما كان فيها ، وقد نسقت الشطائر على الصحفة يتوسطها دورق ماء وكوب .. ووزعت الشطائر على الفتيات ، وتناول من شئن منهن جرعات ماء من الكوب التى كانت مشاعا للجميع .. فلما حان دورى شربت ، لاننى كنت ظامئة ، ولكننى لم أمس الطعام ، اذ ان الانفعال والتعب جعلانى أصدف عن الاكل . وتبينت اذ ذاك ان الشطائر كانت عبارة عن فطيرة رفيعة من الشوفان ، قسمت الى أجزاء !

وما أن انتهى الاكل حتى أقيمت الصلاة ، وتولت مس «ميلر»

تلاوتها . ثم خرجت الفتيات مصطفات ، كل اثنتين معا ، وصعدن الى الطابق العلوى . وفى هذه المرة ، كان الارهاق قد غلبنى ، فلم أتبين من معالم المكان الذى أعد للنوم سوى انه كان كحجرة الاستذكار ، طويلا جدا . وكان لى ان أشارك مس « ميلر » سريرها فى تلك الليلة ، فساعدتنى على خلع ثيابى .. حتى اذا استلقيت على السرير ، ألقيت نظرة على صف الاسرة الطويل ، فاذا كل سرير قد شغل بسرعة بفتاتين . وبعد عشر دقائق ، أطفىء النور الوحيد فى المكان ، واستسلمت للنوم وسط السكون ، فى غمرة الظلام الدامس

* * *

. **وانقضى** الليل سريعا ، وكنت من التعب بحيث لم يواتنى أى حلم فى نومى . ولم استيقظ خلال الليل سوى مرة واحدة ، لاسمع الريح تهب فى عنف أهوج ، والمطر يهطل دافقا .. ولاشعر بمس « ميلر » وقد اتخذت مكانها الى جانبى . وعندما فتحت عينى مرة أخرى ، كان ثمة جرس يدق عاليا ، وقد نهضت الفتيات وارتدين ثيابهن .. ولم يكن ضوء النهار قد بزغ بعد ، بل كانت ثمة شمعة أو اثنتان من السمار المغموس فى الدهن ، تضيئان الغرفة . ونهضت ـ بدورى ـ كارهة ، فقد كان البرد قارسا ، فارتديت ثيابى بقدر ما سمح لى ارتعاشى ، وغسلت وجهى عندما خلا أحد الاحواض ـ وهو مالم يتحقق سريعا ، اذ لم يكن ثمة سوى حوض لكل ست فتيات ، وقد قامت هذه الاحواض على حوامل فى وسط الغرفة ـ ودق الجرس مرة ثانية ، فاصطفت الفتيات ، كل اثنتين متجاورتين ، وهبطن السلم على هذا النسق ، فدخلن غرفة الدرس الباردة ، الخافتة الضوء . وهناك ، تلت مس « ميلر » عليهن الصلاة ، ثم صاحت بعدها : « انتظمن فى فصول ! » .. **وأعقبت ذلك جلبة عالية لبضع دقائق ، كانت مس « ميلر » تصيح خلالها :**

« صمتا ! » .. « النظام ! » .. فلمـــا خفتت الجلبة ، رأيت الفتيات جميعا قد انتظمن فى أربع دوائر ناقصة ، أمام أربعة مقاعد وضعت أمام أربع مناضد .. وكن جميعا يمسكن بكتب فى أيديهن ، وقد استقر كتاب كبير كالتوراة على كل منضدة، أمام المقاعد الخالية .. وساد الصمت بضع ثوان ، لا تعتكره سوى همهمات ، فأخذت مس « ميلر » تتنقل من « فصل » الى آخر لتسكت صاحبات هذه الاصوات غير الجلية !

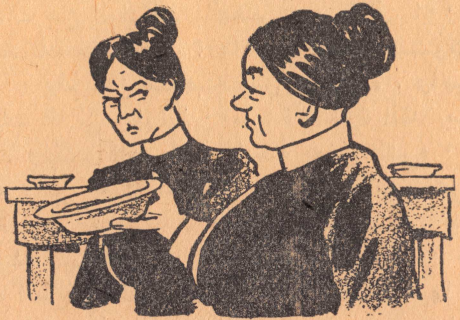
ورن جرس على مبعدة ، فدخلت الغرفة ثلاث سيدات على الفور ، سارت كل منهن الى منضدة ، وشغلت المقعد القـائم أمامها .. وجلست مس « ميلر » فى المقعد الخـالى الرابع ، وكان أقرب المقاعد الى الباب ، وقـد اجتمعت حوله أصـغر الفتيات سنا .. وبهذا الفصل الصغير التحقت أنا ، وأجلست فى نهايته .. وبدأ العمل المدرسى ، فألقت الفتيات ما وعينه من دروس اليوم السابق ، ثم تليت فصول من الانجيل وقرأت الفتيات ـ على التوالى ـ فصولا أخرى من التوراة ، مما استغرق ساعة من الزمن . واذ ذاك انتهت الفترة ، وكان ضوء النهار قد أشرق وفاض . ودق الجرس ـ الذى لم يكن يمل الرنين ـ للمرة الرابعة ، فسارت الفصول فى نظام الى حجرة أخـرى للافطار ، وشـد ما كان سرورى اذ سنحت الفرصة أخيرا لاصيب شيئا من الطعام !.. فلقد كانت امعائى فى تلك الاثناء تتلوى جوعا ، لاننى لم آكل فى اليوم السابق شيئا يذكر

* * *

• **وكان** المطعم فسيحا ، منخفض السقف ، معتما ، وقـد صفت على مائدتين طويلتين آنية حوت شيئا ساخنا كان البخار يتصاعد منه . وكم كان استـيائى اذ ألفيت أن عبيره لايثير الشهية . ولمحت استياء عاما عندما صافحت أبخرة الطعـام الخياشيم . ومن الصف المتتابع ، كانت الطويلات ـ طالبـات

الفصل الاول ـ هن البادئات بالهمس : « مقرف !٠٠ لقد حرقت العصيدة مرة أخرى ! » ٠٠ فانبعث صوت آمر : « صمتا ! » ٠٠ ولم تكن صاحبته مس « ميلر » ، وانما كانت احدى المدرسات اللائى يعلونها ٠٠سيدة صغيرة القد ،سمراء ، أنيقة الملبس ، ولكنها ذات طلعة عابسة بعض الشىء ٠ وكانت قد وقفت عند رأس احدى المائدتين ، بينما ترأست على المائدة الاخرى سيدة ذات صدر ناهد ٠ وعبثا بحثت عن تلك التى رأيتها فى الليلة السابقة ، اذ انها لم تبد للابصار ٠ وشغلت مس « ميلر » الطرف القصى للمائدة التى جلست اليها ، بينما شغلت الطرف القصى للمائدة الاخرى سيدة مسنة ، ذات مظهر أجنبى غريب ، أدركت فيما بعد انها مدرسة اللغة الفرنسية ٠ وتليت صلاة طويلة ، كما أنشدت احدى الترانيم ، ثم أحضرت خادم بعض الشاى للمدرسات ٠٠ وبدأ تناول الفطور

وتحت ضغط الجوع ، والضعف ، ازدردت ملء ملعقة أو اثنتين من نصيبى من العصيدة ٠ ولكن ، ما أن كسرت حدة الجوع ، حتى تبينت ان الطعام كان يثير الغثيان فى النفس ، فالعصيدة المحترقة (الشايطة) كالبطاطس العفنة ، لا يلبث الجوع نفسه ان يشمئز منها !٠٠ وكانت الملاعق تتحرك فى بطء ، ورأيت كل فتاة تتذوق طعامها ثم تحاول ان تبتلعه ، ولكن المحاولة كانت ـ فى معظم الاحوال ـ تنتهى الى عزوف٠ وانتهى وقت الافطار ، ولما تفطر واحدة !٠٠ وتلونا صلاة الشكر ـ عن شىء لم نحظ به ـ ثم أنشدت ترنيمة ثانية ، وأخلى المطعم بعد ذلك ، اذ عدنا الى حجرة الدرس ٠ وكنت من بين الاخيرات اللاتى غادرن المطعم ٠ وفيما كنت أجاوز المائدتين ، أبصرت باحدى المدرسات تتناول أحد أوعية العصيدة ، فتتذوق ماكان فيه ، ثم تنظر الى الاخريات ، فاذا الاستياء يبدو على أساريرهن ٠٠ وهمست احداهن ، وكانت



ذات الصدر الضخم : « شيء مقرف !٠٠ يا للخزى ! »

وانقضى قبل ان تبدأ الدروس من جديد ، ربع ساعة ، كانت حجرة الدرس فيه تعج بالصخب ، اذ لاح ان من المباح الكلام بصوت عال ، ودون قيود ، فى تلك الفترة ٠٠فاستغلت الفتيات هذه الاباحة !٠٠ وكان الحديث كله يدور حول الفطور الذى ذمته الفتيات ، فرادى وجماعات ٠ يا للمسكينات !٠٠ كان هذا كل ما يتاح لهن من عزاء ٠ وكانت مس « ميلر » هى المدرسة الوحيدة فى الفصل فى تلك الفترة ، فوقفت حولها الفتيات الكبيرات يتكلمن ويشرن فى غضب واستياء ٠وسمعت اسم مستر « بروكلهيرست » ينبعث من بين بعض الشفاه ، فهزت مس « ميلر » رأسها غير محبذة ، وان لم تبذل أى مجهود جدى فى كبح الاستياء العام ، اذ كانت — دون شك — تشاركهن اياه !٠٠ وما لبثت ان دقت ساعة فى حجرة الدرس معلنة التاسعة ، فغادرت مس « ميلر » الحلقة التى كانت تحيط بها ، ووقفت فى وسط الفصل صائحة : « صمتا !٠٠ الى أماكنكن ! »

وسيطر النظام ، فلم تنقض خمس دقائق حتى كان الحشد

المستاء قد استقر ، وساد صمت نسبى خفف من ثرثرة الالسن . وما لبثت المدرسات الكبيرات ان اتخذن مجالسهن ، ومع ذلك فقد ظل يبدو على الجميع طابع الانتظار . وجلست الفتيات الثمانون معتدلات ، دون حراك ، على المقاعد المرتبة فى جانبى الحجرة .. ما كان أغربهن من مجموعة !.. كلهن قد نسقن شعورهن على نسق خال من الزخرف ، وقد رفعنها عن جباههن ، فلم يفلتن خصلة واحدة .. وكلهن كن فى ثياب بنية اللون ، تصل الى أعلى رقابهن وتلتف حولها بياقة محكمة ، وقد ربطت فى صدور ثيابهن أكياس صغيرة جعلت لتكون بمثابة أكياس التطريز .. وكلهن أيضا كن يرتدين جوارب صوفية ، وأحذية صنعت فى الريف ، تزمها أقفال ـ «توكات» ـ نحاسية .. وكان من لابسات هذا الزى أكثر من عشرين فتاة ـ مكتملات النمو ، أو شابات ـ فكان الزى لايناسبهن ، بل يضفى منظرا عجيبا ، حتى على أجملهن !

★ ★ ★

• **وكنت** لا أزال أتأملهن ، وأنقل بصرى من آن لآخر الى المدرسات ، اللاتى لم ترق لى أى منهن ، اذ كانت البدينة منهن ـ ذات الصدر الضخم ـ فظة بعض الشىء ، ولم تكن الضئيلة القد على قدر بسيط من الشراسة . أما الاجنبية فكانت خشنة الطباع ، غريبة الاطوار .. وأما مس « ميلر » ، فيالها من مسكينة !.. كانت تبدو محتقنة اللون ، تعانى من الجو ، ومن كثرة العمل

كنت لا أزال فى تأملى هذا ، وعيناى تتنقلان من وجه الى آخر ، حين نهضت المدرسة كلها دفعة واحدة ، وكأنما حركها زر واحد .. ترى ما الذى جرى ؟.. اننى لم أسمع أمرا يصدر !.. وتولتنى الحيرة . وقبل ان أستجمع شتات ذهنى ، كانت الفصول قد جلست ثانية ، ولكن ، لما كانت كل العيون

متجهة نحو نقطة واحدة ، فقد اتخذت عيناى الاتجاه العام ، واذا بهما تلتقيان بالسيدة التى استقبلتنى ليلة أمس ٠ وكانت تقف فى نهاية القاعة الطويلة ، تتأمل صفى الفتيات فى صمت ووقار ٠ واقتربت منها مس « ميلر » ، وكأنما سألتها فى أمر ما ، فلما تلقت جوابها ، عادت الى مكانها وقالت بصوت مرتفع : « عريفة الفصل الاول ٠٠ احضرى الكرات الأرضية ! »

وبينما كانت العريفة تنفذ الامر ، أخذت السيدة صاحبة المشورة تذرع الحجرة فى تؤدة ، وأعتقد اننى أوتيت قدرا كبيرا من روح التقدير ، فما زلت أذكر الاعجاب الممزوج بالاحترام ، الذى راحت عيناى تتبعان به خطواتها ٠٠ واذ كنت أراها فى وضح النهار ، فى هذه المرة ، فقد تبينت انها كانت تبدو طويلة ، ناصعة البياض ، ممشوقة القوام ، ذات عينين عسليتين ينبعث من انسانيهما وميض ثاقب ، وتحيط بهما أهداب مرهفة ، طويلة ، منتظمة ، ويعلوهما جبين عريض ٠ وعلى فوديها كان شعرها البنى ، الشديد الدكنة ، يتهدل فى خصلات ملتفة كالحلقات ، وفقا للنسق الذى كان شائعا فى تلك الايام ، عندما كانت الاناث يعرضن عن الخصلات المسدلة ، وعن الحلقات الطويلة من الشعر ٠٠ كذلك كان ثوبها متسقا مع النمط الشائع اذ ذاك ، وكان من قماش قرمزى ، تخفف من استرساله حواف من المخمل الاسود ٠ وكانت تبرق عند خاصرتها ساعة ذهبية ـ ولم تكن الساعات اذ ذاك شائعة كما هى الآن ! ـ ولاستكمال الصورة ، ليضف القارىء الى هذا قسمات حادة ، دقيقة ، وبشرة شاحبة ولكنها صافية ، ومظهرا رصينا مهيبا ٠٠ فاذا جمع القارىء هذه الاوصاف ، تكونت لديه فكرة دقيقة ـ بقدر ماتملك الكلمات من ايضاح ـ لمظهر « مس تمبل » ٠٠ « ماريا تمبل » ، اذ رأيت اسمها الكامل فيما بعد مكتوبا على كتاب للصلوات عهدت الى بحمله

الى الكنيسة

* * *

• **واتخذت** « ناظرة » مدرســـة (لوود) ـ فهكذا كانت وظيفة السيدة ـ مجلسها أمام زوج من الكرات الارضيةوضعتا على احدى المناضد ، ثم دعت الفصل الاول ، فأحاطت بهـــا التلميذات ، وشرعت تلقى عليهن درسا فى الجغرافيـا ٠٠ أما الفصول الصغرى ، فتولتهن المدرسات ٠٠ ومضى « تسميع » التاريخ ، والنحو ، وغيرهما ، زهاء ساعة ٠٠ ثم أعقبت ذلك دروس فى الكتابة والحساب ، كما تولت مس « تمبل » تلقين بعض الفتيات الكبيرات دروسا فى الموسيقى ٠ وكانت مدةكل درس تحسب وفقا للساعة، التى ما لبثت ان دقت الثانيةعشرة فى النهاية ، فنهضت النـاظرة قائلة : « لدى كلمة أقولهـــا للتلميذات » ٠٠ وكان ضجيج توقف الدروس قـد ارتفـع ، ولكنه سرعان ما خفت عند سماع صوتها ، فاستطردت تقول : « لقد قدم اليكن فى هذا الصباح فطور لم تستطعن تناوله ، ولابد انكن جائعات ، لذلك أمرت بأن تقدم لكن جميعا وجبة من الجبن والخبز »

فالتفتت اليها المدرسات فى عجب ، فأضافت تشرح لهن : « سيكون ذلك على مسئوليتى » ٠ ثم بارحت الغرفة لتوها ٠ وسرعان ماجىء بالخبز والجبن ووزعا على التلميذات ،فتلقتهما المدرسة بأسرها فى ابتهاج وغبطة ٠ وما لبث ان انبعث الآمر: « الى الحديقة ! » ، فارتدت كل فتاة قبعة من القش الخشن ، ذات أشرطة من الخيش الملون ، ووشاحا من المخمـل الخفيف الرمادى اللون ٠ وجهزت أنا الاخرى بمثل هـذا الزى ، ثم اتخذت طريقى فى أعقاب الصف الى الهواء الطلق

وكانت الحديقة فسيحة ، تحيط بها أسوار عالية الى درجة تجعل أية نظرة مختلسة ضربا من المستحيل ٠ وكانت تمتـد

بطول أحد جوانبها شرفة مسقوفة • كما كانت ثمة ممرات عريضه تتوسط رقعة من الارض قسمت الى عشرات من الاحواض •• وكانت هذه الاحواض حدائق مخصصة للتلميذات كي يزرعنها ، لكل تلميذة حوض • ولا مراء في انها كانت تبدو بديعة اذا ما امتلأت بالزهور ، ولكنا كنا في أواخر يناير، فكان كل شيء ذابلا ، يابسا • وارتجفت اذ وقفت وتلفت حولي •• كان يوما زمهريرا لايليق للتمرين خارج الدور • صحيح انه لم يكن يوما ممطرآ ، ولكنه كان غائما اذ غشيته عاصفة جليدية صفراء ، وكان كل ماتحت الاقدام ينضح بالمياه المتخلفة من سيول اليوم السابق • وأخذت القويات من الفتيات يجرين ويقمن بمظاهر النشاط • أما الشاحبات ، والنحيفات ، فقد انكمشن معا لائذات بالشرفة ، يلتمسن الدفء •• وبين هؤلاء ، كثيرا ما سمعت صوت سعال أجوف كلما نفذ الضباب الكثيف خلال هياكلهن المرتجفة !

وكنت حتى الآن لم أتحدث الى واحدة ، ولابد ان منهن من كانت تحفل بوجودي ، فظللت وحيدة تقريبا ، ولكني كنت متعودة هذا الشعور بالعزلة ، فلم تكن وطأته على شديدة • **ومن ثم استندت الى أحد أعمدة الشرفة ، وشددت أطراف عباءتي الرمادية حولي ، وحاولت ان أنسى البرد الذي كان ينخر عظامي ، والجوع الذي لم يحظ باشباع ، والذي كان يقرص أمعائي ، وشغلت بالمشاهدة والتأمل • وكانت أفكاري غير محددة المعالم ، ولا يكاد يستحق التسجيل منها الا القليل •• كنت لا أكاد أعرف أين أصبحت ، فبدا لي ان (جيتسهيد) وحياتي الماضية كانتا تسبحان أمامي في الهواء ، على مسافة لا سبيل الى قياسها •• وكان الحاضر مبهما ، غريبا •• اما المستقبل ، فلم يكن بوسعي ان أتكهن به** • وأخذت أتلفت في الحديقة الشبيهة بالصومعة ، ثم رحت أتأمل الدار • كانت

مبنى كبيرا ، بدا نصفه مغبرا ، قديما ، بينمـــا كان النصف الآخر جديدا تماما . وكان هذا الشطر الجديد يضم قاعـــة الدرس ، وقاعة النوم ، وينفذ الضوء اليه خلال نوافذ تقسمها قضبان حديدية الى مربعات وأشباه مستطيلات منحرفة ، مما كان يطبع المبنى بطابع الكنائس . وكانت ثمة لوحة حجرية على الباب ، نقش عليها :

« معهد لوود . أنشأت هـــذا الجزء ، فى ســـنة (٠٠٠,١) ميلادية ، « ناعومى بروكلهيرسنت » ، سيدة قصر بروكلهيرست ، فى هذه المقاطعة » .. وتحت هذه العبارة الآية التـــالية من الانجيل (سفر القديس متى ، الاصحاح ١٦) : « دع نورك يشرق على الملأ كى يروا أعمالك الجليلة فيمجـــدوك ويمجدوا أباك الذى فى السماوات »

* * *

• **قرأت** هذه الكلمات مرارا وتكرارا ، فشعرت بأن وراءها معنى ، ولكننى لم أستطع ان أنفـــذ تماما الى ماكانت تكنه . وفيما كنت مستغرقة فى تأمل معنى العبارة الاولى ، أحاول ان أوفق الى رابطة بينها وبين الآية المقتبسة عن الانجيل ، حملنى صوت سعال جد قريب من ظهرى ، الى أن ألتفت ، فرأيت بنتا تجلس على مقعد حجرى قريب ، وكانت منحنية على كتاب ، بدا أنها كانت مهتمة بمطالعته . وكان بوسعى أن أرى عنوانه من موقفى : « راسيلاس » .. اسم لاح لى غريبا ، وبالتالى مشوقا . وفيما كانت تقلب احدى الصفحات ، تطلعت مصادفة ، فبادرتها قائلة : « هل كتابك مشوق ؟ » ... وكنت فى تلك الاثناء قد عقدت العزم على أن أسألها ان تعيرنى اياه يوما .. وأجابت بعد ثانية أو اثنتين كانت تتفحصنى خلالهما : « اننى أحبه » . فعدت أسألها : « وحول أى شىء يدور ؟ » .. ولا أكاد أدرى أين وجدت تلك الجسارة على فتح باب الحديث مع

فتاة غريبة .. كانت الخطوة مناقضة لطبيعتى وعادتى ،ولكنى أحسب ان ما كانت البنت تشغل به نفسها ، مس وترا حنونا فى مكآن ما من قلبى ، فقد كنت أنا الاخرى أحب القراءة ، وان كان حبى لها فجا ، صبيانيا ، اذ لم أكن أقوى على هضم أو فهم الكتب الجدية أو ذات الموضوع

وأجابت الفتاة وهى تقدمه لى : « تستطيعين ان تلقى عليه نظرة » . وفعلت .. ولكن فحصا سريعا أقنعنى بأن محتوياته كانت أقل اغراء من عنوانه : فقد بدا « راسيلاس » لذوقى التافه غثا ، اذ لم أر فيه شيئا عن حوريات الاساطير، أو الجن ، ولا شيئا من المتنوعات البهيجة فى صفحاته التى طبعت بحروف صغيرة وسطور متقاربة .. وأعدته الى الفتاة ، فتلقته فى سكون ، ودون أن تقول شيئا ، وهمت بأن تعود الى انهماكها السابق فى القراءة ، ولكنى تجاسرت مرة أخرى على ازعاجها، متسائلة : « **هل لك ان تخبرينى بما تعنيه الكتابة المنقوشة على ذلك الحجر الذى يعلو الباب ؟.. ماهو معهد لوود ؟** »

ـ هذه الدار التى جئت لتقيمى فيها

ـ **ولماذا يسمونها معهدا ؟.. هل تختلف عن المدارس الاخرى فى أية ناحية ؟**

ـ انها مدرسة خيرية الى حد ما . فأنت وأنا ، وكل الباقيات، نتمتع بالمبرات ، وأحسبك يتيمه .. ألم يمت أبوك أو أمك ؟

ـ **ماتا ، كلاهما ، قبل ان أعى شيئا**

ـ حسنا ، كل الفتيات هنا رزئن فى أحد الوالدين أو فيهما معا ، وهذه الدار تسمى معهدا لتعليم اليتيمات

ـ **ألسنا ندفع نقودا ؟.. هل يستبقوننا دون مقابل ؟**

ـ اننا ندفع ، أو يدفع أصدقاؤنا لنا ، خمسة عشر جنيها فى العام عن كل فتاة

ـ **اذن فلماذا يسموننا : أولاد المبرات ؟**

ـ لان خمسة عشر جنيها لاتكفى لاقامتنا وتعليمنا ، ومن ثم

فان الباقى يتوفر من التبرعات

– ومن الذى يتبرع ؟

– سيدات مختلفات ، وسادة من المناطق المجاورة ومن لندن، جبلوا على الخير

– ومن كانت « ناعومى بروكلهيرست » ؟

– السيدة التى أنشأت الشطر الجديد من هذه الدار – كما تذكر اللوحة – والتى يشرف ابنها ويدير كل شىء هنا

– لماذا ؟

– لانه أمين صندوق ومدير المؤسسة

– اذن فهذه الدار ليست ملكا للسيدة الطويلة ، التى تحمل ساعة ، والتى قالت انها أمرت لنا بجبن وخبز ؟

– مس « تمبل » !٠٠ آه ، لا !٠٠ ليتها !٠٠ انها مسئولة أمام مستر بروكلهيرست عن كل ماتفعل ، ومستر بروكلهيرست هو الذى يبتاع كل غذائنا ، وكل ثيابنا

– وهل هو يقيم هنا ؟

– لا ٠٠ بل على ميلين من هنا ، فى قصر كبير

– وهل هو رجل طيب ؟

– انه من رجال الكنيسة ، ويقال انه يقوم بكثير من أعمال الخير

– هل قلت ان تلك السيدة الطويلة تدعى مس « تمبل » ؟

– أجل

– وماذا تسمى المدرسات الاخريات ؟

– ذات الخدين الموردين تدعى مس « سميث » ، وهى تشرف على الحياكة وتقوم بالتفصيل ، لاننا نصنع ثيابنا ، وزينا المدرسى ، ومراولنا ، وكل شىء ٠٠ والضئيلة الجسم ، ذات الشعر الاسود هى مس « سكاتشيرد » ، وهى تلقى دروس التاريخ والنحو ،وتنصت لتلميذات الفصل الثانى عند «تسميع» الدروس ٠ أما التى ترتدى شالا ، وتحمل منديلا مربوطا الى

جانبها بشريط أصفر فهى مدام « بييرو » ٠٠ وهى من (ليل) بفرنسا ، وتدرس اللغة الفرنسيه

ـ هل تحبين المدرسات ؟

ـ الى درجه لابأس بها

ـ هل تحبين الصغيرة القد ، السمراء ٠٠ ومدام ٠٠ ؟ ٠٠ لست أستطيع أن أنطق باسمها كما تفعلين

ـ ان مس « سكاتشيرد » سريعة الغضب ، فيجب أن تحذرى من أن تغضبيها ٠٠ أما مدام « بييرو » فليست سيئة

ـ ولكن مس « تمبل » هى الاحسن ٠٠ أليست كذلك ؟

ـ أن مس « تمبل » طيبة جدا ، وماهرة جدا ٠٠ انها فوق الاخريات ، لانها أكثر منهن معرفة

ـ هل قضيت وقتا طويلا هنا ؟

ـ سنتين !

ـ وهل أنت يتيمه ؟

ـ لقد مانت أمى

ـ وهل انت سعيدة هنا ؟

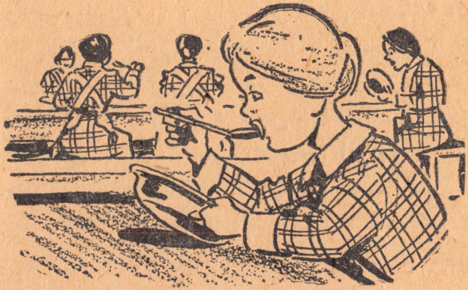
ـ انك تكثرين جدا من الاسئلة ! لقد أزجيت اليك اجابات تكفيك فى الوقت الحاضر ، أما الآن ، فأريد أن أقرأ

ولكن الدعوة للغداء آنطلقت فى تلك اللحظة ، فعادت الفتيات جميعا الى داخل الدار ، وكانت الرائحة التى ملأت جو المطعم اذ ذاك لاتكاد تكون أكثر اثارة للشهية من تلك التى انسابت الى خياشيمنا فى الافطار ٠ وقدم الغـــداء فى وعاءين هائلين من الصفيح ، انساب منهما بخار عارم مشبع بعبير الدهن المصهور ٠ وتبينت أن الوجبة كانت تتألف من بطاطس غير معنى بطهوها ، وشرائح غريبة المنظر من لحم معتم اللون ، وقد طبخـا معـا ٠ وقدمت لكل تلميذة من هـذا الطعام كمبة وفيرة ، فأكلت بقدر ما وسعنى ، وأنا أتساءل فى نفسى عما اذا كان طعام كل يوم على هذا الغرار !٠٠ وعدنا بعد الغداء مباشرة الى قاعة الدرس ،

فاستؤنفت الدروس ، واستمرت الى الساعة الخامسة ٠ وكان الحادث الوحيد الذى يستحق الذكر ـ فيما بعد الظهر ـ هو أننى رأيت الفتاة التى كنت قد تحدثت اليهـا فى الشرفـة ، تقصيها مس « سكاتشيرد » من درس التاريخ خزيانه ، وتأمرها بأن تقف فى وسط حجرة الدرس الواسعة ٠ ولاح لى العقاب مستهجنا الى درجة فظيعة ، لاسيما لفتاة كبيرة مثلها ـ اذ كانت تبدو فى الثالثة عشرة أو أكثر ـ وتوقعت أن تظهر الفتاة أسى بالغـا وخزيا ، ولكنهـا ـ لدهشتى ـ لم تبك ، ولم يتضرج وجهها ، بل وقفت متمالكة نفسها ، وان بدت عابسـة ، وهى محط للانظار ٠ وساءلت نفسى : « **كيف تحتمل الامر بهـذا الهدوء ٠٠ وهذه الرزانة ؟ ٠٠ لو أننى كنت فى مكانها لكنت ـ فيما أرى ـ أتمنى أن تنشق الارض وتبتلعنى !٠٠ انها تلوح كما لو كانت تفكر فى شىء غير عقابها ٠٠ غير موقفهـا ٠ ٠ فى شىء لايوجد حولها ، ولاأمامها ٠ لقد سمعت عن أحلام اليقظة ٠٠ أفتحلم هى فى يقظتها الآن ؟٠٠ ان نظراتها مثبتة الى الارض ، ولكنى متأكدة من انها لاتراها ٠٠ كأنمـا تحـول بصرها الى جوفها ، وغاص فى قلبها ٠٠ انها تتأمل مافى ذاكرتها ، وليس ماهو حاضر فعلا ، فيما أعتقد ٠٠ ترى أى نوع من البنات هى؟ ٠٠ أهى طيبة أم خبيثة ؟** »

وسرعان ماتناولنا وجبة اخرى بعد الساعة الخامسة مساء ، وكانت تتألف من ملء قدح صغير من القهوة ، ونصف شريحة من الخبز الاسمر، فالتهمت خبزى واحتسيت قهوتى فى تلذذ ٠٠ ولكنى كنت خليقة بأن ابتهج لو اننى حصلت على مزيد ، اذ كنت لا أزال جائعة !٠٠ وأعقبت الوجبة راحة لنصف ساعة ، ثم استذكار ، ثم كوب الماء ، وقطعة فطير الشوفان ، والصلاة فالفراش ٠٠

وهكذا انقضى أول أيامى فى (لوود) !



الفصل السادس

• **بدأ** اليوم التالى ، كسابقه ، بالنهوض ، وارتداء الثياب على ضوء الشموع · ولكننا أعفينا فى صباحه من اجراءات الاغتسال ، اذ كانت المياه متجمدة فى الاباريق ، من اثر انقلاب فى الطقس حدث فى الليلة السابقة ، فقد هبت ريح شمالية شرقية زمهرير ، مضت تصفر خلال ثغرات نوافذ قاعة النوم طيلة الليل ، فجعلتنا نرتعد فى أسرتنا ، وأحالت محتويات الجرار الى ثلج ·· وقبل أن تنقضى الساعة ونصف الساعة المخصصة للصلوات وقراءة التوراة ، شعرت بأننى أوشك أن أهلك من البرد · وأخيرا ، حانت ساعة الافطار ، ولم تكن العصيدة فى هذا الصباح محترقه ، بل كانت مستساغة ، وان كانت الكميه صغيرة ·· لكم بدا لى نصيبى ضئيلا ·· ولشد ما وددت لو انه تضاعف !

وسجل اسمى خلال النهار فى الفرقة الرابعة ، وأنيطت بى مهام وواجبات منتظمة ·· فقد كنت من قبل مجرد متفرجة على الاجراءات المتبعة فى (لوود) ، أما الآن فأصبح على أن أشترك فى العمل · وبدت لى الدروس طويلة وصعبة ، فى البداية ، اذ

لم أكن قد ألفت الاستذكار عن ظهر قلب ٠٠ كذلك أربكتنى كثرة التنقل من عمل الى عمل ٠ واغتبطت عندما وضعت مس « سميث » بين يدى - حوالى الساعة الثالثة من بعد الظهر - قطعة من القماش الحريرى طولها ياردتان ، مع ابرة ووقاء للاصبع « كستبان » ، وما اليهما ، ثم ارسلتنى لاجلس فى ركن هادىء من قاعة الدرس ، بعد أن كففت طرفا من القماش كى أعمل على نسقه ٠ وكانت معظم الاخريات ينصرفن الى الحياكة فى تلك الساعة ، بيد ان طالبات احدى الفرق ظللن وقوفا حول مس « سكاتشيرد » يطالعن ٠ ولما كان السكون شاملا ، فان موضوع درسهن كان مسموعا ، وكذلك طريقة كل فتاة فى القراءة ، وانتقادات مس « سكاتشيرد » أو نصائحها بصدد الالقاء ٠٠ وكان الدرس فى التاريخ الانجليزى ، ولاحظت بين القارئات الفتاة التى تعرفت اليها فى الشرفة ٠٠ وكان مكانها فى بداية الدرس فى مقدمة الفرقة ، ولكنها ما لبثت أن أرسلت الى آخر الصف ، لخطأ ارتكبته فى النطق ، أو لعدم انتباه الى مواضع الوقوف فى القراءة ٠ ولم يعفها هذا التأخير من أن تجعلها مس « سكاتشيرد » موضع تعليقات مستمرة ، فكانت لاتفتأ تخاطبها بعبارات كهذه : « **بيرنز** (ويبدو أن هذا كان اسمها ، فان البنات كن ينادين هنا بألقابهن ، كالاولاد فى كل مكان) ٠٠ **بيرنز ، انك تقفين على جانبى حذاءيك ، اعدلى كعبيك فى الحال** » ٠٠« **بيرنز ، انك تلوين ذقنك فى أبشع منظر ، فاعدليها !** » ٠٠ « **بيرنز ، اننى أصر على ان ترفعى رأسك ، ولن أقبل ان تقفى أمامى بهذا الوضع** » **الخ ، الخ !**

وقرأت الفتيات فصلا كاملا مرتين ، ثم أغلقن الكتب ، وبدأت المعلمة تختبرهن ٠ وكان الدرس ينطوى على جزء عن عهد الملك « تشارلس الاول » ، وكانت ثمة أسئلة شتى بصدد حمولات السفن بالاطنان ، وبالارطال ، وأسئلة أخرى عن الاجور ، فلاح

أن معظم الفتيات عاجزات عن الاجابة ، ولكن كل سؤال عويص كان ينهار اذا ما وصل الى « بيرنز » ، وكأنما استوعبت ذاكرتها مادة الدرس كله ، فكانت متأهبة للرد على كل نقطة ! .. **وظللت أتوقع أن تطرى مس « سكاتشيرد » انتباهها ، ولكنها بدلا من ذلك ، صاحت بغتة : « يالك من فتاة قذرة ، منفرة ! .. انك لم تنظفى أظافرك فى هذا الصباح ! » .. فلم تجب « بيرنز » .. وعجبت لصمتها ، فساءلت نفسى : « لماذا لاتوضح انها لم تكن تملك أن تنظف أظافرها ، أو تغسل وجهها ، لان الماء كان متجمدا ؟ »** .. واجتذب انتباهى صوت مس « سميث » ترغب فى أن أمسك حزمة من الخيط ، بينما انهمكت فى لفها ، وهى تكلمنى من آن لآخر ، متسائلة عما اذا كنت قد ذهبت الى مدرسة من قبل ، وعما اذا كنت أعرف غرز الرفو ، واللفق ، والحبك ، وما اليها . ولم استطع ان أتابع ملاحظتى لحركات مس « سكاتشيرد » ، الى أن صرفتنى مس « سميث » عن مساعدتها ، فلما عدت الى مقعدى ، كانت تلك السيدة تصدر أمرا لم أتبين موضوعه ، ولكن « بيرنز » غادرت غرفة الدرس فى الحال ، وذهبت الى الغرفة الداخلية الصغيرة التى كانت الكتب تحفظ فيها ، ثم عادت بعد نصف دقيقة تحمل حزمة من فروع الشجر مربوطة من أحد الاطراف ، وقدمت هذه الاداة الفظيعة الى مس « سكاتشيرد » فى احترام بالغ ، ثم فكت مرولتها فى صمت ودون أن تؤمر بذلك ، فبادرت المعلمة الى ضربها على عنقها بحزمة الفروع اثنتى عشرة ضربة قوية ، دون أن تقفز الى عينى « بيرنز » دمعة واحدة ! .. وبينما توقفت أنا عن الحياكة ــ لان أصابعى أخذت ترتعش تحت عاصفة من الغضب العاجز ، غير المجدى ، لهذا المنظر ــ لم تغير قسمة من قسمات وجه « بيرنز » وضعها العادى ، فصاحت مس سكاتشيرد : « يالك من جامدة عنيدة ! .. لاشىء يقوى على



تقويم عاداتك القذرة ٠٠ اذهبى بالعصا من هنا ! » ٠٠ واطاعت بيرنز ٠٠ وتفرست فيها وهى تغادر مخزن الكتب ، فاذا بها تدس منديلها فى جيبها ، وعلى خدها الناحل أثر لامع خلفته دمعة !

★ ★ ★

◆ **ووجدت** ان ساعة اللعب فى المساء هى أبهج فترات الفسحة فى (لوود) ، فى اليوم كله ، اذ تكون شريحة الخبز ، وقدح القهوة ـ اللذين نتناولهما فى الساعة الخامسة ـ قد انعشا نفوسنا ، ان لم يكونا قد أشبعا جوعنا ٠٠ كما يكون ارهاق النهار الطويل قد خف ، وغرفة الدرس أدفأ جوا منها فى النهار ، بعد اذ أتيح لنيران مدفأتها أن تتوهج بقدر أكثر ، حتى تعوض ـ الى حد ما ـ الحاجة الى الشموع التى لاتكون قد جلبت بعد الى القاعة ٠٠ فكانت الظلمة المشوبة بحمرة الوهج ، والصخب المباح ، واختلاط الاصوات العديدة ، يوحى للواحدة منا بشعور من التحرر مستحب !٠٠ وفى مساء اليوم الذى ضربت فيه مس سكاتشيرد تلميذتها « بيرنز » ، رحت أهيم كالعادة بين الفرق ، والمناضد ، والجماعات الضاحكة ، دون

ما رفيق، ودون شعور بالعزلة معذلك ! ٠٠فلما مررت بالنوافذ، رحت من آن الى آخر أرفع الستار الخشبى الذين (الحصيرة)، وأطل على الخارج ٠٠ وكان الصقيع يتساقط منهمرا ، وقد بدأ يتجمع خارج الالواح السفلى منزجاج النوافذ ، فكنت ألصق أذنى بالنوافذ ، وأميز خلال الصخب المشابه لهدير الموج عويل الريح الثكلى فى الخارج !

وربما كانت تلك هى الساعة التى كنت قمينة بأن أحس فيها بلوعة الفراق فى أشد استعارها ، إذ اننى اغتربت عن بيت طيب وأهل كرماء ! ٠٠فقد كانت تلك الريح عندئذ كفيلة بأن تحزن فؤادى ، وكانت تلك الظلمة المدلهمة خليقة بأن تعكر صفوى ٠ أما وتلك كانت حالى ، فقد استمددت من الريح والظلمة انفعالا غريبا ، مستهينا ، محموما ، فوددت لو ان الريح قست فى عوائها ، والظلمة تفاقمت ، والاضطراب استفحل الى هياج ! ٠٠ وشققت طريقى - قافزة فوق المقاعد ، زاحفة الى الموائد - الى احدى المدافىء ، وهناك وجدت « بيرنز » راكنة الى جوار حاجز عال من السلك ، مستغرقة فى صمت ، منصرفة عن كل ماحولها ، فى رفقة كتاب كانت تقرأه على وهج النار المعتم ، فسألتها وأنا اقترب من خلفها : « أهو راسيلاس فى هذه المرة أيضا ؟ » ٠٠ فقالت : « أجل ٠٠ لقد أوشكت أن أفرغ منه » ٠ وان هى الا خمس دقائق حتى أغلقته ، فسررت لذلك ، وقلت لنفسى : « لعلنى الآن مستطيعة أن أحملها على الكلام » ٠٠ وجلست على الارض بجانبها ، وسألتها : « ما اسمك الذى يسبق بيرنز ؟ » ، فأجابت : « هيلين »

- هل وفدت من مكان بعيد عن هنا ؟

- جئت من مكان بعيد شمالا ٠٠ على حدود اسكتلندا تقريبا

- وهل ستعودين اليه يوما ؟

- آمل ذلك ، ولكن أحدا لا يملك ان يطمئن للمستقبل

ـ لابد أنك تتمنين مفارقة (لوود) ؟

ـ لا ٠٠ ولماذا أتمنى ذلك ؟ ٠٠ لقد أوفدت الى (لوود) لاتعلم ، ولن يكون لرحيلى نفع ما لم أصب تلك الغايه

ـ ولكن تلك المعلمه ، مس سكاتشيرد ، جد قاسية عليك !

ـ قاسية ؟ ٠٠ أبدا !٠٠ انما هى صارمه ، تكره أخطائى

ـ أما أنا ، فلو كنت فى مكانك لكرهتها ، ولقاومتها اذا هى ضربتنى بتلك العصا حتى اخذها منها وأكسرها تحت بصرها :

ـ ما أراك تفعلين شيئا من هذا القبيل ٠ أما اذا فعلته ، فان مستر بروكلهيرست يفصلك من المدرسة ، وهذا ولا بد يحزن أقرباءك كثيرا ٠ ومن الخير ـ كل الخير ـ أن يحتمل المرء بصبر عقابا لن يحس به أحد سواه ، عن ان يرتكب تصرفا متهورا تمتد نتائجه السيئة الى كل من له بك علاقة ٠ وبجانب هذا فان التوراة تأمرنا بأن نرد السيئة بالحسنة !

ـ ولكن يلوح ، مع ذلك ، ان من المعيب ان يضرب المرء ، وان يؤمر بالوقوف فى وسط حجرة مليئة بالناس ٠٠ ثم انك فتاة كبيرة ، ومع اننى أصغرك بكثير ، الا اننى لا أطيق احتمال هذه المعاملة !

ـ ان احتمالها يغدو واجبا عليك ، اذا لم يكن فى وسعك تفاديها ٠ من الضعف والحماقة ان تقولى لى انك « لاتستطيعين احتمال » ماهو مقدور عليك أن تكونى مطالبة باحتماله !

وكنت أستمع اليها فى عجب ، وانا لا استطيع ادراك هذا المذهب الذى يدعو الى الاحتمال ٠٠ وكنت أقل فهما وتقديرا للتسامح الذى أفصحت عنه نحو معذبتها ٠ ومع ذلك فقد شعرت بأن « هيلين بيرنز » كانت تقدر الامور على ضوء لاتبصره عيناى ٠ وساورنى الشعور بأنها ربما كانت مصيبة وأنا المخطئة ، ولكننى لم أشأ أن أتعمق فى تأمل المسألة ، بل آثرت أن أدعها جانبا الى وقت مناسب ٠ وتساءلت : « تقولين أن لك أخطاء

ياهيلين ، فما هى ؟٠٠ انك تبدين لى طيبة جدا »

ـ اذن فتعلمى منى انه لاينبغى أن تحكمى بالمظاهر ٠ اننى ـ كما وصفتنى مس سكاتشيرد ـ أميل للقذارة ٠ ثم اننى نادرا ما أضع الاشياء فى مكانها أو احتفظ بها فى نظام ، فأنا مهملة ٠٠ وانا أنسى القواعد ، وأقرأ فى الوقت الذى ينبغى ان أستذكر فيه دروسى ٠٠ وليس لى أسلوب معين ، وأحيانا أقول ـ كما تقولين ـ اننى لا استطيع أن أكون مستعبدة لاجراءات منظمة ٠ وكل هذا يثير مس سكاتشيرد جدا ، فهى بطبعها نظيفة ، دقيقة ، ذات أسلوب معين محدد

فأضفت : « **وسريعة الغضب ، وقاسية** » ٠ ولكن هيلين بيرنز أبت أن تقر هذه الاضافة ، فظلت صامتة ٠ وعدت أسألها : « هل مس تمبل قاسية عليك مثل مس سكاتشيرد ؟ » ٠٠ وطافت بوجهها العابس ابتسامة ناعمة عند ذكر اسم « مس تمبل » ، وقالت : « ان مس تمبل مفعمة بالطيبة ، وانه ليؤلمها أن تقسو على أية واحدة ، ولو كانت أسوأ من فى المدرسة ! انها ترى اغلاطى ، وتبصرنى بها فى لطف ، واذا فعلت شيئا يستحق الاطراء ، فانها توفينى حقى دون احجام ٠ ومن أقوى الادلة على النقص المشين الذى جبلت عليه ان عتابها ـ على رقته ، وقوته المنطقية ـ لم يؤثر على الى الدرجة التى تبرئنى من اغلاطى ٠٠ بل ان اطراءها ، رغم اننى أعتز به الى أسمى درجة ، لايستطيع أن يحفزنى على العناية المستمرة وعلى بعد النظر ٠ فقلت : « **هذا عجيب ٠٠ ان الاعتناء أمر سهل** »

ـ لاشك عندى فى انه كذلك بالنسبة لك ، فقد لاحظتك فى فرقتك ، هذا الصباح ، ورأيت انك كنت شديدة الانتباه ، ولم يبد ان فكرك شرد اطلاقا بينما كانت مس ميلر تشرح الدرس ، وتسألكن ٠ أما عقلى ، فهو هائم دائما ٠ وعندماينبغى على أن أنصت الى مس سكاتشيرد وأن استوعب كل ماتقول فى

انتباه ، كثيرا ما أفقد حتى رنة صوتها ، وأستسلم لنوع من الحلم ، فأخال نفسى أحيانا فى (نورثمبرلاند) ، وانالاصوات التى أسمعها حولى هى خرير جدول صغيريجرى خلال (ديبدن) ، بالقرب من دارنا ٠٠ فاذا جاء دورىفىالرد على أسئلة المدرسة، اضطررت الى الاستيقاظ ، وبما اننى لا أكون قد سمعت شيئا مما قرىء ، لاصغائى لجدول الاحلام ، فاننى لا أجد جوابا حاضرا !

ـ ومع ذلك ، فقد كنت موفقة فى الاجابات بعد ظهر اليوم !

ـ هذه مجرد مصادفة ، فان الموضوع الذى كنا نطالعه راق لى ، وبدلاً من أنّ أحلم بديبدن ـ بعد ظهر اليوم ـ رحت أعجب وأتساءل ، كيف يقدر لرجل كان يبغى الخير ، أن يتصرف بغير عدل ولا حكمة ، كما كان الملك تشارلس الاول يفعل فى بعض الاحيان ! وخطر لى انه مما يرثى له ، انه برغم استقامته وتقوى ضميره ، لم يستطع أن يمد بصره الى أبعد من امتيازات التاج ٠ ليته تمكن من أن ينظر الى أبعد من ذلك قليلا ، فرأى كيف كانت تتجه روح العصر ، كما يسمونها ! ٠٠ على اننى ـ رغم ذلك ـ أحب تشارلس ، واحترمه ٠٠ اننى أرثى لذلك الملك المسكين القتيل ! ٠٠ أجل ، فان اعداءه كانوا أسوأ منه ، اذ أراقوا الدم الذى لايملكون حق اراقته ٠٠ كيف تجاسروا على قتله ؟

وكانت « هيلين » قد انقلبت تحدث نفسها ، ونسيت اننى كنت لا أفهمها جيدا ، واننى كنت جاهلة ـ أو مايقرب من ذلك ـ بالموضوع الذى كانت تتحدث عنه ٠ ورددتها الى مستواى ، اذ سألتها : « **وعندما تتولى مس تمبل التدريس لك ، هل تشرد أفكارك ؟** »

ـ لا ، بالتأكيد ٠٠ لا تشرد كثيرا ، لان مس تمبل أوتيت ـ بوجه عام ـ مادة جديدة ، أطرف من تأملاتى ٠٠ ولغتها تروق لى بدرجة فذة ، والمعرفة التى تلقيها هى فى الغالب

الشيء الذى أتوق الى تحصيله !

ـ اذن ، فأنت مع مس تمبل تلميذة طيبة ؟

ـ أجل ، بطريقة سلبية ، اذ اننى لا أبذل جهدا ، وانما أتبع ميلا يهدينى .. وليس لى أى فضل فى مثل هذه الطيبة !

ـ بل لك فضل كبير ، لانك تكونين طيبة مع الذين يبدون طيبة فى معاملتك . ان هذا كل ما أصبو اليـــه . أما لو ظل الناس مهذبين ومطيعين لاولئك القساة الظالمين ، لسدر اللئام فى غيهم ، ولما شعروا بخوف على الاطلاق ، ومن ثم لما تغيرت حالهم ، بل لازدادت سوءا !.. فنحن عندما نصفع دون مبرر، يجب ان نرد الصفعة بقسوة بالغة .. أجل ، انني واثقة من ان هذا واجب .. ولتكن الصفعة من القسوة بحيث تعلم من يصفعنا ان لايعود الى ذلك قط !

ـ لسوف تغيرين رأيك ، كما آمل ، عندما تكبرين .. أما الآن ، فأنت مجرد فتاة صغيرة ، غير متعلمة

ـ ولكن هذا شـــعورى ياهلين .. يجب ان أكره أولئك الذين يصرون على كراهيتى مهما أفعل لارضائهم !.. يجب ان أقاوم أولئك الذين يعاقبوننى ظلمـــا .. انه أمر طبيعى .. كذلك ينبغى ان أحب اولئك الذين يبدون نحوى عطفـــا ، وأتقبل العقاب عندما أشعر بأننى أستحقه !

ـ ان الوثنيين والقبائل الهمجية يؤمنون بهذا الرأى ، أما المسيحيون والامم المتمدينة ، فينكرونه

ـ وكيف ؟.. اننى لا أفهم لذلك سرا !

ـ ليس العنف خير ما يغلب الكراهية .. وليس الانتقــام خير ما يمحو الاساءة !

ـ فماذا اذن ؟

ـ اقرئى التوراة ، واعملى بما يقوله المسيح ، وانظرى كيف يتصرف .. اجعلى كلمته قاعدة لك ، ومسلكه مثالا تقتدين به

ـ وماذا يقول ؟

ـ أحب أعداءك ، وبارك من يلعنك ٠٠ افعل الخير لمن يكرهونك ويسيئون استغلالك

ـ اذن ، فعلى ان أحب « مسز ريد » ، وهو ما لا أستطيعه ٠٠ وعلى أن أبارك ابنها « جون » ، وهو أمر مستحيل !

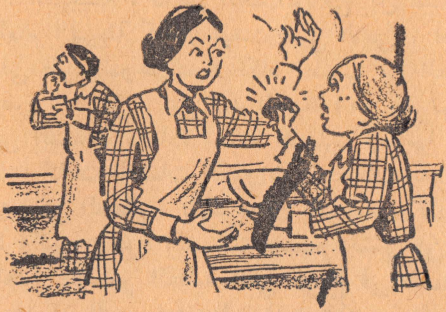
وسألتنى هيلين بيرنز ـ بدورها ـ عما أعنى ، فشرعت أفضفض لها بقصة آلامى وأحقادى ، كما كنت أراها ٠ واذ أثارتنى المرارة والشراسة ، رحت أتكلم بوحى من شعورى ، دون ما تحفظ أو تلطف ٠ وظلت هيلين تسمعنى صابرة ،حتى النهاية ٠ وتوقعت ان تعلق على ماقلت ، ولكنها لم تقل شيئا٠ فسألتها نافدة الصبر : « **حسنا ، أليست « مسز ريد » امرأة قاسية القلب ، سيئة ؟** »

ـ لقد كانت غير رحيمة بك ، دون شك ، لانها ـ كماترين ـ تكره النوع الذى فطر عليه خلقك ، كما تفعل مس سكاتشيرد بالنسبة لى ٠ ولكن ، ما أدق تذكرك لكل مافعلت أو قالت! ٠٠ وما أعجب وأعمق الاثر الذى خلفه ظلمها فى فؤادك ! ٠٠ لم تترك أية اساءة طابعا مثل هذا على مشاعرى ٠ الا تكونين أسعد حالا ، لو انك حاولت ان تنسى قسوتها ، والانفعالات المشبوبة التى تثيرها فى نفسك ؟ ٠٠ ان الحياة تبدو لى أقصر من ان تنفق فى تنمية البغضاء ، وتسجيل الاخطاء ٠ اننا مثقلون ـ ولابد من ان نكون مثقلين ـ بالاخطاء فى هذه الحياة الدنيا ، سواء كأفراد ، أو فى مجموعنا ، **ولكننا لن نلبث ـ فى وقت سيحين عما قريب ، فيما أعتقد ـ ان نتخلص من خطايانا اذا ما تخلصنا من أجسادنا المثقلة بالفساد ٠٠ سيهوى عنا كل درن وخطيئة ، مع هذا البدن المثقل ٠٠ ولن تبقى سوى جذوة الروح ـ الجوهر غير الملموس للحياة والفكر ـ نقية كما كانت حين غادرت الخالق لتنبث فى المخلوق ٠٠ ولسوف تعود من**

حيث أتت ، وربما أوفدت ثانية الى مخلوق أرقى من الانسان .. ربما انتقلت فى مراقى المجد ، من النفس البشرية الباهتة ، لتشرق فى ملاك ! .. ولكن ، هل من المؤكد انها لن تتعرض لعكس هذا ، فتنحط من الانسان الى الجن ؟ .. لا ، لايمكن ان أومن بهذا . انما أومن بعقيدة أخرى ، لم يعلمنيها أحد ، ونادرا ما أكشف عنها لاحد ، ولكنني أجد فيها غبطة ، وأتشبث بها ، لانها تبسط الامل للجميع .. فهى تجعل من الحياة الاخرى راحة .. مقر طمأنينة ، وليست موطن فزع ، أو هوة سحيقة .. ثم انني بهذه العقيدة أستطيع ان أميز بين المجرم وجريمته ، وفى وسعى ان أغفر للاول مخلصة ، بينما استنكر الاخرى .. **بهذه العقيدة لايمكن للانتقام ان يضنى فؤادى اطلاقا ، ولا يمكن للاهانة ان تثيرنى اثارة عميقة ، ولا يمكن للظلم ان يسحقنى أبدا .. وانما أعيش فى هدوء ، أرتقب النهاية »**

.. ومع ان رأس « هيلين » تنحنى دائما ، الا انها ازدادت انحناء على صدرها ، وهى تنهى جملتها . وأدركت من نظرتها أنها لم تعد راغبة فى الحديث معى ، وانما أصبحت تؤثر ان تتحدث مع أفكارها الخاصة . على انها لم تحظ بوقت كاف للتأمل ، اذ ما لبثت ان قدمت احدى « العريفات » ، وكانت فتاة كبيرة ، خشنة ، فصاحت فى لهجة أهل (كمبرلاند) القاسية : « اذا لم تذهبى ياهيلين بيرنز فترتبى درجك ، وتطوى شغل الابرة الخاص بك فى هذه الدقيقة ، فسأدعو « مس سكاتشيرد » لكى تلقى نظرة عليه ! »

وتنهدت هيلين اذ تبدد خيالها ، ونهضت منصاعة لرغبة العريفة دون ما جواب أو ارجاء



الفصل السابع

◆ **بدا** ربع العام الاول الذى قضيته فى (لوود) دهرا ، ولكنه لم يكن دهرا ذهبيا ، وانما اشتمل على كفاح مضن مع العقبات التى كانت تعترض ترويض نفسى على النظم الجديدة، والواجبات غير المألوفة . وكان خوف الفشل فى هذه الامور أقسى ايلاما لجسمي من المتاعب البدنية التى كان على ان أحتملها ، وان لم تكن بسيطة . وكان الجليد السميك يعوقنا عن ان نتحرك خطوة بعد أسوار الحديقة ـ اللهم الا الى الكنيسة ـ خلال يناير وفبراير وقسط من مارس .. وظللنا على هذه الحال ، حتى بعد ذوبان الجليد . ومع ذلك ، فقد كان علينا ان نقضى ساعة كل يوم فى الهواء الطلق، داخل هذه الحدود. وكانت ملابسنا لا تكفى لحمايتنا من البرد الزمهرير ، ولم تكن لدينا أحذية ذات رقاب ، فكان الثلج يدخل فى أحذيتنا العادية، ويذوب فيها .. وتجمدت أيدينا العارية وكساها «القشف» ، وكذلك أرجلنا . وانى لاذكر تماما الالم الذى كنت أعانيه فى كل ليلة من جراء هذه الحال ، عندما التهبت قدماى .. والعذاب الذى كان يتأتى من دس أصابع قدمى المتورمة ،

الخشنة ، المتيبسة ، داخل الحذاءين فى كل صباح ٠ ثم ان كمية الطعام الهزيلة كانت تبعث على الاسى ، اذ كنا - بنهم الاطفال فى طور نموهم - لا نكاد نصيب من الطعام مايكفى لبقاء مريض ، هزيل ، على قيد الحياة !٠٠ وترتبت على هذا النقص فى التغذية ، عادة سيئة اشتدت وطأتها على التلميذات الصغيرات : **كانت الفتيات الكبيرات الجائعات يحرمن الصغيرات من نصيبهن من الطعام ، بالاغراء أو بالوعيد ، كلما سنحت لهن الفرصة ! وكم من مرة اقتسمت مع اثنتين من المغتصبات شريحة الخبز الاسمر الغالية التى توزع فى الساعة الخامسة مساء ، وبعد ان أقسم محتويات قدح القهوة الى نصفين ، ثم أقسم النصف الذى يبقى لى الى نصفين آخرين ، كنت أزدرد مابقى لى مع الدموع المستترة ، التى ينتزعها الجوع من مقلتى!**

وكانت أيام الاحد أياما بغيضة فى ذلك الشتاء ، اذ كان علينا ان نسير مسافة ميلين الى كنيسة (بروكلبريدج) ،حيث يؤدى راعينا الطقوس الدينية ٠ وكنا نبدأ الرحلة ونحن نشعر بالبرد ، فنصل الى الكنيسة وقد اشتدت علينا وطأته ، ولا نلبث ان نصبح شبه مشلولات خلال قداس الصباح ٠ وكانت المسافة أبعد من ان نتمكن من قطعها والعودة الى المدرسة قبل موعد الغداء ، ومن ثم كانت توزع علينا بين الطقوس وجبة من اللحم البارد والخبز ، بنفس التقتير الذى كان يراعى فى وجباتنا العادية ! وكنا نعود - بعد قداس بعد الظهر - خلال طريق جبلية مكشوفة ، تهب عليها رياح الشتاء القارسة ، التى تطوف بسلسلة من القمم الجليدية فى اتجاهها نحو الشمال ، فتهدأ جلود وجوهنا ٠٠ وما زلت أذكر مس تمبل وهى تسير فى خطى خفيفة سريعة ، بجوار صفنا المتداعى ، ضامة حول جسمها عباءتها التى كانت الريح الجليدية تداعبها ٠٠ وقد مضت تشجعنا وتضرب لنا المثل عمليا ، حتى نحتفظ بروحنا

المعنوية ونسير قدما ، مثل « الجنود البواسل » ، كما كانت تقول ! أما المدرسات الاخريات ، فيالهن من مسكينات !٠٠ كن من التداعى والغم بحيث لايقوين على محاولة ادخال البهجة على الآخرين !

وشد ما كان تلهفنا الى ضوء النيران المستعرة وحرارتها عندما كنا نعود !٠٠ **ولكن هذا كان محرما على الصغيرات ، على الاقل ، اذ سرعان ما كانت كل مدفأة فى قاعة الدرس تحاط بصفين من البنات الكبيرات ، وقد انكمشت خلفهن الصغيرات وهن يجذبن أطراف مراولهن على أذرعهن العجفاء** ٠٠ وكنا نجد عزاء طفيفا فى موعد الشاى ، متمثلا فى نصيب مضاعف من الخبز ٠٠ شريحة كاملة بدلا من نصف شريحة ، وقد أضيفت اليها طبقة خفيفة ـ ولكنها لذيذة ـ من الزبد ٠٠ تلك كانت المنحة الاسبوعية التى نتطلع اليها من الاحد الى الاحد ٠٠ وكنت أجتهد عادة فى ان أحتفظ بنصف هذه الوجبة السخية لنفسى ٠٠ أما الباقى ، فكنت أضطر دائما الى التفريط فيه !٠٠ وكنا نقضى مساء الاحد فى «تسميع» دروس الدين والاصحاحات الخامس والسادس والسابع من انجيل « متى » عن ظهر قلب ، وفى الاصغاء الى ترنيمة طويلة تنشدها مس « ميلر » التى كان تثاؤبها الملحاح يشى بتعبها ٠٠ وكثيرا ماكان يضاف الى ذلك تمثيل جزء من « يوتيكس » ، تؤديه خمس أو ست من البنات الصغيرات ، اللاتى كن يسقطن ـ وقد غلبهن النعاس ـ من ثالث أو رابع طبقة من المقاعد المصفوفة بعضها فوق بعض ، فيحملن شبه أموات ٠٠ وكان العلاج يتمثل فى دفعهن الى وسط حجرة الدرس ، واجبارهن على ان يقفن هناك الى ان تنتهى الصلاة ! وكانت أقدامهن تخونهن أحيانا ، فيتهالكن على الارض ، واذ ذاك تخف العريفات الى استحثاثهن على النهوض !

★ ★ ★

● **ولم** أشر بعد الى زيارات مستر « بروكلهيرست » ؛ فالواقع ان هذا السيد كان بعيدا عن المنطقة خلال القسط الاكبر من الشهر الاول الذى أعقب وصولى ، ولعله كان يطيل اقامته متعمدا مع صديقه « الارشيدوق » . وكان غيابه مبعث راحه لى ، وما أرانى بحاجة الى أن أذكر أسباب اجفالى من مقدمه .. ولكنه قدم فى النهاية !.. فبعد ظهر ذات يوم – وكنت قد قضيت ثلاثة أسابيع في (لوود) – كنت أجلس وبين يدى لوح من الاردواز ، أعالج حلّ مسألة فى القسمة المطولة ، وفيما كنت أرفع رأسى ، آتجه بصرى فى شرود نحو النافذة ، واذا بى ألمح شخصا يمر . وعرفت – بالغريزة – صاحب ذلك القوام الطويل ، النحيل .. فلما وقفت المدرسة كلها – بمافى ذلك المدرسات – بعد دقيقتين ، لم يكن ثمة مايدعونى الى التطلع كى أستوثق من الشخص الذى نهضن تحية لمقدمه .. فقد طوت خطوة طويلة عرض حجرة الدرس ، وسرعان ما انتصب الى جوار مس تمبل – التى نهضت هى الاخرى – نفس «العمود الاسود » الذى أطل علـى فى نذير من فوق سجادة حجرة الافطار فى (جيتسهيد) !.. وأخذت أوجه نظرات مختلسة – من جوانب عينى – نحو هذا النصب !.. أجل ، كنت على حق، فقد كان الزائر هو مستر « بروكلهيرست » ، وقد غاب جسمه فى معطف ، وبدا أطول قامة ، وأقل عرضا ، وأصلب عودا من ذى قبل !

وكان لى من الاسباب مايبرر استيائى من هذه الزيارة ، اذ مازلت أذكر الملاحظات المفتراة التى صدرت عن مسز ريد ، حول مسلكى وخلقى ، الخ .. والوعد الذى قطعه مستر بروكلهيرست على نفسه بأن ينبه مس تمبل والمدرسات الى خبث طبيعتى !.. **وكنت طيلة الوقت أخشى تنفيذ هذا الوعد..**

كنت أرتقب فى كل يوم مجىء الرجل الذى كانت بياناته عن ماضى حياتى كفيلة بأن تصمنى الى الابد بأننى فتاة سيئة الخلق !٠٠ وها هو ذا قد جاء ، ووقف الى جوار مس تمبل ، وراح يتكلم فى أذنها بصوت خفيض ! ولم أرتب فى انه كان يفضى اليها بخبثى ٠٠ ورحت أرقب عينها فى قلق أليم ، متوقعة فى كل لحظة ان أرى انسانها الاسود يتجه نحوى فى نظرة مستهجنة ، مزدرية ٠ ورحت أنصت !٠٠ ولما كنت أجلس فى مقدمة الحجرة ، فقد التقطت معظم ما قاله ، فسرعان ماتبددت هواجسى ٠ اذ كان يقول : « أظن يامس تمبل ان الخيط الذى ابتعته من (لوتون) سيصلح ٠ فقد خطر لى إنه الصنف الذى يلائم الاقمصة الدمور ، كما عثرت على ابر مناسبة ٠ ولك أن تذكرى لمس سميث اننى نسيت ان أذكر ابر الرفو ، ولكنها لن تلبث ان تتسلم كمية فى الاسبوع القادم ، وليس لها أن تعطى كل تلميذة أكثر من ابرة واحدة ، فى أى وقت ، مهما يكن الداعى ، فهن اذا وجدن أكثر من ابرة ، ملن الى الاهمال ، وبددنها ٠ ثم ، آه ياسيدتى !٠٠ كنت أتمنى لو أن الجوارب الصوفية كانت أحسن منظرا !٠٠ فعندما كنت هنا آخر مرة ، ذهبت الى حديقة المطبخ ، وفحصت الملابس التى كانت منشورة على الحبل ٠ كانت ثمة كمية من الجوارب السوداء ، فى أشد الحاجة الى رتق ، وقد تأكدت من حجم الثغرات انها لم تكن ترتق جيداً بين آن وآخر » ٠٠ وأمسك عن الكلام ، فقالت مس تمبل : « سأعنى بتوجيهاتك ياسيدى » ٠٠ واستطرد قائلا : « ولقد أخبرتنى الغاسلة ياسيدتى ، ان بعض البنات يحصلن على ثوبين نظيفين فى الاسبوع الواحد ، وهذا كثير جدا ، اذ ان الاصول تحدد ذلك بثوب واحد ! »

ــ أظننى أستطيع ان أشرح لك ذلك الظرف ياسيدى ، فقد دعيت « آجنس » و « كاثرين » و « جونستون » لتناول الشاى

لدى بعض الصديقات فى (لوتون) فى يوم الخميس الماضى ، فسمحت لهن بأن يرتدين ثيابا نظيفة فى هذه المناسبة

فهز مستر بروكلهيرست رأسه ، وقال : « حسنا ، يمكن التجاوز مرة ، ولكنى أرجو ان لاتدعى الظروف تتكرر كثيرا • وهناك شىء آخر أدهشنى : لقد وجدت عند تسوية الحسابات مع مدبرة الدار ، ان وجبة من الخبز والجبن قدمت مرتين للبنات خلال الاسبوعين الماضيين • فكيف كان ذلك ؟•• اننى أرجع الى اللوائح ، فلا أجد ذكرا لمثل هذه الوجبة • من الذى أدخل هذا التجديد ، وبأى حق ؟ » • فأجابت مس تمبل : « أنا المسئولة عن هذا التصرف ياسيدى ، فقد كان الفطور سىء الطهو ، حتى ان التلميذات لم يستطعن تناوله ، ولم أقو على ان أدعهن يمكثن صائمات الى موعد الغداء ! »

ـ اسمحى لى بملاحظة ياسيدتى : **انك ولابد تدركين ان فكرتى فى تربية هؤلاء البنات تقوم على عدم تعويدهن عادات الترف والبذخ ، بل ترويضهن على الخشونة ، والصبر ، وانكار الذات** • فاذا حدث شىء تافه طارىء يذهب برغبتهن فى الاكل ـ كافساد الطعام ، أو التقتير أو الاسراف فى « تسبيك » صنف ـ فلا ينبغى ان يعالج الحادث بابدال الشىء المضيع بشىء مرفه ، والا أفسدنا الجسد ، وحدنا عن هدف هذا المعهد ! يجب ان يعمل على تحسين البنيان الروحى للتلميذات ، بتشجيعهن على ان يتذرعن بقوة النفس على تحمل الحرمان الموقوت • وان محاضرة موجزة فى أمثال هذه الظروف لن تكون فى غير وقتها المناسب ، **فان المربية العاقلة تنتهز الفرصة لتشير الى آلام المسيحيين الاوائل ، والى عذاب الشهداء ، والى نصائح السيد المسيح نفسه ، وهو يدعو رسله لان يحملوا صليبهم ويتبعوه •• والى قوله ان الانسان لن يعيش على الخبز وحده ، وانما على كل كلمة تنبعث من فم الله ،**

والى مواساته القدسية : « اذا عانيت الجـوع أو العطش من أجلى ، فما أسعدك » ‧‧ أواه ياسيدتى !‧‧ انك حين تضعين الخبز والجبن ، بدلا من العصيدة المحترقة ، فى أفواه هـؤلاء الاطفال ، انما تغذين فى الواقع أجسادهم الخسيسة ، ولكنك لا تفكرين كثيرا فى انك تجيعين نفوسهم الخالدة !

وصمت مستر بروكلهيرست مرة أخرى ، ولعله كان يقاوم مشاعره ‧ وكانت مس تمبـل قد غضت بصرها حين شرع يتحدث اليها ، ولكنها الآن أخذت تحدق فيما أمامهـا بنظرة ساكنة ، وقد بدا أن وجهها ـ الشاحب فى لون المرمر عادة ـ قد اتخذ من هذا الحجر بروده ، وجموده ‧‧ لاسيما فمها الذى انطبق فكأنما كان يحتاج الى ازميل نحات ليفتحه ، وجبينهـا الذى انعقد على عبوس قاس ‧‧ وكان مستر بروكلهيرست فى هذه الاثناء يتأمل المدرسة بأسرها فى جلال وعظمة ، وقدوقف عند المدفأة ويداه خلف ظهره ‧ وفجأة ، طرفت عينه ، وكأنها وقعت على شىء بهر مقلتها أو صدمها ، ثم التفت قائلا فى لهجة متسارعة أكثر من ذى قبـل : « مس تمبل ‧‧ مس تمبل ، ماهذه ‧‧ ماهذه الفتاة ذات الشعر المجعد ؟‧‧ شـعر احمر ياسيدتى ‧‧ ومجعد ‧‧ مجعد من أوله الى آخره ؟ » ‧‧ ومد عصاه مشيرا الى الشىء الذى أزعجه ، وقد أخذت يده ترتجف‧ فقالت مس تمبل فى هدوء : « انها جوليا سيفرن »

« جوليا سيفرن » ياسيدتى !‧‧ ولمـاذا يكـون لهـا أو لسواها شعر مجعد ؟‧‧ لماذا تساير الحياة الدنيا علنا بهـذا الشكل ، برغم كل مبدأ وخطة لهـذه الدار ـ وهى مؤسسة انجيلية ، خيرية ـ فتجعد شعرها من أوله الى آخره ؟

فقالت مس تمبل ، وهى أهـدأ من ذى قبل : « ان شعر جوليا مجعد بطبيعته ! » ‧‧ فهتف : « **بطبيعته !‧‧ ولكننـا يجب ألا نرضخ للطبيعـة ‧ اننى أرغب فى ان تكون هـؤلاء**

الفتيات متدينات ، فلماذا التساهل ؟٠٠ لقـــد نبهت مرارا وتكرارا الى انني أريد الشعر منسقا في استرسال ، وبساطة، وخلو من الزخرف ٠٠ يجب ان يقص شعر هــذه البنت عن آخره يامس تمبل ، وسأرسل غدا حـلاقا ٠٠ ثم انني أرى فتيات أخريات ذوات شعور نامية أكثر ممـا ينبغي ٠٠ قولى لهذه الفتاة الطويلة ان تعتدل ٠٠ قولى لـكل الفرقة الاولى ان تنهض فتولى وجوهها شطر الحائط ! »

ومرت مس تمبل بمنديلها على فمها وكأنها تمحو الابتسامة التى ارتسمت على الرغم منها عليه ، ثم أصدرت الامر ٠٠ فلما أدركت بنات الفرقة الاولى مايراد منهن ، أطعن ٠ واذ ملت قليلا الى الوراء ـ فى مجلسى ـ استطعت ان أرى الغمزات والابتسامات الساخرة التى عقبن بها على هـذا العمل ٠٠ ومن المؤسف ان مستر بروكلهيرست لم يكن يستطيع ان يرى ذلك ، هو الآخر، والا فلعله كان يدرك انه مهما يفعل بالمظهر الخـارجى للكوب والطبق ، فان الجوف بعيد عن متناوله بأكثر مما كان يخال ! ٠٠ وراح يتمعن فى ظهور تلك التمـاثيل الحية زهاء خمس دقائق ، ثم نطق بحكمه ٠ ووقعت كلماته كالصاعقة : « يجب ان تقص كل فتاة هذه الخصلات العليا » ٠٠ ولاح عـلى مس تمبل الانزعاج ، فقال : « **ان لى سيدا ياسـيدتى ، يجب ان أخدمه ، وليست مملكته فى هذه الدنيا ٠٠ ان رسالتي هي ان أقتل في هؤلاء الفتيات كل شهوات الجســد ، وان أعلمهن كيف يكسين أجسـادهن فى حشمة واعتـدال ، فـلا يظهرن بشعور منمقة ، وثياب فخمة ٠ ما من فتاة من هؤلاء الصغيرات الا ولديهـا خصلة من شعر مجعدة فى زينة ، ولعـل الغرور نفسه هو الذى عقصها !٠٠ انني أكرر ان كل هذا يجب ان يقص ٠٠ فكرى فى الوقت الذى تبدد فى ٠٠** » ٠ وقطع عليـه حديثه دخول ثلاث زائرات ، كان خليقا بهن ان يصلن قبـل

تلك اللحظة ، ليسمعن محاضرته عن المظهر ، اذ كن متسربلات بثياب فخمة من المخمل والحرير والفراء !٠٠ وكانت أصغر اثنتين من الثلاث ، وهما فتاتان رقيقتان فى السادسة عشرة والسابعة عشرة ، ترتديان قبعتين من الفراء الرمادى ـ كما كان الطراز الشائع اذ ذاك ـ وقد زانهما ريش الطاووس ٠ ومن تحت حواف هاتين القبعتين الانيقتين كانت تنسدل خصل من الشعر الخفيف ، مجعدة فى عناية بديعة ٠ أما السيدة الكبيرة، فكانت متشحة بشال مخملى ثمين ، زركشت أطرافه ، وقد ارتدت قلنسوة من شعر مستعار ، نسق على النمط الفرنسى !

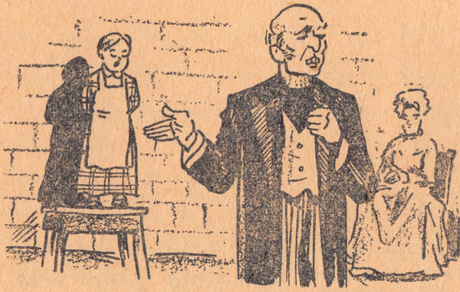
* * *

◆ **استقبلت** مس تمبل السيدات باحترام ـ بوصفهن مسز بروكلهيرست وابنتيها ـ ورافقتهن الى مقاعد الشرف فى صدر الحجرة ٠ وبدا أنهن جئن فى العربة مع قريبهن الموقر ،فاقتدن فى جولة لتفقد حجرات الطابق الثانى ، بينما كان هو يحاسب مدبرة الدار ، ويسأل الغاسلة ، ويلقى محاضرته على الناظرة٠ ولم يلبثن ان شرعن فى ابداء مختلف الملاحظات والانتقادات لمس « سميث » التى كانت موكلة بالعناية بالبياضات ، وبتفقد حجرات النوم ٠ ولكنى لم أجد وقتا للانصات الى ماكن يقلن، اذ أسرت انتباهى شؤون أخرى ٠ كنت أثناء التقاط حديث مستر بروكلهيرست ومس تمبل ـ من قبل ـ لم أغفل اتخاذ الحيطة لضمان سلامتى الشخصية ، التى خيل الى أنها تغدو معرضة للخطر اذا أنا استلفت الانتباه ! ومن أجل هذه الغاية انكمشت فى المقعد ، وبينما كنت أتظاهر بالانهماك فى مسألتى الحسابية ، أمسكت لوحى الاردوازى بطريقة تخفى وجهى ٠ **ولعلنى كنت أفلت من الانتباه ، لولا ان لوحى الغادر انزلق من يدى بطريقة ما ، فوقع محدثا جلبة اجتذبت الانظار نحوى مباشرة !٠٠ وأدركت ان كل شىء قد انتهى ، فانحنيت التقط**

حطام اللوح ، واستجمعت قواى لاسوأ ما يأتى به الظرف ٠٠ وسرعان ما أتى !٠٠ فقد قال مستر بروكلهيرست : « يالهامن بنت مهملة ! » ٠٠ ثم أردف فى الحال : « أرى انها التلميذة الجديدة » ٠٠ وقبل ان أتمالك نفسى ، قال : « يجب ألا أنسى ان لدى كلمة بشأنها » ٠٠ ثم استطرد بصوت أعلى - وأيما علو ! - « لتأت الطفلة التى كسرت اللوح الى هنا ! »

وما كنت لاقوى على الحراك من تلقاء نفسى ، إذ شل حراكى ، ولكن البنتين الكبيرتين ، اللتين كانتا تجلسان الى جانبى - من الناحيتين - أوقفتانى على ساقى ، ودفعتانى نحو القاضى الرهيب ٠ واذ ذاك ساعدتنى مس تمبل فى رفق لاقف أمامه ، وسمعتها تهمس مسرية عنى : « لا تخافى ياجين ، لقد رأيت ان الامر كان عفواً ٠٠ لن تعاقبى ! » ٠٠ وغاصت الهمسة اللطيفة فى قلبى كالخنجر !٠٠ وجال بخاطرى : « انها لن تلبث بعد دقيقة ان تحتقرنى كفتاة غشاشه ! » ٠٠ وانسابت فى عروقى نفثة من حقد نحو ريد ، وبروكلهيرست ، وشركائهما ، اذ ذاك ، فقلت لنفسى اننى لست على غرار « هيلين بيرنز » ٠٠ بينما قال مستر بروكلهيرست مشيرا الى مقعد مرتفع ، غير ذى ظهر أو مسندين ، نهضت عنه احدى العريفات : « أحضرن هذا المقعد » ٠٠ فجىء بالمقعد !٠٠ وقال : « أجلسن الطفلة عليه ! » ٠٠ فرفعت اليه ، وان لم أدر من التى رفعتنى ، فما كنت فى حال ألاحظ معها مثل هذه التفصيلات ، وغاية ما هنالك اننى أحسست بنفسى أرفع الى ارتفاع أنف مستر بروكلهيرست ، وأبصرت انه على قيد ياردة منى ، وان مساحة من أقمشة حريرية برتقالية وقرمزية انتشرت أمامى ، وغمامة من ريش فضى امتدت مرفرفة تحتى ٠٠ وقال مستر بروكلهيرست وهو يلتفت لاسرته : **« أيتها السيدات ، ويا مس تمبل ، وأيتها المدرسات والتلميذات ، هل تبصرن جميعا هذه البنت ؟ » ٠٠**

وكن يبصرنني بالطبع ، اذ كنت أشعر باعينهن موجهة نحوى، وكأنها عدسات حارقة تكوى جلدى !٠٠ واستطرد يقول : « انكن ترين انها لاتزال صغيرة ، وتلاحظن ان لها شكل الطفولة العادى ، اذ أنعم الله عليها بنفس الشكل الذى أضفاه علينا جميعا ، فليس هناك عيب واحد يميزها عنا بميزة ملحوظة ٠ فمنذا الذى يتصور ان الشر قد وجد فيها خادما ومعينا ؟٠٠ ومع ذلك ، فشد ما يحزنني ان أقول ان هذا هو الواقع ! »



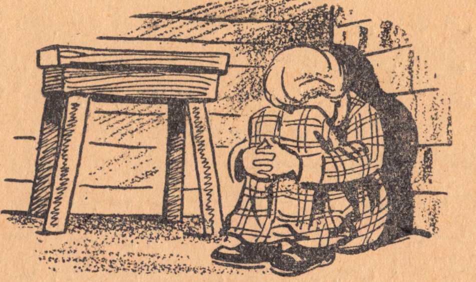
وسكت هنيهة ، رحت خلالها أتأمل نبض عروقى ، وأنا أشعر بأن الخطوة الحاسمة قد تمت ، وانه مادام لم يعد ثمة سبيل لتفادى المحاكمة ، فمن الواجب ان أصمد لها !٠٠ وعاد رجل الدين الرخامى الاسود ، يقول فى تحمس : « يا بناتى العزيزات ، ان هذه مناسبة محزنة ، مؤلمة ، اذ أصبح من واجبى ان أنذركن بأن هذه البنت ، التى كان من الممكن ان تكون واحدة من حملان الله ، ليست سوى مارقة صغيرة ٠٠ ليست من القطيع الالهى الحقيقى ، وانما هى فى الواقع دخيلة ، وأجنبية عنه ٠٠ فعليكن ان تحذرنها ، وان تعرضن عن مثلها، واذا دعت الضرورة ، فتحاشين صحبتها ، واقصينها عن

ألعابكن ، واحرمنها من أحاديثكن • وانتن أيتها المدرسات : يجب ان تراقبنها ، وان تجعلن أعينكن على حركاتها ، وأن تعنين بوزن كلماتها ، وان تفحصن بدقة تصرفاتها ، وان تعاقبن جسدها ، لانقاذ روحها •• اذا كان مثل هذا الانقاذ ممكنا حقا ، لان – وكم يتلعثم لسانى اذ أقولها – لان هذه البنت ، هذه الطفلة ، المواطنة فى أرض مسيحية ، أسوأ بكثير من أية كافرة صغيرة ترفع صلاتها الى « براهما » ، وتركع أمام «جودجرناوت» •• هذه البنت •• كذابة ! »

وأعقب ذلك صمت دام عشر دقائق ، رحت أتأمل خلالها – وقد استعدت كل حواسى – جميع اناث أسرة بروكلهيرست الموجودات ، وهن يخرجن مناديلهن الصغيرة ، فيرفعنها الى عيونهن ، وقد أخذت السيدة الكبيرة تهتز الى الامام والى الخلف ، والصغيرتان تتهامسان : « ما أغرب هذا ! » •• واستأنف مستر بروكلهيرست قائلا : « **هذا ماعلمته من ولية نعمتها •• من السيدة التقية ، البارة ، التى كفلتها فى تيتمها ، فربتها كابنتها •• والتى قابلت الفتاة التعسة كرمها وسخاءها بعقوق بلغ من السوء والبشاعة ان اضطرت ولية نعمتها النبيلة – فى آخر الامر – الى فصلها عن أبنائها ، خشية ان يلوث مسلكها الفاسد طهرهم ونقاءهم • ولقد أرسلتها الى هنا لتعالج ، تماما كما كان اليهود فى الماضى يرسلون الموبوئين الى بحيرة (بتيسدا) الجارية المياه •• وانى لارجوكن أيتها المدرسات ، وأيتها الناظرة ، ألا تسمحن للمياه بأن تركد حولها** » •• ومع هذه الخاتمة الرائعة ، أصلح مستر بروكلهيرست وضع الزر العلوى لمعطفه ، وغمغم بكلمات الى أسرته ، فنهضن وأومأن برؤوسهن تحية لمس تمبل ، ثم خرج علية القوم فى جلال من الغرفة • واذ بلغ « قاضى » الباب ، التفت قائلا : « اتركنها تقف نصف ساعة فوق ذلك المقعد ،

ولا تسمحن لاحد بأن يكلمها خلال مابقى من ساعات اليوم »

وهكذا أصبحت أقف عاليـــا ، أنا التى قلت من قبل اننى لا أقوى على أن أحتمل الوقوف العادى عــلى قدمى فى وسط الحجرة ٠٠ أصبحت عرضة لانظار الجميـــع ، على منصـــة الخزى !٠٠ أما كيف كانت مشاعرى ، فهذا ما لا قبل للغــة بوصفه ، ولكن ٠٠ بينما جاشت هذه المشـــاعر تخنق أنفاسى وتسد حلقى ، أقبلت فتـــاة فمرت بى ، ورفعت فى مرورها عينيها ، فما كان أغرب الضوء الذى أومض فيهمـــا !٠٠ وأى شعور خارق بعثه فى أعماقى هذا الوميض !٠٠ لـــكم رفعنى هذا الشعور الجديد عاليا !٠٠ كأنما مر شهيد ، بطل ، بعبد مستضعف أو ضحية ، فبث فيه قوة وجلدا ٠٠ واذا بى أتغلب على الانفعال الجنونى ، فأرفع رأسى ، واعتدل فى وقفتى عــلى المقعد ٠ واذ وجهت « هيلين بيرنز » سؤالا تافها عن شـــغل الابرة الى مس « سميث » ـ كحجة لمغـــادرة مقعدها والمرور بموقفى ـ تلقت تأنيبا على تفاهة السؤال ، فعادت الى مكانها ، وابتسمت لى فى عودتها ٠٠ **وأى ابتســـامة !٠٠ اننى مازلت أذكرها ، وانى لادرك أنها كانت فيض ادراك مرهف ،وشجاعة صادقة ٠٠ كانت ابتسامة أضاءت ملامحها الدقيقة ، ووجههـــا الناحل ، وعينيها المغبرتين الغائرتين ، وكأنهـــا انعكاس أنوار أحد الملائكة !** ٠٠ ومع ذلك ، فقد كانت هيلين بيرنز تحمـــل فى ذلك الوقت شريطا حول ذراعها ، يصمها بأنها مهملة ٠٠ولم تكن قد مضت ساعة على سماعى مس سكاتشيرد تقضى عليها بأن يكون غداءها فى الغد خبزا وماء ، لانها أسقطت المداد على الكراسة وهي تنقل أحد الدروس ٠ هكذا هى طبيعة البشر ٠٠ طبيعة ناقصة !٠٠ **ان مثل هذه العيوب التافهة لاشبه بالبقع التى ترى على وجه أنصع الكواكب صفاء ٠٠ ولكن عينين كعينى مس سكاتشيرد ، لا تريان سوى تلك العيوب البسيطة عــلى وجه الكوكب ، وتعميان عن تألقه الكامل !**



الفصل الثامن

• **ما ان** انتهى نصف الساعة ، حتى دقت الساعة معلنة الخامسة ، فانصرفت المدرسة ، وذهب الجميع الى المطعم لتناول الخبز والقهوة • وجسرت اذ ذاك على الهبوط عن المقعد ، وكانت العتمة تشتد ، فأويت الى ركن ، وجلست على الارض •• كانت نوبة الشجاعة التى لازمتنى حتى ذلك الوقت قد بدأت تنصهر وتذوب ، فحل محلها رد الفعل ، وسرعان مادفعنى الاسى الجائح الذى استبد بى ، الى أن انكفىء على الارض •• ورحت أبكى !•• ولم تكن هيلين بيرنز موجودة ، فلم يكن ثمة مايكبحنى عن البكاء ، فأسلمت نفسى له ، وراحت دموعى تروى أخشاب الارض • لقد كنت أعتزم ان أكون صالحة ، طيبة ، وأن أعوض فى (لوود) الكثير مما فاتنى ، فأتخذ كثيرا من الصديقات ، وأظفر بالاحترام ، وأكسب العطف • ولقد أحرزت بالفعل تقدما ملحوظا فى هذا الصدد ، واستطعت فى صباح هذا اليوم بالذات ان أغدو على رأس فرقتى ، فأطرتنى مس ميلر بحرارة ، وابتسمت مس تمبل مكافأة لى ووعدت بأن تعلمنى الرسم ، وان تسمح لى بتعلم اللغة الفرنسية ، اذا ظللت أحرز مثل ذلك التقدم لمدة شهرين •• واذ ذاك ، أحسنت

زميلاتى استقبالى ، فعاملتنى قريناتى فى السن معاملة الند للند ، ولم تتحرش بى أية فتـــاة ٠ **أما الآن ، فها أنذا ارتمى مرة أخرى ، مهانة ، محطمة ، أفأملك ان أنهض مرة أخرى ؟٠٠ وهمس خاطر فى نفسى : « أبدا ! » ٠٠ وودت مخلصـــة لو اننى مت ٠ وفيما كنت أهتف بهذه الرغبة باكية ، بصـوت متهدج ، اقترب منى شخص ما ، فأجفلت ٠٠ ومرة أخـرى ، وجدت « هيلين بيرنز » قريبة منى** ٠٠ وكشفتها النار المحتضرة فى المدفأة وهى تقترب خلال الغرفة الخالية ، وقد حملت الى قهوتى وخبزى ٠ وقالت : « هيا ، كلى ! » ٠٠ ولكننى أقصيتهما معا عنى ، وأنا أشعر بأن قطعة واحدة من فتات الخبز كفيلة بأن تخنقنى فى حالى تلك ٠ وتأملتنى هيلين ، ولعلها كانت فى عجب من أمرى ٠٠ ولم أعد أتمالك انفعالى ، رغم اننى حاولت جاهدة ، فواصلت البكاء مجهشة ٠ وجلست هى على الارض بجوارى ، محتضنة ركبتيها بذراعيها ، مسندة رأسها اليهما ٠٠ وظلت على هذا الوضع صامتة ، كهندية مستغرقة فى التأمل !

وكنت البادئة بالكلام ، فقلت : « **لماذا تمكثين ياهيلين مـع فتاة يعتقد كل امرىء انها كذابة ؟** »

ـ كل امرىء ياجين ؟٠٠ كيف ، وليس هناك سوى ثمانين شخصا سمعوا هذا الوصف يطلق عليك ٠٠ فى حين ان الدنيا تسع مئات الملايين ؟

ـ وما شأنى بالملايين ؟٠٠ ان الثمانين اللائى أعـرفهن يحتقرننى !

ـ انت مخطئة ياجين ٠٠ بل من المحتمـل ان ليس فى المدرسة واحـدة تزدريك أو تكرهك ٠٠ اننى واثقـة من ان كثيرات يرثين لك كثيرا

ـ وكيف يرثين لى بعد الذى قاله مستر بروكلهيرست ؟

ـ ان مستر بروكلهيرست ليس الها ، بل انه ليس رجلا

عظيما ، موضع اعجاب وفخر ٠٠ انه لايحظى بكثير حب هنا ، فهو لا يتخذ قط أية خطوات تحببه الينا ٠ ولو إنه عاملك فى ايثار خاص ، لوجدت عداء سافرا أو مستترا يحيط بك من كل جانب ٠٠ أما وهذه هى الحال ، فان أكثرهن لن يحجمن عن ابداء العطف لك ، اذا استطعن ٠٠ لقد ترمقك المدرسات والتلميذات فى فتور ليوم أو اثنين ، ولكن فى قلوبهن ود مستتر ، ولو انك واظبت على التحسن ، فان هذه العواطف لن تلبث حتى تظهر ، وستكون أكثر جلاء بقدر ماهى مكبوتة فى الوقت الحاضر ٠ وبجانب هذا يا « جين » ٠٠٠

وأمسكت ، فوضعت يدى فى يدها ، متسائلة : « ماذا ياهيلين ؟ » ٠٠ فأخذت تدلك أصابعى فى رفق لتدفئها ، ثم قالت : « مهما كرهتك الدنيا بأسرها ، واعتقدت انك خبيثة ، فلن تعدمى الاصدقاء طالما كان ضميرك يقر مسلكك ، ويعفيك من الذنب ! »

ـ لا ٠٠ انني اوقن من انني أحسن الظن بنفسي ، ولكن هذا لايكفي ، فانني أوثر الموت على الحياة اذا لم يحبني الآخرون ٠٠ انني لا أطيق ان أكون وحيدة ، ومكروهة ، ياهيلين ٠٠ أنظرى الى ، اننى ـ حرصا منى على الفوز ببعض الحب الحقيقى منك ، أو من مس تمبل ، أو من أى شخص آخر ممن احبهم حقا ـ أتقبل راضية ان يكسر عظم ذراعى ، أو ان أدع ثورا ينطحني ، أو أن أقف خلف حصان جموح يركل ، وأتركه يدفع حافره فى صدرى !

ـ صه ياجين ! ٠٠ انك تبالين بحب البشر أكثر مما ينبغى ! ٠٠ انك مندفعة فى عواطفك وتحمسك كثيرا ٠٠ ان اليد العليا ، التى خلقت هيكلك ، وأودعته الحياة ، قد أمدتك بموارد أخرى غير نفسك الضعيفة ، وغير المخلوقات الضعيفة مثلك ٠٠ ان هناك ـ الى جانب هذه الارض ، والى جانب الجنس

الانسانى ـ دنيا أخرى غير منظورة ، ومملكة للارواح ٠٠وهذه الدنيا تحيط بنا ، لانها فى كل مكان ٠٠وتلك الارواح ترقبنا، لانها موكلة بحراستنا ، فاذا كنا نموت من الالم والخزى ،واذا كان الازدراء يصفعنا على كل جانب ، والحقد يسحقنا ، فان الملائكة تشهد عذابنا ، وتدرك براءتنا ، آذا كنا أبرياء ، وانى لاعرف انك براء من ذلك الاتهام الذى ردده مستربروكلهيرست ـ فى ضعف وزهو ـ نقــلا عن مسز ريد ، اذ اننى أرى فى عينيك المتألقتين ، وعلى جبينك الناصع ، طبيعة مخلصة وفطرة صادقة ٠٠ ولا ينتظر الله الا انفصال الروح عن البدن ، لكى يتوجنا بالجزاء الكامل ٠٠ فلماذا ، اذن ، ننهــار تحت وطأة الاسى ، اذا كانت الحياة لا تلبث سراعا ان تنقضى ، واذا كان الموت مدخلا أكيدا الى السعادة ٠٠ الى المجد ؟

★ ★ ★

◆ **وكنت** صامتة ، فقد هدأت هيلين نفسى ، غير ان نوعا من الاسى الذى لايوصف ، كان يرين على الطمأنينة التى بسطتها ٠ وكنت أحس بالهم خلال كلامها ، ولكنى لم أك أدرى مأتاه ٠٠ فلما فرغت من حديثها ، تسارعت أنفاسها قليلا ، ثم أرسلت سعالا قصيرا ، فنسيت فى تلك اللحظة همومى ، لاستغرق فى قلق مبهم من أجلها ٠ وأسندت رأسى الى كتف هيلين ،وأحطت وسطها بذراعى ، وجذبتها الى ٠٠ ولم يطل جلوسنا كذلك ،اذ لم يلبث ان أقبل شخص آخر ٠٠ وكانت بعض السحب المثقلة قد انقشعت عن السماء تحت دفع الريح التى هبت اذ ذاك ، فكشفت وجه القمر ، واذا ضوؤه ينساب خلال نافذة قريبة ، ويشع علينا معا ، وعلى الشبح الذى كان يقترب ، فعرفنا فيه على الفور مس تمبل ٠ وقالت : « جئت أبحث عنك خصيصا ياجين اير ٠٠ اننى أريدك فى غرفتى ، وما دامت هيلين بيرنز معك ، فلها آن تأتى هى الاخرى »

وذهبنا ، فى اثر النـــاظرة ، مجتـــازات بعض الردهات المتشابكة ، ثم صعدنا سلما ، قبل ان نصــل الى الحجرة ٠ وكانت تضم ناراً مستعرة فى المدفأة ، تلوح بهيجــة للعين ٠ وطلبت مس تمبل من هيلين بيرنز ان تجلس فى مقعد منخفض ذى ذراعين ، الى أحد جانبى المدفأة ، ثم اتخذت لنفسها مقعدا آخر ، وسألتنى ان أقف الى جوارها ، ثم سألتنى وهى تتأمل وجهى : « هل انتهت الفورة ؟ ٠٠ هـــل سكبت حزنك فى الدموع ؟ »

ـ أخشى ان لا يقدر لى ذلك أبدا

ـ ولمـاذا ؟

ـ لاننى اتهمت ظلما ، وانت ياسـيدتى وكل امرىء آخر يظنننى الآن خبيثة

ـ لن نظن بك الا ماتبينينه بنفسك عن نفسك ياطفلتى ٠٠ استمرى فى التصرف كبنت صالحة ، وبهذا ترضيننا

ـ أحقا يامس تمبل ؟

فقالت وهى تحيطنى بذراعها : « لسوف توفقين ٠٠ والآن ، اخبرينى : من هى الســيدة التى دعاها مستر بروكلهيرست ولية نعمتك ؟ » ٠٠ فقلت : « **مسز ريد ، زوجة خالى ٠ لقـد مات خالى وتركنى لرعايتها** »

ـ اذن فهى لم تكفلك من تلقاء نفسها ؟

ـ لا ياسيدتى ، بل انها كانت آسفة لان تفعل ذلك ،ولكن خالى ـ كما سمعت الخدم يقولون كثيرا ـ حملها على انتقسم له قبل وفاته ، بأن تكفلنى دائما

ـ حسنا ياجين ، انك لتعرفين ، أو بالاحرى لسوف اخبرك، انه عندما يتهم مجرم بذنب ، فانه يحظى دائما بحق الـكلام للدفاع عن نفسه ٠ ولقد اتهمت بالكذب ، فدافعى عن نفسك أمامى بقدر مايسعك الدفاع ٠٠ قولى كل ماتوحى اليك ذاكرتك

بأنه حقيقة ، ولكن لا تضيفى من عندك شـيئا ، ولا تبالغى فى شىء

وعزمت ـ فى قرارة نفسى ـ ان أكون معتدلة ، وصادقة ما استطعت ، وبعد ان فكرت لبضع دقائق ، لكى أرتب ما كان لدى من قول ، رويت لها كل قصة طفولتى الحزينة ٠ وكانت لهجتى ـ وقد أرهقنى الانفعال ـ أقل استعارا مما يحدث عادة كلما شرعت فى سرد هذه القصة الحزينة ٠ وحشوت القصة بأقل مما اعتدت من مظاهر السخط والكراهية ، وأنا مليئة الذهن بتحذيرات هيلين لى عن الاستسلام للبغضاء ، فجاءت قصتى فى مظهرها المبسط أقرب الى العقل والاقناع ، وشعرت وأنا أمضى فيها ان مس تمبل كانت تصدقنى كل التصديق ٠٠ وكنت فى سياق القصة قد ذكرت مستر « لويد » وكيف جاء يعودنى بعد النوبة ، لاننى لم أنس اطلاقا الفترة الرهيبة ـ كما كنت أراها ـ التى قضيتها فى الغرفة الحمراء ، حتى اننى اذ رحت أرويها ، شعرت بأن انفعالى يوشك ان يحطم الحدود ـ التى تقيدت بها ـ الى حد ما ٠ فليس ثمة شىء يقوى على تخفيف وطأة العذاب الذى اعتصر قلبى عندما تجاهلت مسز « ريد » توسلاتى المذعورة اليها بالصفح ، وحبستنى مرة ثانية فى الحجرة المظلمة ، المخيفة !٠٠ **واذ انتهيت ، تأملتنى مس تمبل فى صمت لبضع دقائق ، ثم قالت : « اننى أعرف شيئا عن مستر « لويد » ، وسوف أكتب اليه ، فاذا جاء رده مصداقا لروايتك ، فسأعلن للجميع براءتك من كل وصمة ٠ أما بالنسبة لى ، فأنت الآن بريئة ياجين »**

وقبلتنى ، وهى لاتزال تستبقينى الى جوارها ، حيث كنت سعيدة بالوقوف ، اذ كنت أستمد من تأمل وجهها ، وثوبها ، وحليها القليلة ، وجبينها الناصع ،وخصلاتها المنسقة ،اللامعة، وعينيها السوداوين البراقتين ، متعة صبيانية ٠٠ وما لبثت ان

تحولت تخاطب هيلين بيرنز قائلة : « كيف أنت الليلة ياهيلين؟ ٠٠ هل سعلت كثيرا اليوم ؟ »

ـ أظننى لم أسعل كثيرا جدا ياسيدتى

ـ والالم الذى فى صدرك ؟

ـ لقد تحسن قليلا

فنهضت مس تمبل ، وتناولت يد هيلين تتفقد نبضها ، ثم عادت الى مقعدها ، وفيما هى تجلس ، سمعتها تتنهد فى خفوت ، واستغرقت فى التفكير لبضع دقائق ، ثم نهضت قائلة فى ابتهاج : « ولكنكما ضيفتاى الليلة ، فيجب ان أعاملكما كضيفتين ! » ٠٠ ودقت الجرس ، ثم قالت للخادم التى لبت النداء : « اننى لم أتناول الشاى بعد يابربارا ، فاحضريه ، وضعى قدحين لهاتين السيدتين الشابتين » ٠٠ وسرعان ماجىء بالشاى ٠٠ **وما أبدع مابدت الاقداح الصينية وابريق الشاى اللامع لعينى ، وهى مستقرة على منضدة مستديرة صغيرة ، بجوار المدفأة !٠٠ وما كان أجمل شذى بخار الشاى ، وعبير الخبز المحمص ، الذى لم أصب منه سوى نصيب صغير جدا ، لخيبة أملى ، اذ كنت قد بدأت أشعر بالجوع** ٠ وكذلك لم تصب منه مس تمبل ماكان يرضيها ، فقالت : « هل لك فى ان تحضرى مزيدا من الخبز والزبد يابربارا ، فليس هنا مايكفى لثلاثة ؟ » ٠٠ فخرجت بربارا ، وسرعان ماعادت تقول : « ان مسز هاردن تقول ياسيدتى انها قد أرسلت الكمية المعتادة »٠ وكانت مسز هاردن مدبرة الدار ، المقربة الى مستر بروكلهيرست ، اذ كانت مثله ، من عظام وحديد !٠٠ فتحولت مس تمبل قائلة : « حسنا جدا ، يجب ان نقنع بهذا يابربارا ، فيما أرى ! » ٠٠ ثم أضافت مبتسمة ، عندما انسحبت الفتاة : « آن فى وسعى لحسن الحظ ان أعوض النقص فى هذه المرة » ٠٠ و دعتنى وهيلين كى نقترب من المنضدة ، ووضعت أمام

كل منا قدح شاى ، وقطعة من الخبز شهية وان كانت نحيلة ٠ ثم نهضت ففتحت درجا ، وأخرجت منه لفـافة من الورق ، كشفت لاعيننا ـ حين فضتها ـ عن كعكة من القمح ، لا بأس بحجمها ٠ وقالت : « كنت اعتزم ان أعطى كلا منكما جزءا من هذه تأخذانه معكما ، ولكن ، لما كان الخبز المحمص قليـلا ، فلابد لكما من التهامها هنا » ٠٠ وشرعت تقسمها الى شرائح، فى سخاء !

وأكلنا فى ذلك المساء ، وكأننا كنا نجلس الى مائدة حافلة، ولم تكن ابتسامة الرضى التى راحت مضيفتنا ترمقنا بهـا ، ونحن نشبع نهمنا بالوليمة البسيطـة التى تطوعت لدعوتنـا اليها ، بأقل المباهج التى آثرتنا بها ٠٠ فحين فرغنا من الشاى، ونقلت أدواته من الغرفة ، دعتنا مرة اخرى الى جـوار المدفأة ، فجلسنا ـ كل منا الى أحد جانبيها ـ ثم دار حديث بينها وبين هيلين ، كان من الحظوة حقا ان يسمح لى بسماعه ٠ لقد كانت مس تمبل دائما محوطة بجو من الوقار ، وكانت على قـدر من الجلال فى طلعتها ، ومن الاسلوب الراقى فى لغتها ، مما كان يحول دون شرود ذهن الشخص التواق المتلهف الى مجالستها٠٠ كان لها شيء ما يحد من متعة أولئك الذين يتأملونها ، وينصتون اليها ، اذ يوحى اليهـم بشعور من التـوقير ٠٠ وهكـذا كان احساسى اذ ذاك ، اما احساسى نحو هيلين بيرنز فقد تمثل فى اننى رحت أعجب لها ! ٠٠ فان الاكل المنعش ، والنار المتأججة، ووجود استاذتها المحبوبة وما حظيت به من كرمها٠٠أو ربما كان هناك فوق كل ذلك شيء ما فى عقلها الفذ ، أوقظ مواهبها فى أعماقها ، فاذا بها تذكو وتستعر ، فتتألق ـ فى بداية الامر ـ فى حمرة خديها اللذين لم أكن حتى السـاعة قد عهدتهمـا إلا شاحبين ، غائضى الدم ٠٠ ثم شع ذلك الاستعـار فى البريق الرجراج الذى تبدى فى عينيها ٠٠ **العينين اللتـين اكتسبتـا**

فجأة جمالا أكثر روعة من جمال مس تمبل نفسها .. جمال لايعتمد على لون البشرة ، ولا على أهداب طويلة ، أو حاجبين رشيقين كأنهما قد خطا بالقلم ، وانما كان جمالا يعتمد على المعنى ، والحركة ، والاشراق .. اذ ذاك قفزت نفسها الى شفتيها ، فتدفق الكلام من نبع لم أكن أدريه .. فهل لفتاة فى الرابعة عشرة قلب من الكبر ومن القوة ، بحيث يتسع لاستيعاب النبع المتدفق بالطهر ، والصفاء ، واللباقة السلسة ؟

.. هكذا كان طابع حديث هيلين فى تلك الليلة المشهودة ، فى رأيى .. كانت روحها تبدو وكأنها تتعجل الحياة فى فترة جد قصيرة ، كما يفعل الكثيرون خلال وجودهم فى مواقف تعوقهم عن المضى لغايتهم !

وتحدثت الاثنتان عن أشياء لم أسمع بها من قبل قط !.. عن أمم وعن عصور ماضية ، وعن بلاد بعيدة ، وعن أسرار للطبيعة كشفت أو كانت محور حدس وتخمين .. تحدثتا عن الكتب ، وما أكثر ما قرأتا منها ! .. أية كنوز من المعرفة كانتا تمتلكان !.. لقد لاحتا اذ ذاك على دراية بالاسماء الفرنسية والمؤلفين الفرنسيين .. على أن عجبى بلغ ذروته عندما سألت مس تمبل « هيلين » عما اذا كانت تنتزع من وقتها لحظات ـ فى بعض الاحيان ـ لتستعيد اللغة اللاتينية التى لقنها اياها أبوها ؟ . ثم تناولت كتابا من أحد الارفف ، ودعتها للقراءة ، وهى تعين لها صفحة من شعر « فيرجيل » ، فأطاعت هيلين ، وشعورى بالتقدير والتوقير يزداد مع كل سطر تقرأه . ولم تكد تنتهى حتى أعلن الجرس موعد النوم ، ولم يكن ثمة مجال لاى تأخر ، فاحتضنتنا مس تمبل معا ، قائلة وهى تضمنا الى صدرها : « ليبارككما الله يا ابنتى ! » .. وظلت معانقة هيلين فترة أطول مما عانقتنى ، ولم تخليها الا كارهة . وظلت هيلين محط بصرها حتى بلغنا الباب ، ومن أجلها أرسلت للمرة الثانية زفرة محزونة ، ومن أجلها مسحت عن خدها دمعة !

واذ بلغنا غرفة النوم سمعنا صوت مس سكاتشيرد ، فقد كانت تتفقد الادراج ، وكانت قد جذبت درج هيلين لتوها ،فلما دخلنـــا ، قوبلت هيلين بتأنيب حـــاد ، وانبئت بأن اثنى عشر شريطا من أشرطة الاهمال ستعلق على كتفها فى اليوم التـــالى . وغمغمت هيلين تقول لى فى صوت خافت : « لقد كانت أمتعتى غير منسقة بشكل معيب ، فعلا ، وكنت أعتزم ترتيبها ، ولكنى نسيت ! »

وفى الصباح التالى ، كتبت مس سكاتشيرد بحروف كبيرة ، على قطعة من الورق المقوى المصمغ ، كلمة « مهملة » ، ولفتهـا كاللافتة حول جبين هيلين العريض ، الناعم ، النـــاطق بالذكاء والدعة . وظلت هذه ترتديها حتى المساء صابرة ، غير متذمرة، وهى تعتبرها عقابا تستحقه . وما ان انسحبتمس سكاتشيرد بعد دروس ما بعد الظهر ـ أى فى الســـاعة الخامســـة ـ حتى هرعت انا الى هيلين ، فانتزعت الورقة ، وألقيت بها فى النار. كان الغضب ـ الذى لم يتملكها ـ يحتدم فى نفسى انا طـوال اليوم .. والدموع الساخنة ، الكبيرة ، تكوى خدى باستمرار، فان مظهر استسلامها الحزين بعث فى قلبى ألما لايطاق !

★ ★ ★

◆ **بعد** حوالى أسبوع من الحوادث السالف ذكرها ، تلقت مس تمبل ردا من مستر « لويد » ـ وكانت قد كتبت له ـ ولاح أن ماقاله عزز روايتى ، اذ جمعت مس تمبل المدرسة ، واعلنت أن تحريات أجريت بصدد الاتهامات التى عزيت الى جين اير ، وانها أشد ما تكون سعادة اذ أصبح فى مقدورها أن تعلن براءة « جين » التامة من كل وصمة . واذ ذاك صافحتنى المدرسات وقبلننى ، وسرت فى صفوف زميلاتى غمغمة راضية !

واذ تخلصت من العبء المحزن ، بهذا الشكل ، شرعت منذ

تلك الساعة فى العمل من جديد ، وقد عقدت العزم على ان أتغلب على كل عقبة ٠ واجتهدت ، فاذا نجاحى يأتى متناسبا مع جهودى ٠٠ وأخذت ذاكرتى – التى لم تكن يوما جامدة – تتحسن بالمران ، كما ان الواجبات أرهفت ذكائى ٠ وان هى الا أسابيع حتى نقلت الى فرقة أعلى ٠ وفى أقل من شهرين ، سمح لى بأن أبدأ فى تعلم الفرنسية والرسم ٠ وحفظت التصريفين الاولين لفعل الكينونة (ETRE) ، ورسمت فى اليوم ذاته أول كوخ صوره قلمى ٠ وكانت جدرانه – بهذه المناسبة – تنافس جدران برج (بيزا) فى الميل !٠٠ وفى ذلك المساء ، نسيت – وأنا آوى الى مخدعى – ان أعد فى خيالى العشاء الوهمى الذى كان يتألف من بطاطس محمرة ساخنة ، أو من خبز أبيض ولبن حليب ، والذى كنت أتخيله لارضى النزوات التى كانت تراود نفسى ٠ وانما استمرأت – بدلا منه – منظر رسومات مثالية ، تراءت لى فى الظلام ، وكلها من رسم يدى : بيوت ، وأشجار ، وصخور هائلة ، واطلال ، وقطعان من الماشية ، ورسومات بديعة بالالوان تمثل فراشات تحوم فوق ورود لم تتفتح أكمامها ، وطيور تنقر الكريز الناضج ، وأعشاش تضم بيضا كأنه اللآلىء ، وقد لفتها فروع يافعة من اللبلاب ٠٠ كذلك فحصت – فى الخيال – امكانيات توفيقى يوما فى ترجمة كتاب معين من كتب القصص الفرنسية ، أرتنى اياه مدام «بيرو» فى ذلك اليوم ٠٠ ولم تكن هذه المسألة قد سويت بالشكل الذى يرضينى ، عندما رحت فى سبات عذب !

ما كان أحكم سليمان اذ قال : « لئن أتغذى على الاعشاب حيثما يتوفر الحب ، خير من أن أتغذى بثور مشوى مع الكراهية ! » ٠٠ فما كنت لارتضى فى تلك الفترة ان استبدل بـ (لوود) – مع كل مافيها من حرمان ، قصر (جيتسهيد) بفخفخته اليومية !



الفصل التاســع

◆ على ان الحرمان ، أو بالاحرى الصعاب ، التى كانت فى (لوود) ، لم تلبث ان تضاءلت • اذ اقترب الربيع ، بل انه كان قد أقبل فعلا ، فانقطع صقيع الشتاء ، وذابت تلوجـه . وخفت رياحه القاسية • وبدأت قدماى البائستـان ـ اللتـان تورمتا وتشققتا بفعل جو يناير الرطب ، القارس ـ تندملان ونشفيان ، تحت هبات نسائم أبريل اللطيفة • ولم تعد الليالى وساعات الصباح ، بزمهريرها الشـديد ، تجمـد الدم فى عروقنا •• بل أصبح فى طاقتنا أن نحتمل ساعة الترويح فى الحديقة • بل بدأت هذه الساعة تبدو بهيجة ، ممتعـة ، فى بعض الايام المشمسـة ، ودبت الخضرة فى تلك الاحـواض السمراء ، التى كانت بترعرعها اليومى توحى بأن « الامل » كان يمر بها فى الليل ، ويترك فى كل صـباح آثارا أكثر وضوحا لقدميه • وأطلت الزهور من خلال اوراق الشجر • وبدأنا نقـوم فى أصيل أيام الخميس ـ وكانت لدينـا عطلة لنصف اليوم ـ بنزهات شتى ، فكنا نصادف زهورا أجمـل تتفتح تحت الحواجز النباتية على جانب الطريق ••

واكتشفت كذلك ان ثمة مسرة ، بل متعة لايحدها سوى الافق ، تقوم خارج جدران حديقتنا ٠٠ الجدران العالية التى تحرسها أسنان شائكة !٠٠ تلك المتعة كانت تتمثل فى منظر القمم السامقة التى تعلو منخفضا كبيرا تحف به تلال غنية وحواف براقة ٠٠ ما ابعد هذه الصورة البهيجة عن المنظر الذى أبصرت عليه ذلك المنخفض نفسه من قبل ، ممتدا تحت سماء الشتاء التى كانت تبدو كقبة من حديد ، وقد جمده الصقيع، وكسته الثلوج ! ٠٠ عندما كانت الرطوبة التى تشبه الموت فى قسوة زمهريرها ، تحوم بدفع الرياح الشرقية ، مطوفة بتلك القمم المحمرة ، ثم تنحدر هابطة حتى تمتزج بالضباب الجليدى المخيم على الوادى ، فلا يلبث ان يتحول الى تيار بارد ، لايقيده شيء ، يندفع مجتاحا الغابة ، وهو يرسل أنينا محموما فى الهواء، وكثيرا مايثقله المطر الدافق ، أو المصحوب بالبرد المنهمر ، فيحجب كل شيء عن الانظار ، اللهم الا أشجار الغابة التى تقوم كصفوف من هياكل عجفاء !

واكتهل شهر ابريل ، ثم خلفه شهر مايو ٠٠ وكان مايو مشرقا ، بهيا ، تألف من أيام زرقاء السماء ، ذات شمس ساطعة لطيفة الاشعة ، تتخللها رياح غربية أو جنوبية خفيفة ٠٠وكانت الخضرة اذ ذاك تطرد فى نموها بقوة ونشاط،وتخلصت (لوود) من قيود الشتاء ، فأصبحت خضرة شاملة ، وازهارا سابغة ، وارتدت اشجار الغرغار والدردار والبلوط الى حياتها المهيبة ، الجليلة ٠٠ وانبثقت النباتات البرية بغزارة فى اطرافها القصوى ، وملأت ثغرات ارضها أشكال لاحصر لها من الاعشاب الفطرية ، وغدت الثروة التى اوتيتها من النباتات ذات الزهور الصفراء ، أشبه بأشعة شمسيه عجيبة تنبعث من الارض ٠٠ لقد شهدت وميضها الذهبى الباهت فى بقاع ظليلة متناثرة ، فكانت تبدو كأجمل الثريات المتلألئة ، المتناثرة ٠٠ كل هذا

كنت أستمتع به كثيرا ٠٠ كنت استمتع به كامل الاستمتاع ، بحرية ، وأنا أكاد أكون وحيدة ، دون ما رقيب ٠ وكان لهذه الحرية ولهذا الاستمتاع سبب ، آن لى أن أذكره

أفلم أصف موقعا بهيجا للسكنى بحديثي عن هذا المكان القابع بين التل والغابة والذى يقوم على حافة جدول ؟ ٠٠ انه بهيج الى حد كبير ، ولا شك ، اما انه صحى ، فهذه مسألة اخرى ٠٠ كان المنخفض الذى تحف به الغابة ، والذى تقوم فيه (لوود) ، مهدا للضباب ، وللوباء الذى ينمو فى الضباب والذى أسرع مع الربيع الذى كان يسابق موعده ، فزحف على ملجأ اليتيات ، ونفث « التيفوس » فى غرفة الدرس وغرفة النوم المزدحمتين ، فما ان حل شهر مايو ، حتى تحولت المدرسة الى مستشفى ٠٠ اذ ان شبه الجوع ، ونزلات البرد التى أهملت ، هيأت معظم التلميذات لتقبل العدوى ، **فاذا خمس واربعون من الثمانين فتاة ، يرقدن مريضات فى آن واحد !٠٠ وانفرط عقد الفرق الدراسية ، وأهملت القواعد واللوائح ، واتيحت للقليلات اللاتى ظللن سليمات ، حرية مطلقة تقريبا ، لان الطبيب أصر على ضرورة الاكثار من الرياضة للاحتفاظ بصحتهن ٠ وحتى لو انه لم يصر ، لما اتيح لاحد من الفراغ مايمكنه من مراقبتهن او صدهن** ٠٠ فقد استغرقت المريضات انتباه مس تمبل بأكمله ، وأصبحت تقيم فى الحجرة التى أفردت لهن ، لاتغادرها الا لسويعات قلائل تلتمس فيها الراحة أثناء الليل ٠ وانهمكت المدرسات فى حزم الامتعة واتخاذ الاستعدادات اللازمة لترحيل الفتيات اللائى كن مجدودات بحيث وجدن أقارب وأصدقاء يستطيعون ، عن رغبة ، أن يقصوهن عن موطن الوباء ٠ وذهبت كثيرات ممن أصابهن الداء الى بلادهن ليلفظن آخر انفاسهن ، ومات البعض فى المدرسة فدفن فى صمت وعجلة ، اذ كانت طبيعة الداء تحول دون اى ارجاء ٠٠

* * *

• **وبينما** كان المرض قد أصبح من سكان (لوود) ، والموت زائرها الكثير التردد عليها ، وبينما كان ثمة وميض وخوف بين جدرانها ، وبينما كانت تفوح فى غرفها وردهاتها روائح المستشفيات ، وكانت العقاقير والاقراص تجاهد عبثا لتقاوم اطراد الوفيات .. بينما كان يحدث كل هذا ، كان شهر مايو الصحو يشرق دون ما سحب على التلال المنيعة ، والغابة الجميلة ، خارج جدران المدرسة .. كما تألقت حديقة المدرسة بالورود وانبثت الزهور فى قمم الاشجار العالية ، وتفتحت ازهار السوسن ، وترعرع « التيوليب » والورود ، ووشيت حواف أحواض فلاحة البساتين بالزنابق البهيجة ذات الالوان الوردية والقرمزية .. وأخذت زهور نبات العليق تنفث فى الصباح والمساء عبيرها التفاحى النفاذ .. وكانت كل هذه الكنوز العبقة غير ذات نفع لاكثر أهل (لوود) ، اللهم الا كمورد لحفنة من الاعشاب والبراعم تقتطف من آن الى آخر لتوضع على أحد التوابيت !

ولكنني - وكل من بقين فى حال طيبة - كنا نستمتع أكمل متعة بمفاتن المنظر والفصل ، وقد تركنا نهيم فى الغابة كالنوريات ، من الصباح حتى المساء ، نفعل مايحلو لنا ، ونذهب أنى شئنا ، ونعيش فى خير حال كذلك ، اذ ان مستر بروكلهيرست وأسرته لم يعودوا يفدون على مقربة من (لوود) اطلاقا ، ولم تعد شئون الدار موضع نقاش ومراجعة ، وغادرتنا مدبرة الدار الشحيحة وقد حملها خوف العدوى على الفرار ..

ولما كانت خليفتها لاتعرف شيئا عن أصول ونطاق عملها الجديد - اذ كانت من قبل رئيسة ممرضات فى مستوصف (لوتون) - فقد تركت لها حرية نسبية . يضاف الى هذا قلة عدد من صرن يحظين بالغذاء ، كما ان المريضات لم يكن يكثرن من الاكل ، ومن

ثم كانت أطباق فطورنا مليئة أكثر من ذى قبل • وكانت المدبرة تعمد اذا لم تجد وقتا لاعداد غداء ـ وهو ما كان كثير الحدوث ـ الى اعطائنا قطعا كبيرة من الفطير ، أو شرائح سميكة من الخبز والجبن ، فكنا نحمل هذه معنا الى الغابة ، حيث تختار كل منا أحب بقعة اليها ، ونتناول غداءنا « الفخم » !•• وكان مقعدى المفضل قطعة من الحجر العريض الناعم ، تنهض من منتصف الغابة بيضاء ، جافة ، ولا سبيل الى الوصول اليها الا بالخوض فى ماء الجدول ، وهو ما كنت أفعله وأنا حافية القدمين • وكان الحجر من الاتساع بحيث ينفسح لايواء فتاة اخرى ،



براحة تامة •• وكنت فى تلك الفترة قد اتخذت لى زميلة مفضلة ، فتاة تدعى « مارى آن ويلسون » ، كانت أريبة ، تقية، وجدت فى صحبتها متعة ، يرجع شطر منها الى انها كانت حاضرة البديهة ، فذة فى طابعها ، ويرجع الباقى الى انها كانت ذات أخلاق تريحنى •• واذ كانت تكبرنى ببضع سنوات ، فانها كانت أكثر منى معرفة بالدنيا ، وفى وسعها ان تحدثنى عن أشياء كثيرة كان يروق لى سماعها ، ومن ثم فان فضولى وجد فى صحبتها ما يشبعه ، كما انها أظهرت نحو أخطائى تسامحا كريما ، فلم تحاول قط ان تراجعنى أو تلومنى بشأن شىء قلته •

وكانت ذات موهبة قصصية ، فى حين أننى كنت موهوبة فى التحليل ، فكانت تحب أن تروى ، وكنت أحب أن أسأل ، ومن ثم كنا ننسجم معا ، ونستمد من حديثنا المتبادل تسلية كثيرة، ان لم يكن نفعا كبيرا

وأين كانت هيلين بيرنز فى ذلك الوقت ؟٠٠ لم لم أقض أيام الحرية العذبة هذه معها ؟٠٠ هل نسيتها ، أو اننى كنت خسيسة فسئمت عشرتها النقية ؟٠٠ الواقع ان مارى آن ويلسون هذه كانت أقل قدرا من صديقتى الاولى ، فلم تكن تملك سوى ان تروى القصص الممتعة ، وان تشاركنى الثرثرة المتهورة ، اللاذعة ، التى كان يحلو لى الانغماس فيها ٠٠ فى حين ان هيلين ـ اذا صدق ما اعتقده عنها ـ كانت قديرة على ان تمنح اولئك الذين يستمتعون بحديثها ، قبسا من أمور أسمى وأرفع ٠٠ حقا ايها القارىء ، فانى أعرف هذا وأحسه !٠٠ ومع اننى مخلوقة ذات معايب ، كثيرة الاخطاء ، قليلة التكفير عنها ، الا أننى لم أسأم قط هيلين بيرنز، ولم أكف عن أن أكن لها شعورا من الاعزاز والايثار ، قويا ، حنونا ، يفوق فى اتزانه كل ماعمر به قلبى فى أى وقت ٠ وكيف لايكون ذلك ، وقد كانت هيلين ـ فى جميع الاوقات ، وفى كل الظروف ـ تكن لى ودا صافيا ، وفيا ، لم يعكره قط أى امتعاض ، ولا خالطه أى توتر ؟ ٠ ٠

ولكن هيلين كانت مريضة فى تلك الآونة ، وقد أقصيت عن نظرى قبل أسابيع الى حجرة لم أدر موقعها ، فى الطابق العلوى، فلم تكن ـ كما قيل لى ـ فى القسم الذى أعد من الدار ليكون مستشفى للمريضات بالحمى ، لان داءها كان التدرن الرئوى لا التيفوس ٠ وكان جهلى يوحى الى بأن التدرن الرئوى شىء بسيط لن تلبث العناية والزمن ان يبدداه ٠ وقد عزز هذه الفكرة انها هبطت مرة أو مرتين ، فى فترة من بعد الظهر كانت الشمس فيها دافئة الاشعة ، وصحبتها مس تمبل الى الحديقة ٠ ولكننى فى هاتين المناسبتين لم أترك كى اقترب منها

واتحدث اليها ٠٠ كل ماهنالك اننى رأيتها من نافذة حجـرة الدرس ، ولم اتبينها تماما ، اذ كانت ملتفة من رأسـها الى قدميها ، وقد جلست فى الشرفة على مسافة بعيدة من مكانى ٠٠

* * *

• **وفى ذات** مساء فى أوائل يونية ، جلست مع مارى آن فى الغابة الى وقت جد متأخر ، وكنا قـد اعتزلنـا الاخـريات ـ كعادتنا ـ وهمنا بعيدا عنهن ، واوغلنا فى البعد حتى ضللنا طريقنا ، واضطررنا الى ان نلجأ الى كوخ منعزل كان يعيش فيه رجل وامرأة يرعيان قطيعا من الخنازير يتغذى على أعشـاب الغابة ، فسألناهما عن الطريق ٠٠ وعندما عدنا ، كان القمر قد بزغ ، وكان ثمة جواد ـ عرفنا فيه مطية الجراح ـ رابضا لدى باب الحديقة ، فتكهنت مارى آن بأن لابد من وجود شخص برح به المرض ، والا لما استدعى مستر « بيتس » فى مثـل تلك الساعة من المساء ٠ ودخلت هى الدار ، بينما تخلفت أنا عنهـا قليلا ريثما أغرس فى حوض بعض «شتل» انتزعتها من الغابة ، وخشيت ان تذوى اذا تركتها الى الصباح ٠ واذ فرغت من هذا ، تلكأت فترة اخرى ٠ كان شذى الزهور يفوح والطل يتساقط ، وكانت الليلة بهيجة ، بديعة ، دافئة ، والوهج الذى ظل باديا فى الغرب يبشر بيوم لطيف آخر فى الغد ، وقد بزغ القمـر وراح يرقى من الشرق فى جلال ٠ وفيما كنت أرقب هذه الاشياء وأسعد بها كما تفعل أية طفلة ، خطرت ببالى فكرة لم تواتنى من قبل قط : « **ما أقسى الرقاد الآن فى فراش المرض ، وخطر الموت يحوم !٠٠ ان هذه الدنيا بهيجة ، وما أبشع أن ينتزع المرء منها ، ويضطر الى الذهاب الى ما لا أدرى ؟ » ٠٠ واذ ذاك ، بذل عقلى اول مجهود صادق لتفهم ماحشر فيـه عن الجنـة والجحيم !٠٠ وللمرة الاولى ، تراجع هذا العقل حائرا ، وللمرة الاولى تلفت وراءه ، والى جانبيه ، وامامه ، فرأى هوة لاقرار لها**

تحيط به .. ولم يشعر بغير النقطة التى كان يقف عندها فحسب . لم يشعر بغير الحاضر !.. أما ماعداه ، فكلها سحب غير واضحة ، وأعماق خاوية ! .. وارتجف عقلى اذ تصور التخبط والضلال وسط الفوضى المبهمة !.. وفيما كنت مستغرقة فى فكرتى الجديدة ، سمعت الباب الامامى يفتح ، وخرج مستر بيتس ومعه احدى الممرضات . وبعد أن تريثت الممرضة الى ان امتطى جواده ورحل ، هممت بأن تغلق الباب ، لولا ان جريت نحوها وسألتها : « كيف حال هيلين بيرنز ؟ » . فكان جوابها : « اسوأ حال »

ـ أهى التى جاء مستر بيتس من اجلها ؟ ـ نعم

ـ وماذا قال عنها ؟ ـ قال انها لن تمكث هنا طويلا

ولو أن هذه العبارة طرقت سمعى أمس ، لما اوحت الى ذهنى بأكثر من ان صديقتى ستنقل الى (نورثمبرلاند) ، موطنها ، ولما حدست انها تعنى ان الفتاة تحتضر . أما الآن ، فقد أدركت للفور ، وتجلى لادراكى ان هيلين برنز كانت تعد آخر ايامها فى هذه الدنيا ، وانها ستنقل الى عالم الارواح ، اذا كان لمثل هذا العالم وجود .. فشعرت برجة فزع ، ثم بنوبة قوية من الاسى ، ثم برغبة .. بحاجة ضرورية الى ان اراها . فسألت عن غرفتها ، فقالت الممرضة : « انها فى غرفة مس تمبل »

ـ هل لى أن أصعد فأتحدث آليها ؟

ـ آه ، لا ياصغيرتى !.. هذا غير ممكن ولا مستحب . والآن ، حان الوقت كى تدخلى الدار ، والا أصبت بالحمى اذا وقفت أثناء هبوط الليل

واغلقت الممرضة الباب الامامى ، فدخلت من الباب الجانبى ـ الذى يفضى الى غرفة الدرس ـ فى اللحظة المناسبة ، اذ كانت مس ميلر تدعو التلميذات الى الصعود للمخادع .

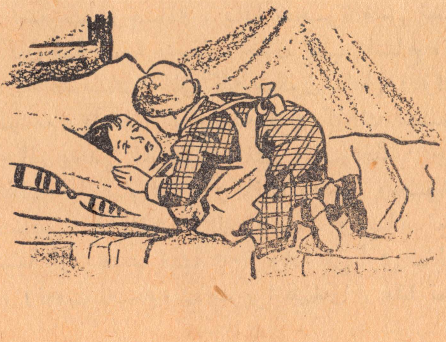
* * *

• **وربما** كانت قد انقضت ساعتان ـ ولعل الساعة كانت تقترب من الحـــادية عشرة ـ عنـدما نهضت فى خفة ، اذ لم استطع النوم ، وضايقنى السكون العميق الذى شمل الحجرة، ورؤيه زميلاتى فى نوم عميـــق ، فارتديت ثوبى فوق قميص النوم ، وتسللت من الحجرة حافية القدمين ، وشرعت أسعى الى غرفة مس تمبل ٠ وكان الهدوء مسيطرا على الطرف الآخر من الدار ، ولكنى كنت أعرف طريقى ، وقد مكننى ضوء قمر الصيف ـ الذى لاتحجبه السحب ، والذى كان ينساب خلال نوافذ الردهة ـ من ان أهتدى الى بنتين دون ما عناء٠ وطالعتنى ، حين اقتربت من غرفة المحمومات ، رائحة كافور وخل محترق ، فمررت ببابها متعجلة ، خشية ان تفطن الى الممرضة التى كانت تقضى الليل ساهرة ، فقد كرهت ان اكتشف فأرد الى مخدعى، اذ كان لابد لى من ان أرى هيلين ٠٠ من ان احتضنها قبل ان تموت ٠٠ يجب أن أقبلها القبلة الاخيرة ، وأتبادل معها كلمـة أخيرة !

وبعد ان هبطت سلما ، واجتزت شطرا من الطابق الارضى ، ووفقت آلى فتح واغلاق بابين ـ دون ما ضجيج ـ وصلت الى سلم آخر ، صعدت درجـاته ، فاذا حجـرة مس تمبـل أمامى مباشرة ٠ وكان ثمة ضوء ينساب خلال ثقب المفتاح ، ومن تحت طرف الباب ، وقد ساد المكان كله سكون شامل ٠ واذ اقتربت، وجدت الباب مواربا قليلا ، ولعله ترك كذلك ليسمح بدخول بعض الهواء الى مخدع المريضة المغلق النـوافذ ٠ ولم أتردد ، فقد كنت مفعمة بالحـوافز ، وكانت روحى وحـواسى تنبض بالقلق والغصص ، فأطللت خلال الباب ، وعيناى تبحثـان عن هيلين ، خشية أن اجدها ميتة !٠٠ واذا بى أرى ـ لصق سرير مس تمبل ، وتحت أستاره ـ سريرا صغيرا ، بدا تحت أغطيته

شكل جسم ، ولكن الوجه احتجب عنى وراء الستر · وكانت الممرضة التى تحدثت اليها فى الحديقة تجلس فى مقعد مريح، وقد غشيها النعاس ·· وعلى المنضدة ، كانت ثمة شمعة مشتعلة ، ترسل ضوءاً خافتا · ولم يلح لبصرى أثر لمس تمبل، وعرفت ـ فيما بعد ـ انها كانت قد استدعيت الى جوارمريضة اشتدت بها الحمى فى غرفة المحمومات · وتقدمت ، ثم وقفت الى جوار السرير الصغير ، ووضعت يدى على الستار ، ولكنى آثرت أن أتكلم قبل ان ازيحها وأنا لا ازال اوجس خيفة من ان ارى جثة هامدة ! فهمست فى رفق : « هيلين !·· هل انت مستيقظة ؟ » ·· وتحركت ، وازاحت الستار ، فرأيت وجهها شاحبا ، هزيلا ، ولكنه كان منبسط الاسارير · وبدت متغيرة بعض الشىء ··على انخوفىسرعان ماتبدد · وتساءلت هى فى صوتها اللطيف : « أحقا هذه انت ياجين ؟ » ·· فهتفت لنفسى: « أواه !·· انها لن تموت ·· لقد أخطأوا الظن ·· لو أنهاكانت وشيكة الموت ماتكلمت ولا نظرت بهذا الهدوء ! »

وانحنيت على سريرها ، فقبلتها ·· كان جبينها باردا ، وخدها باردا ونحيلا ·· وكذلك كانت يداها ، ورسغاها ، ولكنها كانت تبتسم كعهدها فيما مضى !·· وسألتنى : « لماذا



جئت الى هنا ياجين ؟ .. لقد تجاوزنا الساعة الحادية عشرة ، اذ سمعت دقات الساعة منذ دقائق »

ـ جئت لاراك ياهيلين ، فقد سمعت انك مريضة ، فلم استطع ان أنام قبل ان اتحدث اليك

ـ اذن فقد جئت تودعينني ؟ .. لعلك جئت فى الوقت المناسب

ـ أمسافرة انت ياهيلين ؟ .. هل ستعودين الى بلدك ؟

ـ أجل .. مسافرة الى الموطن الذى سأقيم فيه طويلا .. الى مقرى الأخير

فشهقت جزعة : « **لا ، لا ياهيلين !** » .. وبينما كنت احاول ان اكبح دموعى ، استولت على هيلين نوبة سعال ، ولكنها مع ذلك لم توقظ الممرضة . فلما زايلتها النوبة ، ظلت بضع دقائق منهوكة القوى ، ثم همست : « ان قدميك الصغيرتين حافيتان ياجين .. نامى ، وتغطى بلحافى » .. ففعلت، وبسطت ذراعها فوقى ، فالتصقت بها . وبعد صمت طويل ، استأنفت الحديث هامسة : « اننى جد سعيدة ياجين ، فاذا سمعت اننى مت ، فلا تفكرى ، ولا تحزنى ، اذ ليس ثمة مايدعو الى الحزن . لابد لنا من ان نموت جميعا يوما ما ، وليس الداء الذى ينقلنى من هذه الدنيا بمؤلم ، وانما هو لطيف ، ومتدرج .. ثم ان بالى مرتاح ، فلست اترك ورائى احدا يأسف كثيرا لفراقى . ليس لى سوى أبى ، وهو قد تزوج أخيرا ، ولن يفتقدنى .. ولسوف أنجو من آلام كثيرة اذ أموت صغيرة ، كما اننى لم أوت من المواهب والصفات ما كان يكفل لى أن اعيش بخير فى هذه الدنيا .. لو اننى عشت ، لظللت دائما ارتكب الأخطاء »

ـ ولكن الى اين تذهبين ياهيلين ؟ .. هل ترين الطريق امامك ؟ .. هل تعرفينه ؟

ـ اننى أؤمن .. اننى مؤمنة .. سأذهب الى الله !

ـ واين هو الله ؟ .. ما هو الله ؟

– انه خالقي وخالقك الذى لايدمر اطلاقا خلقـــه ٠٠ اننى اركن ركونا مطلقا الى قدرته ، واؤمن كل الايمان بكرمه ، وأعد الساعات ريثما تحل آلساعة التى تردنى اليـه ، وتكشـفه لبصيرتى !

– اذن فأنت واثقة ياهيلين بأن ثمة مكانا فى السماء ، وان ارواحنا تصعد اليه عندما نموت ؟

– اننى موقنة من ان ثمة عالما آخر ، وانى لأؤمن بأن الله طيب ، أسلمه الجزء آلذى لايفنى من كيانى دون خوف ٠ ان الله هـو أبى ٠٠ الله صـديقى ٠٠ اننى أحبـه ، وأؤمن بأنه يحبنى !

– وهل سأراك مرة اخرى ياهيلين ، عندما اموت ؟

– لسوف تفدين آلى نفس منطقة السعادة التى سأذهب اليها ، وتنعمين بلقاء نفس الاب آلقدير للكون ، بلا شك ياجين

وعدت اتساءل ، ولكن فى نفسى ، فى هذه المـرة : « **واين تلك المنطقة ؟ ٠٠ هل لها وجود ؟** » ٠٠ وشددت ذراعى حـول هيلين،وقد شعرت بأنها أعز على مما كانت فى اى وقت مضى ٠٠ وبأن لا قدرة لى على أن ادعها ترحل ٠٠ وظللت راقدة وقددفنت وجهى فى عنقها ٠ فما لبثت ان قالت فى أحلى لهجة : « ما أكثر ارتياحى !٠٠ لقد آتعبتنى نوبة السعال آلاخيرة،بعض الشىء٠٠ أشعر برغبة فى النوم ، ولكن ٠٠لاتفارقينى ياجين ، فانى أحب ان تكونى بقربى »

– سأمكث معك ياهيلين العزيزة ٠٠ لن يبعدنى أحد عنك

– هل انت مستدفئة ياحبيبتى ؟

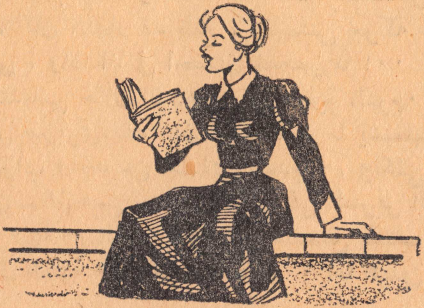
– أجل

– عمى مساء ياجين

– عمى مساء ياهيلين !

وقبلتنى ، فقبلتها ، واستسلمنا معاً للنعاس . وعندما استيقظت ، كان النهار قد طلع ، ونبهتنى حركة غير عادية ، فرفعت رأسى ، واذا أنا فى أحضان شخص ما !.. كانت المرضة تحملنى ، لتنقلنى خلال الردهات الى حجرة النوم.. ولم يؤنبنى أحد لمغادرتى سريرى، فقد كان لدى القوم ما يشغلهم عن ذلك.. ولم يقدم جواب واحد عن اسئلتى العديدة ، **ولكنى علمت – بعد يوم أو اثنين – ان مس تمبل وجدتنى فى السرير الصغير ، حين عادت الى غرفتها مع الفجر ، ووجهى ملتصق بكتف هيلين بيرنز ، وذراعى حول عنقها .. وكنت نائمة !.. اما هيلين ، فكانت.. ميتة !**

ان قبرها يقوم فى ساحة كنيسة «بروكلبريدج» . وقد ظل خمس عشرة سنة لايعلوه شىء سوى اعشاب متكاثفة .. اما الآن ، فقد صارت تعين الموقع لوحة من رخام رمادى ، نقش عليها اسمها ..



الفصل العاشر

• **لقد** سجلت بالتفصيل حتى الآن ، أحداث وجودى الذى لاقيمة له . فقد افردت من الفصول اكثر مما ينبغى للسنوات العشر الأولى من حياتى . ولكن هذا الكتاب لايعد ليكون سيرة منتظمة ، وانما أنا أستحث الذاكرة فى المواطن التى أعرف ان استجابتها عندها تنطوى على قدر من المعلومات ذات القيمة . ومن ثم فسوف اجتاز الآن فى صمت فترة مداها ثمانى سنوات، ولن أشير اليها بأكثر من سطور قلائل لازمة لربط الحوادث بعضها الى بعض :

بعد أن ادى « التيفوس » رسالته المهلكة فى (لوود) اختفى رويدا من هناك ، ولكن .. بعد ان كانت حدته وعدد ضحاياه قد استلفتا أنظار الرأى العام الى المدرسة ، فأجريت التحريات عن أصل الداء ، ولم تلبث ان ظهرت تباعا عدة حقائق اثارت سخط الرأى العام الى درجة كبيرة : كان الموقع غير الصحى بطبيعته ، وكمية طعام الاطفال ونوعه ، والماء الآسن الكريه الرائحة الذى كان يستخدم فى اعداده ، وسوء حال ثياب التلميذات ومراقدهن .. كل هذه الامور تكشفت ، فأدى

كشفها الى نتيجة كانت صدمة لمستر بروكلهيرست ، ولكنهـــا كانت خيرا بالنسبة للمعهد ، اذ تبرع بسخاء عدة أفراد من أهل المقاطعة الموسرين ، المحبين للخير ، لانشاء مبنى أكثر صلاحية، وموقع أفضل ٠٠ ووضعت لوائح جديدة ، وادخلت التحسينات على نظام التغذية والكساء ، وعهد بأموال المدرسة الى لجنـــة ، وظل مستر بروكلهيرست ـ الذى لم يكن من سبيل الى اغفاله، نظرا لنفوذه المالى والعائلى ـ أمينا للصندوق ، ولكنه كان يجد فى اداء واجباته معونة من رجال ذوى عقول اكثر اتساعا وعطفا من عقله ٠ كذلك شاركه مركزه ـ كمفتش ـ افراد كانوايعرفون كيف يجمعون بين العقل والحزم ٠ **وبهذا الاصلاح ، لم يلبث المعهد أن اصبح معهدا جليلا ، نافعا حقا ٠ وظللت بين جدرانه بعد تجديده ، زهاء ثمانى سنوات ، قضيت منها ستا كتلميذة، واثنتين كمدرسة ٠٠ وفى الحالين ، أشهد صادقة بقيمة المعهد وأهميته**

وكانت حياتى خلال هذه السنوات الثمانى ، رتيبة ، ولكنها لم تكن تعسة ، لانها لم تكن خاملة ، فقـــد كانت فى متناولى أسباب الافادة من تعليم رائع ٠ وكان لدى شغف ببعض ماكنت ادرس ، ورغبة فى ان أبرز فى كل دروسى ، مع اغتباط شديد بارضاء مدرساتى ، لاسيما أولئك اللائى كنت أحب أن أحظى بحسن ظنهن ٠ وأفدت الى أقصى حد من كل الميزات التى كانت متاحة لى ، فما لبثت ان اصبحت التلميذة الاولى ، فى الفرقـــة الاولى ، ثم رؤى الافادة منى فى العمل كمدرسة ، فقمت بهـــذا العمل فى تحسن ، لمدة عامين ٠٠ ولكنى لم ألبث فى نهـــاية ذلك الوقت أن غيرت منهج حياتى ٠

وكانت مس تمبل قد ظلت ـ خلال كل التغييرات التى طرأت على المعهد ـ ناظرة له ، **وانى لادين لها بالشطر الاكبر ممـــا حصلت ٠ وكان ودها وصحبتها هما عزائى دائما ، فقد قامت**

منى مقام الام والمربية ، والزميلة فيما بعد • ثم تزوجت هى ، فما لبثت ان رحلت مع زوجها - وكان رجلا ألمعيا من رجال الكنيسة ، جديرا بزوجة مثلها - الى مقاطعة نائية ، وسرعان ماتقطعت بيننا الاسباب •• على أننى منذ يوم رحيلها لم أعد كما كنت ، فقد ذهب معها كل شعور بالطمأنينة ، وكل رابطة جعلت من (لوود) دارا لى ، الى درجة ما • وكنت قد أخذت عنها بعض طبيعتها ، وكثيرا من عاداتها ، وما يفوق ذلك من أفكارها المنسقة ، فانصعت للواجب والنظام ، وهدأت نفسى ، وآمنت بأننى هانئة •• وكنت أبدو فى أعين الاخريات ، بل وفى عينى نفسى ، شخصية محبة للنظام والهدوء • ولكن القدر فرق بينى وبين مس تمبل ، ممثلا فى الاب الموقر المستر « ناسمايت » ، الذى تزوج منها • ويومئذ رأيتها وقد ارتدت ثياب السفر ، وصعدت الى عربة لتقلها ، بعد حفلة الزواج بفترة قصيرة •• وراقبت العربه وهى ترقى التل ، ثم تتوارى خلف حافته ، وأويت بعد ذلك الى غرفتى ، فقضيت فيها الشطر الاكبر من نصف يوم تعطلت فيه الدراسة ، اكراما للمناسبة •

ورحت اذرع الغرفة معظم الوقت ، وقد خلت ان شعورى اقتصر على الاسف لما منيت به من فقدانها ، والتفكير فى تعويض هذه الخسارة • حتى اذا فرغت من تأملاتى ، وتطلعت فوجدت النهار قد ولى ، والمساء قد أقبل ، اكتشفت فى نفسى شيئا جديدا : ذلك هو اننى فى تلك الفترة اجتزت مرحلة انقلاب ، فاذا عقلى يطرح عنه كل ما استعرت من أساليب مس تمبل •• أو بالاحرى ، انها اخذت معها الجو الهادىء الرصين الذى كنت انعم باستنشاقه فى قربها ، وعدت الى أصلى الطبيعى ، فبدأت اشعر بالاحاسيس القديمة تتحرك فى صدرى •• لم يكن الامر يلوح كما لو ان دعامة انتزعت ، وانما بدا كأن حافزا غاب عنى !•• لم تكن القدرة على الهدوء والطمأنينة هى التى زايلتنى ،

وانما سبب الطمأنينة هو الذى لم يعد قائما ! كانت دنياى قد انحصرت لبضعة أعوام في (لوود) ، وكانت خبرتي تتألف من قواعدها ونظمها • أما الآن ، فقد تذكرت ان الدنيا الحقيقية اوسع نطاقا ، وأن ميدانا حافلا بمختلف الآمال والمخاوف ، والاحاسيس والانفعالات ، ينتظر اولئك الذين اوتوا الشجاعة على الانطلاق الى تلك الدنيا الواسعة ، بحثا عن المعرفة الحقيقية بالحياة ، بين أخطارها !

* * *

◆ **وذهبت** الى نافذتي ففتحتها وأطللت منهـا ، فاذا أمامي جناحا المبنى ، وحديقة ، ومشارف بلدة (لوود) ، والافق بما يتخلله من تلال •• وتجاوزت بعيني كل الاشياء المرئية ، لاستقر ببصري على أقصاها •• على القمم الزرقاء •• تلك التي كنت اتوق الى ان اتسلقها وابلغ ذروتها • كان كل مافي نطاقها من صخور ، ومروج ، يبدو كأرض سجن ، أو حدود منفى ، فرحت أتتبع ببصري الطريق البيضاء الملتوية حول قاعدة أحد الجبال ، والتي تلاشت في خور بين جبلين •• لشـد ماصبوت الى ان اتبعها الى أبعد من ذلك ! •• وتذكرت الوقت الذى اجتزت فيه هذه الطريق بالذات ، في عربة •• تذكرت هبوطي ذلك التل مع الغسق ، فلكأنما مر دهر منذ اليوم الذى حملني نهاره الى (لوود) اول مرة ، فلم ابرحها بعد ذلك ! •• لقد قضيت كل عطلاتي في المدرسـة ـ اذ لم تستدعني مسز ريد قط الى (جيتسهيد) ، ولا زارتني هي أو أى فرد من الاسرة اطلاقا ! ـ ولم اتصل بالرسائل أو بأية وسيلة ، بالعالم الخارجي • كل ما أعرفه عن الوجود كان ينحصر في : القواعد والواجبات الدراسية ، والعادات والاهواء ، والاصوات والوجوه ، والعبارات والثياب والعواطف المدرسية •• **أما الآن ، فقد شعرت بأن هذا لم يكن كافيا ، وانني سئمت ـ في أصيل واحد ـ كل الحياة**

الرتيبة التى عشتها ثمانى سنوات ٠٠ ورغبت فى الحرية !٠٠ ومن أجل الحرية هتفت ٠٠ ومن أجلها صليت ! ٠٠ وقد خيل الى انها كانت مبعثرة على أجنحة الريح التى أخذت تهب اذ ذاك فى وهن ، فتخليت عن هـــذه الامنية الى أخرى أكثر منهـــا تواضعا : تقت الى شىء من التغيير ٠٠ ولكن هذه الامنية أيضا بدت كما لو كانت قد تبددت فى الفراغ المبهم ٠٠ فصحت شبه قانطة : « اذن ، امنحنى يارب لونا جـديدا ـ على الاقل ـ من العبودية ! »

وهنا ، دق جرس ٠ كان جرس العشاء يدعونى للهبوط ٠ ولم يتح لى ان استأنف حبل تأملاتى حتى ساعة النوم ٠٠ بل ، حتى فى هذه الساعة ، ظلت المعلمة التى كانت تشـاطرنى الغرفة تقصينى عن الموضوع الذى كنت مشوقة الى العودة اليه، بسيل من الكلام التافه ! ٠٠ لكـم رحت أتمني أن يخرسـها النعاس !٠٠ كان يبدو لى اننى لو استطعت العودة الى آخـر فكرة طرأت على ذهنى عندما كنت أقف لدى النافذة ، لواتانى اقتراح مبتكر يريحنى ٠٠ وسمعت ـ أخيرا ـ غطيط « مس جرايس » ، زميلتى ٠ وكانت امرأة بدينة من (ويلز) ، لم ار حتى ذلك اليوم فى غطيطها وجيوبها الانفية سوى مصدر للازعاج، اما فى تلك الليلة فقد رحبت فى رضى بأولى نغمات هذا الغطيط! وما ان تخلصت من مقاطعتها لافكارى ، حتى عاد ما انقطع منها الى الاتصال ، فرحت أجادل نفسى ـ فى ذهنى طبعا ، لانني لم اكن أتكلم بصوت مرتفع : « عبودية جديدة ! ٠٠ هناك أمل فى هذه الفكرة ٠٠ اجل ، هناك شىء غير عادى فيها ٠ انها لاتبدو، لاول وهلة ، مستمرأة ٠٠ انهـا ليسـت كالكلمات الاخـرى : الحرية ٠٠ الابتهاج ٠٠ الاستمتاع ٠٠ ان لهذه الكلمات وقعا بهيجا حقا ، ولكنه لايتجاوز فى نظرى الوقع الصوتى ، فهـو أجوف ، عابر، حتى ليعتبر الانصات اليه مجرد تبديد للوقت٠٠

أما العبودية !٠٠ لابد ان هذه الكلمة تمثل حقيقة واقعة !٠٠ كل انسان يمكن ان يستعبد ٠ لقد استعبدت هنا لثمانى سنوات ، أما الآن ، فانى أرغب فى ان استعبد فى مكان آخر ٠ أليس بوسعى ان اختار عبوديتى وفق ارادتى ؟ أليس هذا أمرا جديرا بالتفكير ؟٠٠ اجل ، اجل ٠ ليست النهاية صعبة ، اذا تيسر لى ذهن نشيط يبتكر وسيلة الوصول الى غايتى ! »

واستويت جالسة فى فراشى لاوقظ ذلك الذهن ٠ وكانت الليلة قر ، فغطيت منكبى بالشال ، ثم استأنفت التفكير بكل ما أوتيت من طاقة : « ما الذى ابتغيه ؟ مكان جديد ، فى بيت جديد ، بين وجوه جديدة ، وتحت ظروف جديدة ؟!٠٠ انما أريد هذا ، لانه لاجدوى من وراء ان اريد شيئا أفضل !٠٠ ولكن ، ليف يظفر الناس بمكان جديد ؟ أظنهم يتصلون بالاصدقاء ٠ ولكن هناك كثيرين غيرى لم يؤتوا أصدقاء ما ، فهم مضطرون الى أن يبحثوا لانفسهم ، وان يساعدوا أنفسهم ، فما موردهم ؟ » ٠٠ لم يكن فى وسعى أن اهتدى الى جواب ٠ ومن ثم طلبت الى عقلى أن يبحث عن جواب ، وبسرعة ، فراح يجتهد، ويعمل مسرعا ٠٠ حتى أحسست من الاعياء بضربات فى رأسى وصدغى ٠ ولكنه ظل حوالى الساعة يتخبط فى ظلمات ،دون ان تثمر جهوده !٠٠ وبعث هذا الجهد الفاشل حمى فى كيانى ، فنهضت ، وجست خلال الحجرة ، وازحت الستارة ، فلمحت نجمة او آثنتين ٠ ثم ارتجفت من البرد ، فعدت الى السرير ٠٠ **واذا بجنية رحيمة قد أسقطت الحل المنشود على وسادتى ، فى غيابى ! اذ لم اكد استلقى على السرير ، حتى تسلل الجواب الى عقلى فى هدوء طبيعى : « اولئك الذين ينشدون مناصب ، يعلنون عن حاجتهم ، فعليك ان تنشرى اعلانا فى صحيفة (شايرهيرالد) ! »** ٠٠ ولكن ، كيف وأنا لا أدرى شيئا عن الاعلان ؟٠٠ وفى الحال ، قفزت الاجابات الى رأسى فى لطف :

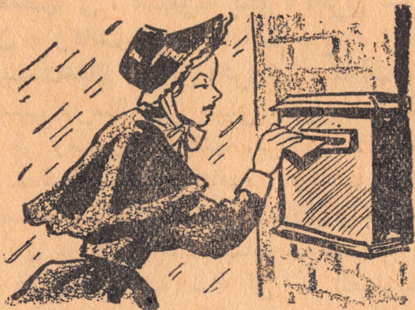
« يجب ان تضعى الاعلان والاجر الذى يستحق عنه ، فى ظرف موجه الى رئيس تحرير الصحيفة ، ثم اودعيه فى أول فرصة بريد (لوتون) ، واكتبى ان الردود يجب ان توجه الى «ج١٠» ، بمكتب البريد . وفى وسعك ان تذهبى وتسألى بعد حوالى اسبوع من ارسال الخطاب ، عما اذا كان ثمة ردود وصلت ، ثم تصرفى على هدى ذلك .. وراجعت هذا الحل مثنى، وثلاثا حتى هضمه عقلى ، فبات فى شكل واضح ، عملى .. وشعرت بالرضى ، فنمت !

* * *

◆ **ونهضت** مع اولى بواكير النهار ، فكتبت اعلانى ، وارفقته بالمبلغ ، قبل ان يدق الجرس لايقاظ المدرسة .. وكانت هذه صيغته :

« **شابة ذات خبرة بالتدريس** » ـ وكنت لم اعمل كمدرسة سوى عامين ! ـ « **ترغب فى عمل فى اسرة بها أطفال دون الرابعة عشرة** » ـ فقد خطر لى انه لم يكن يليق بى وأنا لم اتجاوز الثامنة عشرة ، ان اضطلع بارشاد تلاميذ يقاربوننى فى السن ـ « **وهى مؤهلة لتدريس الفروع العادية لمنهج تربوى انجليزى جيد ، مع اللغة الفرنسية ، والرسم ، والموسيقى** » ، ـ وكانت هذه القائمة المحدودة تبدو حافلة فى تلك الايام ايها القارىء ـ « **اكتبوا الى ج١٠ ـ مكتب بريد لوتون بمقاطعة ..** »

وظلت هذه الرسالة مودعة فى درجى طيلة النهار ، حتى اذا فرغنا من تناول الشاى ، استأذنت الناظرة الجديدة فى الذهاب الى (لوتون) لشراء بعض مهام لازمة لى ولواحدة أو اثنتين من زميلاتى المدرسات . وسرعان ما أذنت لى ، فذهبت . وكانت (لوتون) على بعد ميلين من المدرسة ، والامسية رطبة ، ولكن النهار كان لايزال طويلا ، فعرجت على متجر أو اثنين ، ثم ألقيت



الخطاب فى البريد ، وعدت تحت وابل من المطر ، والماء يتصبب من ثيابى .. ولكنى كنت مرتاحة الفؤاد .

ولاح الاسبوع التالى طويلا ، ولكنه مالبث ان انتهى ـ اخيرا ـ ووجدتنى مرة أخرى ، قبيل نهاية يوم مشرق من ايام الخريف، اسعى على قدمى الى (لوتون) . وكانت الطريق ـ بهذه المناسبة بديعة ، تمتد على طول جانب الغابة ، وخلال أبهى منعرجات المرتفع ، ولكنى فى ذلك اليوم كنت منصرفة بتفكيرى عن سحر الطبيعة الى الخطابات التى ربما كانت ـ او لم تكن ـ فى انتظارى ، فى القرية الصغيرة التى كنت أقصدها . وكانت المهمة الصورية ـ التى تعللت بها للذهاب ـ هى أن أترك مقاس قدمى للاسكافى كى يصنع لى زوجا من الاحذية . لذلك بادرت بانهاء هذه المهمة أولا .. حتى اذا فرغت منها ، عبرت الشارع الصغير الهادىء ، من متجر الاسكافى الى مكتب البريد الذى كانت تتولاه سيدة عجوز ، تلبس نظارة من « الباغة » على أنفها ، وكمين اسودين حول ذراعيها .. فسألتها : « هل هناك رسائل باسم ج.آ ؟ » . **فتفرست فى من فوق عدستيها ، ثم فتحت درجا عبثت بمحتوياته وقتا طويلا ـ بلغ من طوله ان بدأت آمالى تترنح ! ـ وأخيرا ، امسكت برسالة أمام عدستيها زهاء خمس**

دقائق ، ثم قدمتها لى ، مشفوعة بنظرة اخرى تنم عن تساؤل وعدم اطمئنان • وكانت الرساله باسم « ج ١٠ » ، فعدت اسألها : « أليست هناك رسائل اخرى؟ » ، فقالت : «لا مزيد!» • واذ ذاك دسست الرسالة فى جيبى ، ويممت شطر المدرسة ـ اذ لم يكن فى وسعى ان أفضها اذ ذاك ، لان القواعد كانت تلزمنى بالعودة قبل الساعة الثامنة ، وكانت وقتئذ قد بلغت السابعة والنصف ! ـ وكانت فى انتظارى واجبات عديدة عند وصولى : اذ كان على أن أراقب البنات فى ساعة الاستذكار ، ثم كان الدور دورى فى تلك الليلة كى اتلو الصلوات ، ثم اسلم التلميذات الى مراقدهن • وبعد ذلك تناولت عشائى مع المدرسات الاخريات • بل اننى لم أجد فسحة من فراغ بعد أن أوينا الى مخادعنا ، فان « مس جرايس » ـ التى لامفر منها ـ ظلت تفرض نفسها على ! ولم تكن لدينا سوى بقية قصيرة من شمعة فى الشمعدان ، فخشيت أن تظل زميلتى تتكلم حتى تحترق الشمعة عن آخرها • على ان العشاء الثقيل الذى تناولته لم يلبث أن أحدث اثرا منوما ، لحسن الحظ ، فسرعان ما انبعث غطيطها ، قبل ان أفرغ من خلع ثيابى • وكانت لاتزال ثمة بوصة باقية من الشمعة ، فتناولت الرسالة ، وكان الخاتم الذى أغلقت به يحمل الحرف « ف » ، ففضضتها ، ووجدت محتوياتها موجزة : « **اذا كانت ج١٠ التى نشرت اعلانا فى صحيفة « شاير هيرالد » يوم الخميس الماضى ، تتوفر لها المؤهلات المذكورة ، واذا كانت فى وضع يمكنها من ان تقدم شهادات تبعث على الرضى بشأن اخلاقها وكفاءتها ، فان ثمة منصبا معروضا عليها ، حيث لايوجد سوى تلميذ واحد ـ فتاة صغيرة دون العاشرة من العمر ـ وحيث المرتب ثلاثون جنيها فى العام • فالمرجو من ج١٠ ان ترسل شهاداتها ، واسمها ، وعنوانها ، وكل التفصيلات بهذا الصدد الى : مسز فيرفاكس ، بثورنفيلد ، بالقرب من ميلكوت ، مقاطعة ••** »

وتأملت الرسالة طويلا : كان الخط من طراز قديم ، وينم عن يد غير ثابتة ، كما لو كانت يد سيدة مسنة ٠ وكانت هذه بادرة مرضية ، اذ كان قد غشينى خوف من ان تتطلب منى الظروف ان أتصرف من تلقاء نفسى ، وبوحى من فكرى، فأتعرض للتورط فى مأزق !٠٠ ثم اننى كنت ارجو ــ قبل كل شىء ــ ان تكون نتيجة جرأتى حميدة ، سليمة ــ « فى موضعها » ، كما يقال ــ ومن ثم أحسست ان وجود سيدة مسنة عنصر لابأس به فى العمل الذى كنت مقدمة عليه ٠

« مسز فيرفاكس » ! ٠٠ وتمثلتها فى الثوب الاسود ، والقلنسوة ، اللذين ترتديهما الارامل ٠٠ وقد تكون باردة ، ولكنها ليست وقحة ٠٠ مثال للسيدة الانجليزية ، المسنة ، الوقور !

و (ثورنفيلد) ! ٠٠ لابد ان هذا كان اسم دارها ٠ ووقر فى نفسى انه مبنى انيق ، منظم ، وان اخفقت فى ان ارسم فى خيالى صورة لغرفه ٠٠

و (ميلكوت) !٠٠ ورحت استحث ما علق فى ذاكرتى من خريطة انجلترا ، حتى وقعت عليها ٠٠ على اسم المدينة ، واسم المقاطعة التى كانت أقرب الى لندن ــ بسبعين ميلا ــ من المقاطعة النائية التى كنت أقيم فيها ، وكان هذا مشجعا لى ! كنت أتوق الى الذهاب الى مكان فيه حياة وحركة ، وقد كانت (ميلكوت) مدينة صناعية كبيرة ، على ضفاف نهر (أ ٠٠٠) ، فهى مكان حافل بالحركة ولا شك ، وفى هذا كل الخير ، اذ سيكون مغايرا لكل ماخبرته من قبل ٠٠ لا لان خيالى قد افتتن بفكرة المداخن الطويلة ، وسحب الدخان ، وانما ــ كما قلت لنفسى ــ « قد تكون (ثورنفيلد) ، على مسافة كبيرة من المدينة » ! ٠٠ وهنا كانت الشمعة قد انتهت ، فانطفأ الضياء !

وكان لابد من اتخاذ خطوات جديدة فى اليوم التالى ، فلم

يعد في الوسع كتمان خططي في صدري ، بل لابد من انأبوح بها لاوفق في تنفيذها • لذلك سعيت الى الناظرة خلال فسحة الغداء ، وأنبأتها بأن أمامي احتمالا للحصول على منصب جديد بمرتب مضاعف ــ اذ لم أكن أتقاضى في لوود سوى خمسة عشر جنيها في العام ــ وسألتها أن تنوب عني في مفاتحة مستر بروكلهيرست ، أو أحد أعضاء اللجنة ، في الامر •• وانتتأكد مما اذا كانوا يسمحون لي بأن أذكرهم كمصدر يستطيع المخدوم الجديد ان يسأله عني ؟ •• وقبلت الناظرة راضية أن تتوسط في الامر • فلما كان اليوم التالي ، طرحت الموضوع على مستر بروكلهيرست ، الذى قال ان لابد من الكتابة الى مسز ريد ، لانها كانت الوصية على • ومن ثم وجهت رسالة الى السيدة ، فأجابت بأن لى ان أفعل ما أشاء ، لانها كفت منذ زمن طويل عن التدخل في شئوني ! •• ودارت هذه الرسالة على أعضاء اللجنة ، وبعد مدة خلت انها أطول وأسوأ ما كان يعطلني ، صدر الاذن رسميا بأن لى ان أعمل على تحسين حالى كيفما أستطيع ، مع التأكيد بأننى كنت دائما حسنة السلوك والتصرف ، سواء كمدرسة أو كتلميذة فى (لوود) ، واننى سأزود بشهادة عن أخلاقى وكفاءتى ، يوقعها مفتشو المعهد • وفعلا تسلمت هذه الشهادة فى خلال شهر ، فأرسلت نسخة منها الى « مسز فيرفاكس » ، وتلقيت رد السيدة بأنها اقتنعت بصلاحيتى ، وحددت يوما بعد أسبوعين لاتسلم عملى كمربية فى دارهــا • ومن ثم انهمكت فى اتخــاذ أهبتى ، وسرعان ما انقضى الاســبوعان ، ولم أكن أملك ثيابا كثيرة ، غير أن ماكنت أملكه كان يكفى حاجتى • وكان اليــوم الاخير لى فى (لوود) كافيا لان أرتب حقيبتى ــ عين الحقيبة التى أحضرتها معي من (جيتسهيد) منذ ثمانى سنوات ! ــ ثم حزمتهــا ، و ثبت اليها بطاقة باسمي ، ولم يبق سوي نصف ساعة حتي

يفد الحمال لينقلها الى (لوتون) ، حيث ألحق بها فى ساعة مبكرة من الصباح التالى ، عندما أذهب لانتظر عربة السفر

ونظفت ثوب السفر الاسود ، وأعددت قبعتى وقفازى وملفحتى ، وفتشت جميع أدراجى لاستوثق من اننى لم أنس شيئا خلفى • **ولما لم يبق أمامى ما أفعله ، جلست وحاولت ان أحظى بقسط من الراحة •• ولكنى لم أستطع ، رغم اننى كنت قد قضيت طيلة اليوم واقفة على قدمى •• لم أستطع ان أستريح لحظة ، فقد كنت شديدة الانفعال • كانت ثمة صفحة من حياتى تغلق فى تلك الليلة ، لكى تفتح صفحة جديدة فى الغد •• فلم يكن من الممكن ان يغمض لى جفن فيما بين الفترتين ، بل كان لابد من ان أظل يقظة محمومة ، أرقب الانقلاب الذى كان يجرى**

وقالت خادم صادفتنى فى البهو ، حيث كنت أهيم كروح قلقه : « هناك شخص يا آنسة فى الطابق الاسفل يرغب فى أن يراك » •• فقلت لنفسى : « لابد أنه الحمال » ، وهبطت السلم دون أن أتحرى • وفيما كنت أجتاز القاعة الخلفية ـ أو حجرة جلوس المدرسات ـ التى كان بابها مواربا ، فى طريقى الى المطبخ ، اذا بامرأة تجرى خارجة منها •• وصاحت تلك المرأة وقد اعترضت طريقى وأمسكت بيدى : « انها هى •• اننى متأكدة ! ان بوسعى ان أعرفها أينما تكون ! » •• ونظرت ، فرأيت المرأة ترتدى ثيابا كثياب الخادم الراقية ، وكأنها رئيسة خدم ، رغم أنها كانت لاتزال شابة ، مليحة جدا ، ذات شعر وعينين سوداء ، وبشرة لطيفة •• وعادت تهتف فى صوت وابتسامة كدت أعرفهما : « حسنا ، هل عرفتنى ؟ •• ما أظنك نسيتنى يامس جين ؟ »

وفى اللحظة التالية ، كنت أعانقها وأقبلها فى شوق ودهشة : « بيسي ! •• بيسي ! •• بيسي ! » • ظللت أهتف



هكذا ، فاستقبلت هي ندائي نصف باكية ، ونصف ضاحكة، ثم مضينا معا الى حجرة الجلوس • والى جانب المدفأة ، كان ثمة طفل في الثالثة من عمره ، في قميص وبنطلون • وبادرت بيسى قائلة : « هذا ابنى الصغير »

ـ اذن فأنت قد تزوجت يابيسى ؟

ـ أجل ، منذ خمس سنوات تقريبا •• تزوجت من روبرت ليفن ، الحوذى •• ولى منه ابنة أخرى عدا « بوبى » هذا ، أسميتها « جين » !

ـ أو لا تسكنين فى (جيتسهيد) ؟

ـ بلى ، اننى أقيم فى بيت البواب ، فان البواب القديم قد رحل

ـ حسنا ، وكيف حالهم جميعا ؟•• أنبئينى بكل شيء عنهم يابيسى • ولكن ، اجلسى أولا •• وانت يابوبى ، تعال فاجلس على ركبتى •• هلا جئت ؟

ولكن بوبى آثر ان يتمسح فى أمه •• واستأنفت « مسز ليفن » حديثها : « انك لم تزدادى فى الطول كثيرا يامس جين، ولم تسمنى بدرجة تذكر ، وما أرى الا أنهم لم يحسنوا تغذيتك فى المدرسة ، ان مس ريد أطول منك بكتف ورأس ،

ومس جورجيانا فى عرضك مرتين ! »

فقلت : « أظن جورجيانا جميلة يابيسى ؟ »

ـ جدا ٠٠ لقد ذهبت الى لندن فى الشتاء الماضى مع أمها ، وهناك أعجب بها كل امرىء ، ووقع لورد شاب فى غرامها ، ولكن علاقتهما لم تقم على تكافؤ . فماذا تظنين ؟٠٠ لقد دبر الشاب الامر مع مس جورجيانا على أن يفرا معا ، ولكن أمرهما اكتشف ، فأوقفا !٠٠ وكانت مسز ريد هى التى كشفتهما ، واعتقد انها كانت تحسدهما ٠ وهى وأختها الآن تعيشان كما يعيش القط مع الكلب ، فهما تتشاجران دائما !

ـ وما أنباء « جون ريد » ؟

ـ آه ، انه ليس كما تروم أمه ٠ لقد ذهب الى المدرسة الثانوية ، ورسب ٠ ثم رغب أخواله فى ان يغدو محاميا ، فأصبح يدرس القانون ، ولكنه شاب بالغ الفساد ، وما أظنهم سيخلقون منه انسانا ناجحا !

ـ وما شكله ؟

ـ انه جد طويل ٠٠ وبعض الناس يصفونه بأنه مليح ،ولكن له شفتين غليظتين

ـ ومسز ريد ؟

ـ ان السيدة قد صارت بدينة ، ولا تزال مليحة الوجه ، ولكنى أظن ان عقلها ليس متزنا ٠ ثم ان سلوك مستر جون لا يرضيها ، فهو ينفق نقودا كثيرة

ـ هل هى التى أوفدتك الى هنا يابيسى ؟

ـ لا ، فى الحق ٠٠ ولكنى طالما رغبت فى ان أراك ، فلما سمعت بأن خطابا وصل منك ، وأنك ذاهبة الى بلد آخر ، رأيت أن أجىء ، وأن أراك قبل ان تصبحى أبعد من ان أصل اليك

ـ أخشى ان يكون أملك قد خاب فى يابيسى !؟

قلت ذلك ضاحكة ، اذ لاحظت ان نظرة بيسى وان عبرت عن احترام ، الا أنها لم تنم عن شيء من الاعجاب .. ولكنها بادرت هاتفة : « **لا ، يامس جين ، ليس تماما .. انك راقية الى درجة كبيرة ، وانك لتبدوين سيدة محترمة ، وهذا ماكنت أرتقبه لك ، فانك لم تكونى جميلة فى طفولتك** »

وابتسمت لجواب بيسى الصريح ، وشعرت بأنه كان صحيحا ، ولكنى اعترف بأننى لم أتلق عبارتها الاخيرة بغير اهتمام ، فان معظم الناس يودون فى الثامنة عشرة أن يروقوا للغير ، ومن ثم فان اقتناعهم بأن منظرهم الخارجى لايحقق شيئا قريبا من هذه الرغبة ، لايبعث فى نفوسهم الرضى أو الاغتباط

وتابعت بيسى قولها : « على اننى أومن بأنك ماهرة .. ما الذى تتقنينه ؟.. هل تجيدين العزف على البيانو ؟ »

ـ بقدر بسيط

وكان ثمة « بيانو » فى الحجرة ، فسارت « بيسى » اليه وفتحته ، ثم دعتنى الى ان أعزف لها شيئا ، فوقعت عليه لحنا أو اثنين .. وبدا الاعجاب على بيسى ، وقالت فى نشوة : « **ان الآنستين « ريد » لا تجيدان العزف مثلك !.. لقد كنت دائما أقول انك ستتفوقين عليهما فى التعلم . وهل تجيدين الرسم ؟** » .. فقلت : « هذا واحد من رسومى فوق المدفأة ».. وكان منظرا طبيعيا بالالوان المائية ، أهديته الى الناظرة ، اعترافا بوساطتها الموفقة لدى اللجنة من أجلى ، فأحاطته باطار وزجاج .. وهتفت بيسى : « انه جميل يامس جين !.. انها صورة بديعة لا تقل جمالا عن أية صورة يستطيع المدرس الذى يعلم مس ريد ان يرسمها ، فما بالك بالآنستين نفسيهما ؟.. ليس فى وسعهما ان ترسما شيئا قريبا منه .. وهل تعلمت الفرنسية ؟ »

ـ أجل يابيسى .. أستطيع ان أقرأ وأتحدث بها

– وهل تعرفين التطريز على الحرير والتيل ؟

– أجل

– اذن فأنت سيدة راقية حقا يامس جين !٠٠ كنت أتوسم انك ستصبحين هكذا ، وسوف تمضين فى الحياة قدما ،سواء رعاك أقاربك أو لم يرعوك ٠٠ ولكن : هناك شىء كنت أود أن أسألك عنه ؟٠٠ هل سمعت قط عن أهل أبيك ٠٠ آل اير ؟

– أبدا ٠٠ لم أسمع عنهم فى حياتى على الاطلاق !

– أنك تعرفين ان السيدة كانت تقول دائما انهم فقراء ، جديرون بالازدراء ٠٠ وهم قد يكونون فقراء فعلا ، ولكنى أعتقد انهم لايقلون عراقة أصل ومحتد عن آل « ريد » ، اذ حدث ذات يوم – منذ سبع سنوات – ان قدم الى (جيتسبهيد) سيد من آل « اير » ورغب فى ان يراك ، فقالت السيدة انك فى مدرسة تبعد خمسين ميلا ، واذ ذاك بدا عليه الاستياء ، لانه لم يكن يملك ان يمكث فى انجلترا حتى يزورك ، اذ كان راحلا الى دولة خارجية ، وكانت السفينة تزمع الاقلاع من لندن بعد يوم أو اثنين ، وكانت تبدو عليه سيماء السادة ، وأعتقد انه كان أخ أبيك !

– وأية دولة أجنبية كان راحلا اليها ؟

– جزيرة على بعد آلاف الاميال ، يصنع فيها النبيذ ٠٠ كما ذكر لى الساقى

فقلت : « أهى (ماديرا) ؟ »

– أجل ٠٠ هى ٠٠ هذه نفس الكلمة !

– واذن فقد رحل ؟

– أجل ٠٠ انه لم يمكث عندنا سوى دقائق ، اذ كانت السيدة مسرفة فى التعالى عليه ، وقد وصفته بعد ذلك بأنه « تاجر ذليل » ٠٠ ويعتقد روبرت – زوجى – انه كان تاجر نبيذ

ـ من المحتمل جدا ٠٠ أو لعله كان موظفا أو وكيلا لاحد تجار النبيذ

وتحدثت مع بيسى عن الايام الخوالى ساعة أخرى ، ثم اضطرت هى للانصراف ٠٠ وفى الصباح التالى رأيتها ثانية ـ فى (لوتون) ـ لبضع دقائق ، وانا أنتظر العربة ٠٠ ثم افترقنا أخيرا لدى باب فندق (بروكلهيرست) هناك ،واتخذت كل منا طريقا غير طريق الاخرى : أما هى ، فيممت شطرحافة هضبة (لوود) ، لتنتظر العربة التى كانت ستقلها فى عودتها الى (جيتسهيد) ٠٠ وأما أنا فقد صعدت الى العربة التى أقلتنى الى مقر واجباتى الجُديدة ، وحياتى الجديدة ، فى مكان لم أكن أعرف عنه شيئا ، بالقرب من (ميلكوت)



الفصل الحادى عشر

♦ ان فصلا جديدا فى رواية ليشبه منظرا جديدا فى مسرحية ٠٠ ولذلك فاننى عندما ارفع الستار فى هذه المرة ، أدعوك أيها القارىء الى أن تتخيلنى جالسة فى حجرة بفندق « جورج » فى بلدة (ميلكوت) ، وقد غطى الجدران ورق مزخرف كالذى يغطى جدران حجرات الفنادق ٠٠ ومن حولى سجاد ، وأثاث ، وأدوات للزينة تعلو الموقد ، وصور عديدة : من بينها صورة الملك « جورج الثالث » ، وصورة ولى عهد انجلترا ، وثالثة تمثل وفاة « وولف »٠٠ كل ذلك يبدو لك تحت نور مصباح من الزيت يتدلى من السقف ، وعلى ضوء نار قوية جلست أنا بجوارها ، مرتدية معطفى وقبعتى ، بعد ان وضعت فراء يدى ومظلة المطر على منضدة ٠ جلست أدفىء جسمى من البرد بعد أن تعرضت ست عشرة ساعة لرطوبة أكتوبر وبرودته ، فقد غادرت (لوتون) فى الرابعة صباحا ، وها هى الساعة فى ميلكوت تدق الثامنة

واذا كنت أبدو للقارىء وقد توفرت لى أسباب الراحـة ، الا اننى لم أكن مستريحة البال ، لاننى كنت أتوقع ان أجد عند وصولى أحدا فى انتظارى ٠ وتلفت حولى فى قلق ـ وانا أهبط السلم الخشبى الذى وضعه خادم الفندق توفيرا لراحتى ـ اذ كنت أتوقع ان أسمع من ينطق باسمى ، وان أرى بعض أوصاف العربة التى تنتظرنى لتحملنى الى (ثورنفيلد) ٠٠ ولكنى لم أر شيئا من ذلك ! وعندما سألت الخادم عما اذا كان ثمة من سأل عن « مس اير » ، أجابنى بالنفى ٠ ولذلك لم يكن أمامى من سبيل سوى ان أطلب اقتيادى الى

حجرة خاصة .. وها انا ذى انتظر ، بينما تنتهب افكارى كل ضروب الشكوك والمخاوف !

انه لشعور جد عجيب ان يرى الشباب نفسه - وهو لم تصقله التجارب بعد - وقد أصبح فى معزل تام عن العالم ، وأخذ يسبح مع التيار - دون ان تربطه أية رابطة بانسان ! - والشك يساوره فى الوصول الى أى ميناء ،وثمة موانع جمة تحول دون عودته الى المكان الذى غادره من قبل .. ولكن سحر المغامرة يضفى حلاوة على هذا الشعور ، كما يبعث فيه بريق الزهو والكبرياء ، دفئا . بيد ان وجيب الخوف لايلبث ان يعكر صفوه ، فقد طغى على شعور بالخوف عندما انقضى نصف ساعة وأنا لا أزال بمفردى !.. وحدثتنى نفسى بأن أدق الجرس ، ثم سألت الخادم حين لبى دعوتى : « هل يوجد بالقرب من هنا مكان يدعى (ثورنفيلد) ؟ »

- (ثورنفيلد) ؟ لا أدرى ياسيدتى . سأسأل فى المشرب

ثم اختفى ، ولكنه عاد بعد لحظات يقول : « هل اسمك « اير » يا آنسة ؟»

- نعم

- ان شخصا هنا فى انتظارك

فوثبت واقفة وأخذت فراء يدى ومظلتى ثم اسرعت الى دهليز الفندق حيث كان يقف رجل عند الباب المفتوح . ورأيت فى نور مصباح الطريق الخافت عربة يجرها جواد واحد . وقال الرجل فى اقتضاب وهو يشير الى حقيبتى فى الدهليز : « هذا متاعك على ما أظن ؟ »

- نعم

فحمله الى العربة ، وعندئذ ركبتْ . وقبل أن يغلق الباب على سألته عن المسافة الى (ثورنفيلد) ، فقال : « حوالى ستة أميال »

- فى كم من الزمن نصل الى هناك ؟

- فى حوالى ساعة ونصف

ثم أغلق باب العربة جيدا وصعد الى مقعده الخارجى ، وانطلق بالعربة على مهل ، مما أتاح لى وقتا كافيا للتأمل والتفكير : كنت مرتاحة فى نهاية الامر لاننى أقترب من نهاية رحلتى . وعندما اضطجعت فى العربة المريحة - وان لم تكن أنيقة - استرسلت كما أشاء فى تأملاتى ، وقلت أحدث نفسى :« أستطيع ان أستدل من بساطة الخادم والعربة ان « مسز فيرفاكس » ليست على جانب كبير من الثراء ، ولكن هذا أفضل كثيرا ، لاننى لم أعش سوى مرة واحدة بين قوم أغنياء ، وكنت معهم غاية فى البؤس والشقاء !.. واننى لاتساءل : هل تعيش مخدومتى مع أحد غير ابنتها الصغيرة ؟ فاذا كان الامر كذلك ، وكانت البنت ظريفة أنيسة الى حد ما ، فاننى بكل تأكيد ساقوى على الحياة معها ،

وسابذل قصارى جهدى - وان كان من المؤسف ان يبذل الانسان احيانا قصاراه ، دون ان يوفق على الدوام ! - والواقع اننى فى (لوود) حزمت رأيى على ذلك ، وحافظت على قرارى ، فوفقت الى ارضاء الجميع !٠٠ أما مع « مسز ريد » فاذكر أننى بذلت ما أستطيع ، فلم ألق سوى الامتهان والازدراء ! ولذلك أضرع الى الله أن لا أجد فى مسز فيرفاكس « مسز ريد أخرى » !٠٠ أما اذا كانت كذلك ، فلست مضطرة الى المكث معها ، واذا وقع أسوأ ما أتوقعه ففى وسعى أن أنشر اعلانا آخر ٠٠ ثم تساءلت : كم قطعنا من الطريق حتى الآن ؟

وأنزلت النافذة ثم أطللت برأسى : كانت (ميلكوت) خلفنا ، واستدللت من تعدد انوارها على انها مكان على جانب كبير من الاتساع ٠٠ أوسع كثيرا من (لوتون) ٠٠ وعلى قدر ما استطعت ان أتبين وجدتنى فيما يشبه ساحة عامة، ولكن كانت البيوت تتناثر بكثرة فى أرجاء ذلك الاقليم ٠ وشعرت باننى فى منطقة تختلف عن (لوود) ٠٠ منطقة أكثر منها سكانا واقل جمالا فى مناظرها، وأصخب منها حركة ، واقل روعة

وكانت الطريق شاقة ، والليل كثير الضباب ، فترك الحوذى العنان للجواد ليسير على مهل ٠٠ وامتدت الساعة والنصف - بلا ريب - الى ساعتين ٠٠ وأخيرا استدار فى مقعده وقال : « لست الآن بعيدة عن (ثورنفيلد) ! »

فاطللت برأسى مرة أخرى ، ووجدتنا نمر بكنيسة ٠٠ رأيت برجها المنخفض العريض مشرئبا الى السماء ، وسمعت جرسها يدق ربع الساعة ٠ كماشاهدت كوكبة من الاضواء على جانب من التل ، تميز قرية أو دسكرا ٠ وبعد حوالى عشر دقائق ، نزل السائق وفتح بوابتين مررنا خلالهما ثم سمعنا صليلهما من خلفنا ٠ وبعد ذلك صعدنا ببطء فى طريق منحدر حتى بلغنا واجهة طويلة لمنزل ينبعث ضياء شمعة من احدى نوافذه المسدولة الستائر ، بينما كانت بقية النوافذ مظلمة ٠ وتوقفت العربة امام الباب الخارجى الذى فتحته احدى الخادمات ، فنزلت ودخلت ، تتقدمنى الخادمة الى بهو مربع انبثت فى ارجائه أبواب عالية ٠ وأدخلت الى حجرة بهرتنى فى أول الامر باضواء مزدوجة ، من النيران والشموع ، لا تتفق مع الظلمة التى اعتادتها عيناى طيلة أكثر من ساعتين ٠٠ فلما استطعت مع ذلك ان أتبين ما أمامى ، شاهدت منظرا أنيقا مقبولا : حجرة مريحة صغيرة ، بها مائدة مستديرة بالقرب من موقد تشتعل فيه النار ٠٠ ومقعد بمسندين ، عالى الظهر ، وان كان من الطراز القديم ،وقد جلست فيه « أنظف » سيدة يمكن ان يتصورها الخيال : سيدة ضئيلة الجسم، متقدمة فى السن ، ترتدى قبعة حداد وعباءة سوداء من الحرير ، ومرولة من « الموسلين » الناصع البياض ٠٠ صورة طبق الاصل لمسز فيرفاكس كما تخيلتها

من قبل ، وان جاءت أقل بهاء وجمالا . وكانت منهمكة فى شغل الابرة ،وقد جلست عند قدميها قطة كبيرة فى رزانة واحتشام . وقصارى القول ، لم يكن ينقصها شيء لاستكمال المثل الاوفى للراحة المنزليـــة . والحق اننى لم أكن اتصور مقدمة مثل هذه تطمئن مربية جديدة ، ولا عظمة كهذه تغمر كل شيء ، أو فخامة تربك وتذهل !.. وأخيرا دخلت ، فنهضت السيدة العجوز وتقدمت من فورها فى حنان لاستقبالى ، قائلة : « كيف حالك ياعزيزتى ؟ أخشى ان تكون الرحلة قد أتعبتك ، لان « جون » يقود العربة ببطء شديد . لابد أنك تحسين بالبرد .. تعالى اقتربى من النار »

قلت : « أظنك مسز فيرفاكس ؟ »

ـ نعم . أنت على حق .. اجلسى

ثم قادتنى الى مقعدها ومضت تخلع عنى شالى ، وتفك أشرطة قبعتى الصغيرة .. فتوسلت اليها ان لا تحمل نفسها كثير عناء ، لكنها أجابتنى : « أوه .. لاعناء فى ذلك ولا تعب . اظن يديك قد خدرهما البرد .. اعدى يا « لياه » شرابا ساخنا (١) ، وشطيرة « سندويتش » أو اثنتين .. ها هى مفاتيح حجرة المؤونة »

ثم أخرجت من جيبها عنقودا من المفاتيح يليق بربة بيت ، سلمته للخادمة.. واستطردت تحدثنى : « والآن اقتربى من النيران . لقد جئت بمتاعك معك ، أليس كذلك ياعزيزتى ؟ »

ـ أجل ياسيدتى

ـ سآمر بحمله الى غرفتك

ثم انطلقت الى خارج الغرفة فى جلبة وضوضاء ، فقلت احدث نفسى : « انها تعاملني كما لو كنت زائرة ! وما كنت أتوقع مثل هذا الاستقبال ، بل كنت أتوقع فتورا وغلظة !.. هذا يخالف ما سمعته عن معاملة المربيات ، ولكن .. يجدر بى ألا أبتهج بهذه السرعة ! »

وعادت السيدة فرفعت بيديها أشغال الابرة ، كما رفعت كتابا أو اثنين من فوق المنضدة ، لتفسح مكانا للصينية التى جاءت بهـــا « لياه » اذ ذاك ، ثم قدمت لى بنفسها الشراب !.. وشعرت بالارتباك عندما وجدتنى موضع اهتمام لم القه من قبل ـ وبخاصة من مخدومتي ورئيستي ! ـ ولكنى عندما وجدتهـــا لاتعتبر ماتفعله شيئا ليس فى موضعه ، آثرت ان أتلقى لطفها ومجاملتها فى هدوء..

---

(١) شرابا يتكون من مزيج من الخمر ، والماء ، والسكر ، وجوز الطيب ، وعصير الليمون !

ثم سألتها ، بعد ان تناولت بعض ماقدمته لى : « هل سأحظى الليلة بلقـاء مس فيرفاكس » ؟ »

فقالت السيدة الطيبة وهى تقترب بأذنها من فمى : « ماذا قلت ياعزيزتى ؟ اننى ثقيلة السمع » .. فأعدت السؤال بصوت واضح . وكان جوابها : « مس فيرفاكس ؟ أوه .. انك تعنين مس « فارنس » ! ان « فارنس » هـو اسم تلميذتك الجديدة »

ـ حقا ؟ اذن فهى ليست ابنتك ؟

ـ كلا ، فأنا لا عائلة لى

وكان فى وسعى ان أتابع تحرياتى الاولى فأسألها عن علاقتها بمس فارنس ، ولكننى أدركت ان ليس من الادب أن أطرح كثيرا من الاسئلة .. هذا الى اننى كنت واثقة من اننى سأسمع ما أريد ، فى الوقت المناسب !

وجلست أمامى وأخذت قطتها على ركبتهـا ، ثم استرسلت تقول : « انا مغتبطة .. مغتبطة جدا بحضورك ، لانه مما يبهج جدا أن يعيش الانسان هنا الآن ، بل فى كل وقت ، مع رفيق يؤنسه . ان (ثورنفيلد) قصر جميـل قديم ، أهمل شأنه كثيرا فى السنوات الاخيرة ولكنه لايزال مكانا محترما . وأنت تعلمين أن الانسان فى الشتاء يشعر بالوحدة شعورا موحشـا ، حتى فى خير الامكنة .. أقول الوحدة لان « لياه » فتاة ظريفة بكل تأكيد ، كمـا ان « جون » وزوجته فى غاية الدماثة ، ولكن سترين انهم جميعا مجرد خدم.. ولا يمكن أن نخاطبهم على قدم المساواة ، بل يجب ان نقصيهم الى الحد الذى لا نخشى عنده أن نفقد سلطاننا عليهم . والحق أنه فى الشتاء الماضى ـ وكان شتاء جـد قارس اذا كنت تذكرين .. فحتى عنـدما كان الثلج يكف عن الانهمار ، كانت السماء تمطر ، والرياح تهب وتعصف ! ـ لم يطرق هـذا المنزل مخلوق ، فيما عدا القصاب وساعى البريد ، من نوفمبر حتى فبراير !.. بحيث استبد بى الاسى والاكتئاب لجلوسى بمفردى ليلة بعد ليلة . وكانت « لياه » تقرأ لى أحيانا ، ولكننى لا أعتقد ان الفتاة المسكينة كانت مغتبطة بهذه المهمة ، بل كانت تعتبر نفسها فى سجن ! أما فى الربيع والصيف فتتحسن أحوال الانسان وتتغير كثيرا بفضل أشعة الشمس وطول النهار .. ثم بعـد ذلك ، فى بداية هذا الخريف ، قدمت الصغيرة « آديلا فارنس » ومعها مربيتها .. والاطفال سرعان ما يدخلون البهجة على المنزل !.. والآن وقد جئت أنت الى هنا ، فسوف أكون فى غاية السرور .. »

والواقع أن قلبى انشرح لهذه السـيدة الفاضلة عندما سمعت حـديثها ، فاقتربت بمقعدى منها ، وعبرت لها عن رغبتى المخلصة فى أن تجد فى رفقتى ماترجوه من سرور .. فقالت : « ولكننى لن أبقيك الليلة الى ساعة متأخرة ،

فها هو الليل ينتصف ، كما انك كنت فى رحلة طوال اليوم ولابد انك تشعرين بالتعب ٠٠ فاذا كانت قدماك قد دفئتا تماما فسأقودك الى مخدعك. انني أعددت لك الحجرة الملاصقة لحجرتي ٠ وهي غرفة صغيرة ، ولكنى اعتقد انك سوف تفضلينها على الغرف الكبيرة الامامية ، لان هـذه وان كانت فى الواقع أفخم رياشا ، الا انها موحشة ومنعزلة ، حتى انى - أنا نفسى - لا أنام فيها اطلاقا ! »

فشكرتها على حسن اختيارها ٠٠ وكنت أشعر حقيقة بالتعب ، بعد رحلتى الطويلة ، فأبديت استعدادى للذهاب الى مضجعى ، وعندئذ تناولت الشمعة فتبعتها ٠ وبدأت أولا بالتأكد من ان باب الردهة مغلق ، ثم انتزعت مفتاحه من القفل وقادتنى الى الطابق العلوى ٠ وكان السلم والافريز (الدرابزين) من خشب البلوط ، بينما كان شباك السلم عاليا ومغطى بالدانتلا ٠٠ كما كان هو والدهليز الطويل المفضى الى أبواب مخدع النوم يبدوان كما لو كانا فى كنيسة ، لا فى بيت من البيوت ٠ وكان الدرج والدهليز يتخللهما هـواء بالغ البرودة ، مما يعطى فكرة غير مبهجة عن مدى اتساعهما وعزلتهما ٠ وأخيرا فرحت بدخول مخدعى ، وبأنه مؤثث أثاثا حديثا عاديا

وعندما حيتنى مسز فيرفاكس تحية المساء ، فى حنان واشفاق ، أغلقت بابى ثم رحت احملق فيما حولى ٠٠ الى أن انمحى بعض التأثير المروع الذى تركه فى نفسى اتساع البهو وظلام الدرج الفسيح وطول الدهليز البارد ،بفضل منظر حجرتى البهيج ، ولانى تذكرت اننى - بعد يوم من التعب الجثمانى والقلق النفسى - قد وجدت نفسى أخيرا فى مأوى آمن هادىء !٠٠ وزخر قلبى بالشعور بالشكر والامتنان ، فركعت بجانب الفراش وقدمت الحمد لمن يستحق الحمد ، دون أن أنسى - قبل ان انهض - أن ألتمس منه المعونة على المضى فى طريقى ، والقدرة على ان أكون أهلا للعطف الذى أغدق على قبل ان أعمل على استحقاقه ٠ وفى تلك الليلة خلا مضجعى من الاشواك ، كما خلت غرفتى المنعزلة من المخاوف ٠ وسرعان ما استغرقت فى النوم ، مكدودة الجسم راضية النفس ٠٠ فلما صحوت ، كانت الشمس فى رائعة النهار

وبدت لى حجرتى مكانا مشرقا كل الاشراق ، وقد سطعت الشمس خلال الاستار المصنوعة من الشيت الازرق الزاهى ، فكشفت بضيائها عن جدران يغطيها الورق ، وارض يكسوها السجاد ٠٠ وبالجملة ، عن صورة لا تشبه ما فى (لوود) من الواح عارية ومصيص ملطخ متسخ !٠٠ واذ ذاك سمت روحى لهذا المنظر الجميل ، وخيل الى اننى أبدا فى الحياة عهدا أجمل٠٠ عهدا له زهوره ومسراته بقدر ما له من أشواك ومتاعب ٠ ودبت الحياة بعنف فى أوصالى بعد ان تيقظت الى هذا التغيير فيما يحوطنى من مناظر ، وبعد انبعث

فى نفسى الامل هذا الحقل الجديد الذى الفيتنى فيه ـ وان لم استطع ان احدد بالضبط ماكنت أرجوه من المستقبل وأتوقعه ، فيما عدا ان يكون شيئا سارا على أية حال ٠٠ شيئا قد لايقع اليوم أو فى مثل هذا اليوم من الشهر القادم ، بل فى فترة مستقبلة لا سبيل الى تحديدها !

ونهضت من فراشى فارتديت ملابسى بعناية واهتمام ـ وكنت مكرهة على ارتداء ملابس بسيطة ، لان أى رداء من اردیتى لم يكن الا بسيطا فى صناعته ـ وكنت بطبيعتى كثيرة العنـاية بنظافتى ، ولم يكن من عادتى ألا أكترث لمظهرى أو الاثر الذى أتركه فى الآخرين ٠٠ بل كنت على العكس دائمـة الحرص على أن أبدو فى أحسن رواء ، وأن أستميل من استطيع استمالته ، مادمت أفتقر الى الجمال !٠٠ ولطالما أسفت لاننى لم أكن أكثر جمالا ٠٠ بل لطالما تمنيت ان يكون لى خدان متوردان ، وأنف مستقيم ، وفم صغير ، قانى اللون ٠٠ كما تمنيت أن تكون لى قامة فارعة ، جليلة ، ممشوقة ! وشعرت أنه من نكد طالعى أن أكون غاية فى ضآلة الجسم ، وشحوب الوجه ، وعدم اتساق الملامح ، ودمامة الخلقة ٠٠ ولكن ترى لماذا تنتهبنى هـذه الامانى ويستبد بى هذا الندم ؟! يصعب أن أجيب عن ذلك ، حتى لنفسى ، وان كان لدى لذلك سبب منطقى وسبب طبيعى كذلك : فما ان مشطت شعرى وارتديت معطفى الاسود الانيق ، وسويت صدارى الناصع البياض ، حتى رأيت من واجبى ان أظهر أمام مسز فيرفاكس بمظهر محترم ، وأن أعمل على الاقل على ألا تنفر منى تلميذتى !٠٠ وأخيرا فتحت النافذة ، حتى اذا وجدت كل شىء مرتبا نظيفا فى مكانه فوق منضدة الزينة ، غادرت حجرتى ٠٠ فاجتزت الردهة الطويلة المغطاة بالسجاجيد ، وهبطت درجا من البلاط الزلق ، لاصـل الى البهو ، حيث توقفت لحظـات لاتطلع الى بعض الصور المعلقة على الجـدران (واذكر أن احداها كانت تمثل رجلا متجهم الاسارير يرتدى درعا ، وسيدة معفرة الشعر بالمساحيق ، تحيط بجيدها قلادة من لؤلؤ) ٠٠ كما اخذت أتأمل مصباحا من « البرونز » يتدلى من السقف ، وساعة كبيرة ذات اطار من خشب البلوط تعلوه نقوش عجيبة الشكل ، اسودت من طول الزمن حتى غدت فى لون الابنوس ٠ وبدا كل شىء لعينى فى منتهى الفخامة والابهة ، على ضآلة نصيبى من اعتياد العظمة والابهة ٠ وكان باب البهو مفتوحا ، وقد صـنع نصفه من زجاج ، فاجتزت عتبته ٠ كان فى الخارج صـباح جميل من أيام الخريف ، والشمس ترسل أشعتها الصافية على المروج الداكنة والحقـول الخضراء ، فتقدمت الى المرج المعشوشب ثم رفعت عينى لاتطلع الى واجهـة القصر : كان يرتفع الى ثلاثة طوابق ، غير فسيحة ولكنها موفورة الاتساع ، بحيث تليق كمسكن لسيد يقيم فى الارياف ، لا كمقر لنبيل من النبلاء ٠

وكانت شرفات القصر التى تحيط بهامته تضفى عليه منظرا جميلا ، وواجهته تنتهى ببرج للحمام تتطاير منه حمائمه المجنحة فوق المروج وهى تهدل هديلها الجميل ، ثم تهبط الى مرعى كبير يفصله عنها سور غائر فى الحقول . وفى هذا المرعى رأيت صفا من أشجار الشوك تبدو قوية عريضة ، أشبه بأشجار البلوط - ولعل من هذا المنظر اشتق المنزل لقب (القصر) الذى أطلق عليه - وعلى مسافة بعيدة ، رأيت تلالا غير شامخة الارتفاع كالجبـال التى تحيط بلوود ، وليست كالحواجز الشاهقة التى تكاد تفصلها عن العالم الملىء بالحركة والحياة ، ولكنها كانت مـع ذلك تلالا هادئة منعزلة تحتضن (ثورنفيلد) وتعزلها بصورة لم أكن أتوقعها على مقربة من مكان مثل (ميلكوت) يضطرب بالحياة . وبالقرب من ثورنفيلد ، كانت تقوم كنيسة المقاطعة ، ببرجها العالى القديم المطل على ربوة تقع بين المنزل والبوابات . وفيما كنت أتأمل مغتبطة هذا المنظر الساجى ، وأنعم بالهواء العليل ، كانت أذناى تصغيان بابتهاج الى هديل الحمائم ، وعيناى تتصفحان مدخل البهو الواسع الموحش . وعنـدما أخذت أتساءل كيف تعيش سيدة بمفردها فى مثل هذا المكان الكبير ، ظهرت مسز فيرفاكس فى مدخل الباب تقول : « ماذا ! أتخرجين مبكرة هكذا ؟ أراك ممن يستيقظون فى ساعة مبكرة ! »

فاتجهت نحوها ، لتستقبلنى بقبلة رقيقة ، ثم صافحتنى قائلة : « كيف وجدت ثورنفيلد ؟ » ، فقلت اننى أحببتها كثيرا جدا .. فقالت : « نعم ،انها مكان جميـل ، ولكننى أخشى أن تدركهـا الفوضى ما لم يستقر رأى مستر « روشستر » على المجىء والاقامة هنا اقامة دائمة - أو على الاقل ما لم يكثر من التردد عليها بين حين وآخر - لان المنازل الكبيرة والحقول الجميلة تحتاج الى وجود صاحبها فيها » .. فصحت متعجبة : « مستر روشستر ؟ من هو ؟» .. فأجابت فى هـدوء : « صاحب ثورنفيلد ؟ أما كنت تعلمين أن اسـمه روشستر ؟! »

ولم أكن أعلم بالطبع ، لاننى لم أسمع عنه من قبل . ولكن السيدة العجوز كانت على مايظهر ترى فى وجوده حقيقة يعرفها العالم أجمع ، ويجب أن يعرفها كل انسان بغريزته ! .. واسترسلت أقول : «كنت أظنك مالكة (ثورنفيلد) ؟ »

- (ثورنفيلد) ملكى أنا ؟ باركك الله ياطفلتى ! يالها من فكرة ! ملكى أنا ؟ أنا مجرد مدبرة للمنزل .. مديرته . والواقع أننى أمت بصلة بعيـدة من القرابة الى آل روشستر من ناحية والدتى ، أو على الاقل كان زوجى قريبـا لهم . كان قسيسا مسئولا عن قرية (هاى) الصغيرة الواقعة على ذلك التل ، وكانت تلك الكنيسة القريبة من هنـا ملكا له . وكانت أم مستر روشستر الحالى من أسرة فيرفاكس وابنة عم لزوجى ، ولكنى لا أحفل قط بهذه العلاقة

ولا تهمنى فى الحقيقة فى شىء ، لاننى أعتبر نفسى مجرد مدبرة منزل عادية ولا أرجو شيئا أكثر من أن يعاملنى رب الاسرة على الدوام معاملة طيبة

ـ والبنت الصغيرة ، (تلميذتى) ؟

ـ انها تحت « وصاية » مستر روشستر • وقد كلفنى ان أبحث لها عن معلمة لانه يعتزم أن ينشئها هنا ، فى هذه المقاطعة على ما أعتقد • ها هى آتية مع « دادتها » (كما تسمى مربيتها)

وعندئذ وضح اللغز !•• فلم تكن هذه الارملة الرقيقة الرحيمة سيدة عظيمة ، وانما أجيرة مثلى ! ولم ينتقص هذا من حبى لها ، بل على العكس ، اشتد بى السرور عن ذى قبل لان المساواة بينها وبينى كانت حقيقية وليست مجرد تواضع من جانبها ، وهذا أفضل بكثير ، لان موقفى منها غدا أكثر حرية وانطلاقا • وفيما كنت أفكر فى هذا « الاكتشاف » ، قدمت بنت صغيرة تتبعها مربيتها ، وهى تجرى فوق المرج ، فرحت أتأملها دون ان يبدو عليها فى أول الامر أنها فطنت لوجودى : كانت طفلة فى كل شىء •• ولعلها كانت فى السابعة أو الثامنة من عمرها •• نحيفة البناء ، شاحبة ، صغيرة الاسارير ، ذات شعر طويل موفور يتدلى حتى خصرها • وقالت مسز فيرفاكس تحييها : « صباح الخير يامس آديلا • تعالى وكلمى السيدة التى ستتولى تعليمك وتجعل منك يوما ما امرأة بارعة »

فاقتربت الصبية ثم قالت بالفرنسية وهى تشير ناحيتى : « أهذه هى المعلمة ؟ »

فأجابتها مربيتها بالفرنسية كذلك : « نعم ، بلا شك »

ودهشت لسماع الحوار بالفرنسية فسألت : « هل هما اجنبيتان ؟ »

ـ ان المربية أجنبية ، كما ان « آديلا » ولدت فى القارة (١) • والأغلب الظن أنها لم تغادرها الا منذ ستة شهور • ولما جاءت الى هنا لاول مرة لم تكن تعرف الانجليزية ، أما الآن فهى تحاول التحدث بها قليلا • وأنا لا أفهم منها شيئا لانها تخلط كلامها كثيرا بالفرنسية ، ولكنك سوف تتبينين ما تعنيه جيدا

ولحسن حظى كانت سيدة فرنسية قد علمتنى اللغة الفرنسية واغرتنى بأن أتحدث على الدوام مع « مدام بييرو » بالفرنسية ماسنحت الفرصة ، هذا فضلا عن اننى حرصت فى السنوات السبع الاخيرة على ان أحفظ مقطوعة فرنسية فى كل يوم عن ظهر قلب ، وان أهتم اهتماما بالغا بلهجتى وبمحاولة تقليد معلمتى فى النطق ، الى أن حصلت على قسط كبير من اتقان هذه اللغة يعصمنى من ان أرتبك أمام الآنسة آديلا ، التى تقدمت فصافحتنى عندما

---

(١) يطلق الانجليز على كل ماوراء بحر المانش من بلاد اوربا ، لفظ (القارة)

علمت أننى معلمتها . وفيما كنت أتقدمها الى حجرة الطعام لتناول الفطور وجهت اليها بعض العبارات بنفس لغتها ، فأجابتنى فى أول الامر باقتضاب ، ولكن بعد أن جلسنا حول المائدة وجعلت تتفحصنى حوالى عشر دقائق ، بدأت فجأة تثرثر فى طلاقة ، ثم صاحت بالفرنسية : « آه . انك تتكلمين لغتى مثل ما يفعل مستر « روشستر » ، وفى وسعى ان أتحدث معك كما أتحدث اليه. وكذلك « صوفى » سوف تبتهج لانها لاتجد أحدا هنا يفهمها . ان مدام فيرفاكس لا تتكلم غير الانجليزية ، ولكن صوفى - مربيتى - جاءت معى بطريق البحر على سفينة كبيرة لها مدخنة كان يندفع منها دخان .. أى دخان ! وقد أصابنى دوار البحر ، كما أصاب صوفى ، بل وأصاب مستر روشستر نفسه، فرقد على أريكة فى حجرة جميلة تسمى (الصالون) ، بينما نمت وصوفى على سريرين صغيرين فى مكان آخر . وكدت أقع من فراشى الذى كان يشبه الرف . وانت يا آنسة .. ما اسمك ؟

- اير .. جين اير

- اير ؟ أوه .. لا أستطيع النطق به . حسنا .. لقد توقفت سفينتنا فى الصباح ، وقبل ان ينتشر ضياء النهار تماما ، فى مدينة كبيرة .. مدينة ضخمة كل دورها حالكة ينبعث منها الدخان جميعا ، ولا تشبه اطلاقا تلك المدينة البديعة النظيفة التى جئت منها . وقد حملنى مستر روشستر على ذراعيه فوق لوح يمتد الى الشاطىء ثم تبعتنا صوفى فاستقللنا كلنا عربة حملتنا الى منزل جميل كبير ، أكبر من هذا واظرف ويدعى « فندقا » ، حيث مكثنا حوالى اسبوع . وقد اعتدت أنا وصوفى أن نتمشى يوميا فى مكان فسيح اخضر ملىء بالاشجار يدعى « المتنزه » ، وفيه أطفال عديدون سواى وبركة بها طيور جميلة اطعمتها من فتات الخبز

وهنا سألتنى مسز فيرفاكس مشدوهة : « أتفهمينها وهى تنطلق بكل هذه السرعة ؟ » . والواقع اننى فهمت حديثها جيدا لاننى اعتدت لسان « مدام بييرو » الزرب السيال . وأردفت السيدة الطيبة تقول : « بودى ان تطرحى عليها سؤالا او اثنين عن والديها ، ترى هل تذكرهما ؟ » .. فسألتها . « مع من يا آديلا كنت تعيشين عندما كنت فى تلك المدينة الجميلة النظيفة التى حدثتنا عنها ؟ »

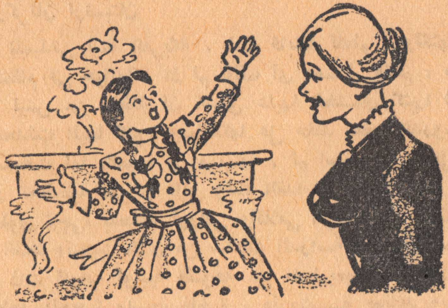
- عشت منذ زمن بعيد مع « ماما » ، ولكنها مضت الى العذراء . وقد اعتادت « ماما » أن تعلمنى الرقص والغناء وترتيل الاشعار . وكان عدد كبير من علية السادة والسيدات يزورون ماما ، فكنت ارقص امامهم واجلس على ركبهم واغنى لهم .. كم احببت ذلك ، فهل تدعيننى اسمعك غنائى الآن ؟

وكانت قد فرغت من تناول افطارها ، فسمحت لها بان تعرض على عينة من

مواهبها ، فنزلت عن مقعدها وجاءت فجلست على ركبتى ثم عقدت يديهـا فى احتشام على حجرها وردت خصلات شعرها الى الخلف بهزة من رأسها ، ثم رفعت عينيها الى السقف وجعلت تغنى احدى أغنيات الاوبرا عن آلام سـيدة هجرها حبيبها ، وبعد ان أقامت مناحة على خيانته ، استنجدت بكبريائهـا وطلبت الى خادمتها ان تزينها بأسطع مجوهراتها وأغلى ثيابهـا ، ثم اعتزمت أن تلقى هذا الخائن فى تلك الليلة بالذات فى حفلة راقصـة كى تثبت له ـ بمظهرها المرح ـ أنها لم تتأثر بهجرانه !

بدا الموضوع غريبا فى اختياره لغناء طفلة صغيرة ، ولكنى اعتقد أن الغرض من ذلك الاستعراض كان مجرد سماع عبارات الحب والغيرة تتعثر بها لثغة الطفولة دون أن تتذوق لها طعما ٠٠ أو هكذا خيل الى على الاقل !

غنت آديلا فى محافظة تامة على اللحن ، وبسذاجة تتفق وسنها ٠ وما ان فرغت من ذلك حتى وثبت عن ركبتى قائلة : « والآن يا آنسة سأتلو عليك بعض الشعر » ٠٠ ثم تهيأت لذلك وأخذت تسمعنى بعض اشعار من « جماعة الجرذان » و قصص « لافونتين » الخرافية ٠٠ ثم أخـذت تلقى المقطوعات بلهجة خطابية ، وهى تراعى باهتمام صحة النطق ، وتطنيب الالفاظ ، ومرونة



الصوت ، وملاءمة الحركات ٠٠ مما لا يتفق بحال مع صغر سنها ، ويقطع بأنها تدربت على ذلك بعناية ٠٠فسألتها : « اهى والدتك التى علمتك هذه المقطوعات؟»

ـ نعم ٠ وكانت « ماما » تقول لى بالفرنسية : « ماذا لديك بعد ذلك ؟ » ٠٠ ثم تجعلنى أرفع يدى هكذا لتذكرنى برفع عقيرتى ٠ والآن هل ارقص لك؟

ـ كلا ، هذا يكفى ٠ ولكن ، بعد أن ذهبت أمك الى العذراء المقدسة ـ كما قلت ـ مع من كنت تعيشين ؟

ـ مع « مدام فردريك » وزوجها . وقد عنيت بأمرى ، ولكنها لاتمت الى بأية قرابة . وأغلب الظن أنها فقيرة ، لانها لاتملك بيتا جميــلا مثل بيت « ماما » . ولم تطل اقامتى هنالك ، فقد سألنى مستر روشستر هل أرغب فى الذهاب والعيش معه فى انجلترا .. فقلت « نعم » ، لاننى عرفت مستر روشستر قبل أن أعرف مدام فردريك ، ولانه كان على الدوام رحيما بى ، يمنحنى ثيابا ولعبا جميلة .. ولكن هأنتذى ترين أنه لم يبر بوعده ، لانه جاء بى الى انجلترا ثم عاد هو مرة أخرى ولم أعد أراه على الاطلاق !

وبعد الفطور ، ارتددت وآديلا الى حجرة المكتبة التى يبدو أن مسترروشستر أمر بتخصيصها لدروسنا ، بينما كان معظم الكتب موصدا عليه خلف أبواب زجاجية . ولكن كان ثمة صوان للكتب ترك مفتوحا ويحوى كل ماقد أحتاج اليه من مواد أولية ، وعدة مجلدات خفيفة فى الادب والشعر والسير والرحلات، وبضع روايات .. الخ . وأظنه اعتبر ذلك كل ماقد تحتاج اليه معلمةلمطالعتها الخاصة . والواقع اننى قنعت بهذه المكتبة كل القناعة فى ذلك الحين ـ سيما حين كنت أقارنها بالمنتخبات القليلة التى استطعت ان ألتقطها فى (لوود) من هنا وهناك ـ فقد بدت لى كافية لتوفير حصاد واف من أسباب التسلية والمعرفة. وكان فى الحجرة كذلك بيانو كبير ـ بادى الجدة ، ممتاز النغم ـ ثم حمالة للرسم ، وكرتان ارضيتان

وألفيت تلميذتى لينة العريكة ، ذات قابلية للعلم ، ولكنها لم تكن تطيق الخضوع لنظام فى حياتها ، اذ لم تالف أى عمـل منظم ، من أى نوع !.. ورأيت ان ليس من الفطنة أن أضيق عليها الخنـاق كثيرا فى أول الامر . وبعد أن تحدثت اليها كثيرا وساعدتها على حفظ بعض الدروس حتى انتصف النهار ، سمحت لها بالعودة الى مربيتها ، ثم استقر رأيى على أن أرسم لهـا بعض صور تخطيطية الى أن يأتى وقت الغداء . وفيما كنت أرقى الدرج الى الطابق العلوى لاجىء بمحفظة أوراقى وأقلامى الرصاص ، نادتنى مسزفيرفاكس قائلة : « أظنك انتهيت الآن من ساعات الدراسة الصباحية » ، وكانت تجلس فى حجرة ذات أبواب لولبية مفتوحة على مصاريعها ، فدخلت اليهـا عندما خاطبتنى لاجد الحجرة واسعة فاخرة ، مفروشـة بمقاعد وستائر ارجوانيـة وسجاد تركى ، وقد غطت جدرانها ألواح من شجر الجوز ، وبها نافذة واسعة مصنفرة الزجاج ، وسقف شاهق بديع النقوش . وكانت مسز فيرفاكس تنفض الغبار عن بعض « زهريات » من البللور الارجوانى البديع قد صفت عـلى صوان الاوانى ـ « البوفيه » ـ فلم أتمالك ان صحت وأنا أتلفت فيما حولى : « يالها من حجرة جميلة ! » ـ ذلك انى لم أر من قبل حجرة لها نصف هذه المهابة ! ـ فقالت مسز فيرفاكس : « نعم ، هذه حجرة الطعام ، وقد فتحت

نافذتها من فورى ليدخل بعض الهواء وضياء الشمس ، لان الرطوبة تتلف كل ما بالحجرة التى قل ان يأوى اليها انسان • وهناك ترين حجرةالاستقبال، التى تبدو كالقبو ! »

ثم أشارت الى قوس واسع يشبه النافذة ، ومغطى مثلها بستارة مطوية من وسطها على هيئة أنشوطة ، فهبطت الى ذلك القبو درجتين عريضتين ، ونظرت خلاله فلمحت مكانا بدا لعينى الغريرتين شديد التألق ، ولم يكن سوى حجرة للاستقبال نسقت على صورة جاءت آية فى الجمال • وبداخلها كان مخدع تكسوه الابسطة البيضاء ، وتشاهد فيه أكاليل من الزهور المتألقة ، ويغطى كلا الحجرة والمخدع الداخلى سقف من أشجار الكرم الناصعة البياض •• بينما كانت أدوات الزينة التى تعلو الموقد من زجاج بوهيمى متلألئ ، فى حمرة الياقوت ! وقلت : « بأى نظام تحافظين على هاتين الحجرتين يامسز فيرفاكس ، فلا غبار ، ولا ملاءات تغطى الاثاث ؟•• لولا هذا الهواء البارد لحسبالانسان أنهما لا تستعملان يوميا ! »

ـ كيف يامس اير •• ان زيارات مستر روشستر نادرة ، ولكنها تجىء فجائية وعلى غير انتظار !•• ولما كنت أعلم أنه يمتعض اذا شاهد شيئا غير منظم أو يحتاج الى ترتيب عاجل ، فقد آثرت أن أجعل الحجرتين مرتبتين على الدوام ، استعدادا لمقدمه

ـ هل مستر روشستر رجل مدقق يصعب ارضاؤه ؟

ـ ليس الى هذا الحد ، ولكن له ذوق السيد النبيل ، وعاداته ، ولذلك يحب أن يرى كل شىء متسقا مع هذا الذوق وهذه العادات

ـ هل تحبينه ؟ وهل هو محبوب بوجه عام ؟

ـ أوه ، نعم • ان أفراد الاسرة يلقون الاحترام هنا دائما • ومعظم الاراضى فى هذه الناحية ـ على مدى مايصل اليه بصرك ـ كانت فيما مضى ملكا لهم !

ـ دعينا من الاراضى ، فهى خارجة عن موضوعنا ، وانما أنا أسألك : هل تحبينه ؟ وهل هو محبوب لشخصه ؟

ـ ليس لدى ما يحملنى على أن أشعر نحوه شعورا آخر . وأعتقد انمستأجرى أراضيه يعتبرونه مالكا عادلا متحررا ، وان لم تطل اقامته بينهم

ـ أليست له تصرفات شاذة ؟ وما هى بالاختصار أخلاقه ؟

ـ أوه ! ان أخلاقه لا غبار عليها فيما أعتقد ، ولكنه قد يكون أصبح على شىء من الشذوذ بعد أن قام برحلات عديدة وشاهد كثيرا من أرجاء العالم • وفى وسعى أن أقرر أنه رجل أريب ، وان لم يطل حديثى معه يوما من الايام

ـ وما هو موضع شذوذه ؟

ـ لا أدرى ، ولا يسهل وصف ذلك •• وان كنت تحسينه عندما تتحدثين

اليه ، فلا تدرين جيدا أهو يمزح أو يجد ، أهو مسرور أو عـلى النقيض ! وقصارى القول انه لايتسنى لك أن تفهميه جيدا ٠٠ أو عـلى الاقل انى أنا نفسى لا أفهمه ، ولكن ماذا يهمنى من ذلك مادام سيدا على جانب كبير من الطيبة ؟!

كان هذا كل ما ظفرت به من مسز فيرفاكس عن مخدومها ومخدومى ، فان هناك أناسا ليست فى رأسهم أية فكرة عن رسم صورة تخطيطية للاخلاق ، أو عن ملاحظة ووصف النقاط البارزة سواء فى الاشخاص أو الاشياء ٠ ويبدو أن تلك السيدة الطيبة كانت من هذا الصنف ، لان تحرياتى حيرتهـا ، وان كانت لم تخرجها عن سجيتها ٠٠ اذ كان مستر روشستر فى عينيها مستر روشستر فحسب : سيدا ومالك أراض ، ولا شيء أكثر من ذلك !٠٠ فلم تشأ أن تتحرى أو تبحث الى أبعد من ذلك ، ولذلك كانت دهشتها واضحة عندما رغبت اليها فى أن أظفر بتعريف أكثر تحديدا لشخصيته !

وعندما غادرنا حجرة الطعام ، اقترحت على أن تفرجنى عـلى بقية المنزل ، فتبعتها الى الغرف العليا والسفلى وقد تولانى العجب أينما ذهبت ، من فرط ماكان كل شيء جد مرتب وجميل : كانت الحجرات الامامية واسعة أكثر من المألوف، أما حجرات الطابق الثالث فانها على الرغم من ظلمتها وانخفاض سقوفها كانت ممتعة ، بما يشيع فيها من جو أثرى ، ولطالما نقـل أثاث الطابق الارضى الى هذه الحجرات كلما تغير طرازه وتبدلت « الموضة » ٠٠ ومن ثم رأيت عـلى الضوء الخافت المتسرب من نوافذها الضيقة أسرة ترجـع فى قدمها الى مائة سنة ٠٠ وصناديق من خشب البلوط والجوز رسمت نقوشها العجيبة عـلى صورة أغصان النخيل ورؤوس « الشاروبيم » ، فبدت أشبه بانماط سفينة عبرانية !٠٠ وصفوفا من الكراسى الوقورة ، بظهرها العالى الضيق ٠٠ ومقاعد خفيضة ، أعرق فى القدم ، وقد علتها آثار تطريز أوشك أن يمحى ، لانه من صنع أصابع ووريت الثرى منذ جيلين !٠٠ كل هذه المخلفـات الاثرية خلعت على الطابق الثالث بقصر (ثورنفيلد) منظر بيت يرجع الى الماضى السحيق ، أشبه « بمحراب » للذكريات !٠٠ ولقد أحببت فى هذه المخلفات سـكونها ، وقتامتها ، وغرابتها ، ولكنى لم أطمع بأية حال فى ان أستريح ليلة واحدة على سرير من هذه الاسرة الواسعة الثقيلة التى أغلقت على بعضها أبواب من خشب البلوط ، وأسدلت على بعضها الآخر ستائر انجليزية قديمة طرزت عليها زهور عجيبة ، وطيور أعجب ، ومخلوقات آدمية أعجب وأعجب ! والواقع انها كانت كلها تبدو عجيبة فى ضياء القمر الشاحب

وسألت محدثتى : « هل ينام الخدم فى هذه الحجرات ؟ »

ـ كلا ٠٠ انهم يشغلون صفا من الحجرات الصغيرة الواقعة فى ظهر القصر،

ولا ينام هنا احد قط .. اذ يقال انه لو كان فى قصر (ثورنفيلد) شبح ، لاختار مسكنه فى هذا الطابق !

ـ هذا ما اعتقده . أليس لديكم أشباح هنا ؟

فأجابتنى المرأة باسمة : « لم أسمع بواحد منها ! »

ـ ولا على سبيل التمشى مع التقاليد ، أو مجاراة الاساطير وقصص الاشباح ؟

ـ لا أظن ، ومع ذلك يقال ان أسرة روشستر كانت فى الماضى يغلب على أفرادها العنف على الهدوء ، ولعل ذلك سر هدوئهم الآن فى قبورهم !

فغمغمت قائلة : « نعم ، انهم لاشك يستغرقون فى نوم هادىء ، بعد حياة من النشاط المحموم »

واذ وجدتها تبتعد ، سألتها : « الى أين تذهبين الآن يامسز فيرفاكس ؟ »

ـ الى السطح العلوى . ألا تأتين وترين المنظر من هناك ؟

فتبعتها فى هدوء ، ورحنا نرقى درجا ضيقا جدا الى الطابق الاخير ، ومنه صعدنا سلما من الخشب ثم نفذنا من باب بالسقف الى السطح .. واذ ذاك أصبحنا فى مستوى مستعمرة الغربان ، وأمكننى ان أرى أعشاشها .. ثم اتكأت على الشرفات ، أتطلع الى أبعد ماتحتى ، فرأيت الحقول أشبه بخريطة، وشاهدت المرج المخملى المشرق يحيط بأسفل القصر . وبدا لى الحقل فى اتساع أحد المتنزهات ، وقد رصعته أخشابه القديمة ، كما بدت الغابة الداكنة الذابلة وقد تخللها طريق كث النباتات ، أمعن فى الخضرة ـ بطحلبه ـ من الاشجار بأوراقها الجافة . وسبح فى شمس الشتاء كل من الكنيسة والطريق والتلال الساكنة . اما الافق فكانت تتاخمه سماء مماثلة ، لازوردية مرصعة ببياض لؤلؤى . وخلا المنظر من سمات غير عادية ، ولكن كل ما فيه كان شائقا . ولما استدرت وعدت من فجوة السقف ، كدت لا أتبين طريقى فوق السلم الخشبى، اذ بدا لى الطابق النهائى فى سواد القبو بالنسبة لقوس السماء الزرقاء الذى كنت أتطلع اليه وإلى منظر المروج والمراعى والتلال الخضراء التى تضيئها الشمس ويتوسطها القصر ، والتى كنت منذ قليل أرنو اليها منشرحة الصدر

وتريثت مسز فيرفاكس خلفى قليلا ، لتغلق فجوة السقف ، فأمكننى ان اتحسس طريقى حتى اهتديت الى المخرج من الطابق النهائى ، ثم تقدمت لاهبط سلم السطح الضيق . وتمهلت فى ذلك الممشى الطويل الذى يفصل بين الحجرات الامامية والحجرات الخلفية بالطابق الثالث ، اذ كان ضيقا خفيضا ، معتما ، وليس به سوى نافذة واحدة صغيرة فى الطرف البعيد .. بحيث كان يشبه ، بصفى الابواب الصغيرة المغلقة التى تحف به ، دهليزا فى قلعة صاحب اللحية الزرقاء !

وبينما كنت اخطو فى رفق ، صفع أذنى آخر صوت كنت أتوقع ان اسمعه

فى مثل هذه المنطقة الساكنة : ضحكة عجيبة واضحة ، متكلفة ، كئيبة !٠٠ فتوقفت عن السير ، وعندئذ انقطع الصوت ـ للحظة واحدة فقط ـ ثم عادمرة أخرى ، أقوى وأعلى ممـــا كان فى المرة الاولى !٠٠ ومر الصـــدى فى جلجلة صاخبة ، كأنما هو يتردد فى كل حجرة على انفراد ـ وان لم يصدر الا من حجرة واحدة ـ وكان بوسعى أن أشير الى الباب الذى انبعث من خلفه !٠٠ وناديت بصوت عال : « مسز فيرفاكس ! » ، وذلك بمجرد ان سمعتها تهبط الدرج الكبير ٠٠ ثم قلت أسألها : « هل سمعت هذه الضحكة العالية ؟ ضحكة من هى ؟ »

ـ انها على الارجح ضحكة احدى الخادمات ٠٠ لعلها « جريس بول »

ـ هل سمعتها ؟

ـ نعم ، بوضوح وجلاء ـ وكثيرا ما أسمعها ـ فهى تخيط فى احدى هذه الغرف ، وأحيانا تكون معها « لياه » ، فاذا اجتمعتا معا ارتفعت جلبتهما

وتكررت الضحكة ، بنغمها الخافت المتقطع ، وأعقبتها همهمة عجيبـــة ٠٠ فصاحت مسز فيرفاكس : « جريس ! »

والواقع اننى لم أكن أتوقع ان تجيبها « جريس » ، لان الضـــحكة كانت « رهيبة » ، غـير طبيعية ، تخالف كل ماسمعته فى حيـاتى من ضـحكات ! ولكننا كنا اذ ذاك فى رائعة النهار ، ولم يصحب القهقهة العجيبة ظهور شبح من الاشباح ٠٠ ومع ذلك فلولا ان الظرف لم يكن يسمح بالهلع لاستبد بى رعب عجيب ، ولكن الحادث ما لبث أن أرانى اننى كنت حمقاء عندما تملكنى الاحساس بمجرد الدهش والعجب ، فقد فتح الباب القريب منى وخرجت منه خادمة : امرأة بين الثلاثين والاربعين من عمرها ، ربعة القامة ، حمراء الشعر، جامدة الاسارير ٠٠ أقرب الى ان تكون شبحا مخيفا لايمكن ان ترى العـين أو تتخيل مثيلا له !

وقالت مسز فيرفاكس : « يالها من ضجة شديدة جـدا ياجريس ! تذكرى الاوامر والتعليمات »

فانحنت جريس فى احترام وهدوء ، ثم دخلت ٠٠ بينما مضت الارملةتقول: « هذه امرأة جئنا بها لتخيط وتساعد « لياه » فى واجباتهـــا المنزلية ، ولا اعتراض عليها الا فى بعض الامور ، بيد أنها تقوم بعملها جيدا ٠٠ ولهـــذه المناسبة ، كيف كانت حالك مع تلميذتك الجديدة هذا الصباح ؟ »

وبذلك تحولت دفة الحديث الى « اديلا » ، واستمرت كذلك حتى بلغنـــا المنطقة المضيئة بالطابق الارضى ، فأقبلت اديلا تجرى لتقابلنا فى الردهة ،وهى تصيح بالفرنسية : « لقد أعد الطعام ياسيداتى ٠٠ » ٠٠ ثم أردفت تقول : « وأنا جائعة جدا ! »

وقد وجدنا الغداء معدا فى انتظارنا ، فى حجرة مسز فيرفاكس



الفصل الثانى عشر

• لم يسفر طول مقامى وتعرفى على قصر (ثورنفيلد) وأهله، عما يناقض البوادر التى أوحت الى- فى البداية الهادئة لعهدى هناك - بأننى مقدمة على عمل مريح ٠٠ فقد وجدت فى مسز فيرفاكس ماكان مظهرها ينبىء عنه من انها امرأة وادعة طيبة القلب، على جانب كاف من التعليم ، وقسط لا بأس به من الذكاء ٠٠ كما وجدت فى تلميذتى طفلة نشيطة مرحة ، دللت وعوملت فى كثير من التساهل واللين ، ومن ثم كانت فى بعض الاحيان عنيدة صلبة الرأى ٠٠ ولكن لما كانت شئونها قد وكلت كلها الى ، دون أن يعرقل الخطط التى رسمتها لاصلاحها أى تدخل غير حكيم ، من أية جهة ، فانها سرعان مانسيت نزواتها التافهة وأصبحت طيعة قابلة للتعلم ٠ ولم تكن على جانب من المواهب والميزات الخلقية ، ونضج الاحساس والذوق ، يمكن ان يرفعها - ولو بقدر ضئيل - فوق مستوى الطفولة العادية ، ولكنها كذلك لم تكن ذات عيب أو رذيلة تهبط بها عن هذا المستوى ٠ وقد تقدمت تقدما محسوسا فى دراستها واظهرت نحوى حبا

متوثبا ، وان كان من المحتمل انه لم يكن عميقا الى حد بعيد ٠ واستطاعت بسذاجتها وثرثرتها المرحة ومحاولاتها ارضائى أن تجعلنى أنا الاخرى أتعلق بها الى الحد الذى جعل كلا مناراضية بمعاشرة الاخرى

وهنا أقول ــ بين قوسين ــ إن هــذا الاسلوب فى وصف علاقتنا قد يبدو فاترا إذا ماصدر عن أشخاص يتطرفون فى آرائهم عن طبيعة الاطفال الملائكية ، ويرون واجبا على أولئك الذين يوكلون بتعليم الاطفال ، انيكنوا لهم حبا يصل الىمرتبة العبــادة ٠٠ ولكنى لا أكتب لاتملق أنانية الآباء ، أو لاردد عبارآت الرياء أو أظاهر الدجل ، وانما أقول الصدق وحــده عندما أقرر أن ضميرى قد شغل بالاهتمــام بسعادة « آديل » وتقدمها ، وان قلبى كان يحبها لذاتها الصغيرة ، حبا هادئا٠٠ تماما كما كنت أكن لمسز فيرفاكس شعورا بالعرفان لكرمها ، واغتباطا بعشرتها يتفق مع ماكانت تبديه لى من احترام رزين، ويتلاءم مع حظها المعتدل من الذكاء والشخصية

وليلمنى من يشاء ، اذ أضيفالىهذا اننى كنت اذا ماخرجت بين آن وآخر ــ وحيدة ــ للنزهة فى الحقول ، أو لاسير الى أبواب السياج الخارجى فأطل على الطريق العامة ٠٠ أو اذا ما صعدت سلالم طبقات المبنى الثلاث ــ مخلفــة آديل تلعب مع مربيتها ، ومسز فيرفاكسفى « آلبدروم » تصنع الفالوذج ــ حتى اذا بلغت السطح سرحت البصر عبر الحقول والتــلال ، وعلى طول الافق المعتم ٠٠ ليلمنى من يشاء اذا قلت اننى كنت ــ اذ ذاك ــ أتوق الى قوة ابصار تتجاوز هذه الحدود ، وتقوى على أن تصل الى العالم المصطخب ، والمدن والاقاليم التى تطفر بالحياة ، والتى طالما سمعت عنها ، دون أن تقع عليها عيناى ! ٠٠ ولكم كنت أصبو الى مزيد منالتجارب العملية ــ فوقماكان لدى ــ والى مزيد من مخالطة بنى جنسى ، والتعرف علىأخلاقهم

المتباينة ، بقدر يفوق ماكان يتاح لى فى ذلك المكان !٠٠ لقد كنت أقدر نواحى الخير فى نفس مسز فيرفاكس ، ونواحى الخير فى نفس آديل ، ولكنى كنت موقنة بوجود ألوان أخرى زاهية من الخير والفضائل ٠٠ وكنت أرغب دائما فى مشاهدة ما أومن بوجوده !

فمن يلومنى على ذلك ؟٠٠ كثيرون ، ولا ريب ٠٠ **لسوف اتهم بعدم القناعة ، ولكن ماحيلتى وقد فطرت على القلق ٠٠ وكان هذا القلق يحتدم أحيانا فيورثنى الالم ، ولا أجد خلاصا منه الا فى ان أتمشى جيئة وذهابا فى ردهة الطابق الثالث ، حيث تداخلنى الطمأنينة والسلام وسط سكون المكان وعزلته، وحيث أترك عينى تمتلئان بما كان ينبعث أمامهما من رؤى مشرقة ـ ماكان أكثر عددها وأشد تألقها ! ـ وحيث أدع قلبى ينساب مع الوجيب النشوان الذى كان يفعمه بالحياة ، فى الوقت الذى يضنيه فيه !** ٠٠ وكان الافضل من ذلك كله أن أفتح أذنى سريرتى ، لاصيخ السمع لقصة لاتنتهى قط ٠٠ قصة كان ينسجها خيالى ويرويها باستمرار وبلاانقطاع، ويبعث فيها الحركة المثيرة بما كان يضمنها من أحداث ، ومن حياة ، ومن نار ، ومن احساس ٠٠ ومن كل شىء كنت أشتهيه ولا أجده فى حياتى الواقعية

ومن العبث القول بأن على البشر أن يقنعوا بالطمأنينة والسكينة ٠ اذ لابد لهم من العمل والحركة ، وعليهم ان يبتدعوهما ويخلقوهما ، اذا عز عليهم ان يجدوهما ! لقد كتب على الملايين أن يعيشوا فى ركود أشد جمودا مما كنت أعيش فيه ، وكم من ملايين يثورون فى صمت على حظهم من الحياة ٠٠ ولا يدرى امرؤ كم من ثورة ـ غير الثورات السياسية ـ تختمر فى نفوس البشر على الارض !٠٠ والمفروض فى النساء أن يكن فى الغالب جد هادئات وادعات ، ولكنهن يشعرن تماما كما

يشعر الرجال ، ويحتجن الى تدريب لمواهبهن ، والى ميدان لجهودهن ، بقدر ما يحتاج اخوانهم الرجال ٠٠ وهن كذلك يعانين من الكبت الشديد ، والركود التام ، تماما كما يعاني الرجال ، ولذلك فمن ضيق العقل لدى أبناء جلدتهن المحظوظين - أي الرجال - أن يقولوا بأن عليهن أن يقبعن فى دورهن لصنع الطعام ، ورتق الجوارب ، والعزف على البيانو ، وتطريز الحقائب ٠٠ وان ينحوا عليهن باللائمة ، ويضحكوا منهن اذا حاولن البحث عن عمل آخر أو الالمام بجديد غير ما قضى به العرف لجنسهن !

وكثيرا ما كنت - فى خلواتي هذه - اسمع ضحكة « جريس بول » ٠٠ نفس الضحكة المجلجلة ٠٠ ونفس الـ « ها ٠٠ ها ! » الخافتة ، البطيئة ، التى جفلت لها عندما تناهت الى أذنى فى أول مرة ٠ كذلك كنت أسمع غمغماتها الشاذة التى تفوق ضحكتها غرابة !٠٠ وكم من أيام أخلدت فيها صاحبة الضحكة الى الصمت ، ولكنها كانت لاتكف - فى أيام غيرها - عن الضحك والدمدمة ٠٠ وكنت أراها فى بعض الاحيان وهى تغادر غرفتها ، وفى يدها حوض أو صحن أو صينية ، فتهبط الى المطبخ ٠٠ لتعود من فورها وهى تحمل فى العادة وعاء مليئا بالطعام ٠٠ آه ، الا اغفر لى ايها القارىء العاطفى المزاج ، فلست أروى سوى الحقيقة المجردة ٠ ولقد كان ظهور « جريس بول » يخفف دائما من وطأة الفضول الذى تثيره تصرفاتها الصوتية الشاذة ، اذ كانت قسماتها الحادة تنم عن رصانة ، وليس فيها - فى الواقع - مايسترعى الانتباه ٠ وكثيرا ما حاولت ان استدرجها الى محادثتي ، فكانت تبدو زاهدة فى الكلام ، وتجيب بكلمات مقتضبة تقطع على المرء اى امل فى هذا الصدد ٠٠ اما بقية من كان بالدار من خدم الى جانب جريس - أى الحوذى - « جون » وزوجته ، و « لياه » التى تقوم بتنظيف الدار ، وصوفى المربية الفرنسية - فكانوا قوما طيبين ليس فيهم مايسترعى

الاهتمام · وقد اعتدت أن أتحدث الى « صوفى » بالفرنسية ، فألقى عليها احيانا بعض الاسئلة عن وطنها الريفى ، ولكنها لم تكن من الصنف الذى يميل الى الوصف والرواية ، ولذلك كانت أجوبتها تافهة مضطربة قليلة ، تصد ولا تشجع

* * *

◆ وانقضى اكتوبر ونوفمبر وديسمبر ، وفى عصر أحد ايام يناير ، طلبت منى مسز فيرفاكس أن أمنح « اديل » عطلة ، لانها كانت تشكو من البرد · وعندما عقبت « اديل » على ذلك الرجاء ، بتحمس ذكرنى بما كان للاجازات العارضة من قيمة لدى فى طفولتى ، وافقت على ذلك ، مؤثرة اظهار المرونة فى مثل هذه الامور · وكان اليوم جميلا هادئا ، رغم اشتداد البرد ، وكنت قد سئمت الجلوس فى سكون بحجرة المكتبة طوال ذلك الصباح · واذ كانت مسز فيرفاكس قد فرغت لتوها من كتابة خطاب ، ثم تركته فى ارتقاب من يلقيه فى صندوق البريد ، فقد ارتديت قبعتى ومعطفى ، وتطوعت بحمل ذلك الخطاب الى قرية (هاى) ·· وكانت مسافة الميلين ـ بيننا وبينها ـ مجالا لنزهة بديعة على الاقدام ، فى أصيل اليوم الشتوى · ومن ثم اطمأننت الى أن « اديل » جلست مرتاحة على مقعدها الصغير بجانب الموقد فى حجرة مسز فيرفاكس ، وأعطيتها خير دماها الشمعية ـ التى كنت احتفظ بها دائما فى ورق مفضض بداخل أحد الادراج ـ لتلعب بها ، كما اعطيتها كتاب قصص كى تنوع من أسباب تسليتها· وبعد ان اجبت بقبلة عن قولها : « عودى بسرعة ياعزيزتى الطيبة ·· يا آنسة جينيت العزيزة » ، غادرت الدار ·· وكانت الارض يابسة ، والهواء ساكنا ، والطريق موحشا ، فأسرعت الخطو حتى دفئت ، ثم أخذت أسير الهوينى كى أستمتع بنزهتى ، وأحلل أنواع الغبطة التى خالجت نفسى فى ذلك الزمان وذلك المكان ·· وكانت الساعة الثالثة ، وقد أخذ جرس الكنيسة يدق فى اللحظة التى مررت فيها تحته ·· وكان سحر تلك الساعة يكمن فى غسقها الوافد ، وفى شمسها الباهتة الضياء ، والتى كانت تنحدر وئيدا · وما لبثت أن أصبحت على بعد ميل من (ثورنفيلد) ، فى طريق شهيرة فى الصيف بورودها البرية ، وفى الشتاء بثمار الجوز والعليق ·· على ان خير مفاتنها الشتوية هو مايغشاها من عزلة تامة ، ومن سكون يشمل اشجارها المجردة من الاوراق ، فاذا هبت النسائم فلا صوت ولا همهمة ولا حفيف ·· وعلى الجانبين ، الى مسافة بعيدة ، تمتد حقول خلت من ماشية ترعى ·· حتى الطيور التى ربما هبطت مصادفة على السياج ، كانت تبدو أشبه بأوراق حمراء فاتها أن تتساقط على الارض !

وكانت هذه الطريق الضيقة تميل صاعدة سفح التل حتى تصل الى قرية (هاى) ، فلما بلغت منتصفها ، جلست على قارعة درب يفضى الى الحقل ، ثم لففت معطفى حولى ، ودسست يدى فى فرائه فلم أشعر ببرد ، رغم الجليد الشديد الذى كانت تشهد به صفحة من الثلج تغطى الجسر ، كما تغطى غديرا صغيرا متجمدا كانت مياهه تفيض بسرعة منذ أيام . وفى جلستى تلك ، تسنى لى أن أطل على (ثورنفيلد) ، وأن أشرف على غاباتها .. حتى اذا غاصت الشمس بين الاشجار ، يممت ناحية الشرق ، حيث تربع القمر فوق قمة تل يعلو مجلسى .. وكان يبدو باهتا ، ولكنه أخذ يزداد تألقا فى كل لحظة .. وكانت قرية (هاى) لاتزال على مسافة ميل ، ولكنى استطعت — وسط السكون الساجى — أن أسمع بوضوح دبيب الحياة الخافت فى حناياها ، كما تناهى الى اذنى كذلك تدفق التيارات ، وان كنت لم أدر تماما فى أى وديان أو وهاد كانت تندفع .. على انه كانت ثمة تلال عديدة وراء (هاى) ، ولا بد ان ثمة جداول كانت تتخللها !

وفجأة بددت ذلك السكون وتلك الهمسات الرقيقة ضجة عنيفة انبعثت من بعيد جدا ، ولكنها كانت غاية فى الوضوح : وقع حوافر قوية ، وقعقعة معدنية حجبت أفكارى ، كما تحجب صور الصخور الضخمة الصماء ، أو أشجار البلوط الكبيرة الوارفة — اذا رسمت فى مقدمة لوحة بخطوط ثقيلة سوداء — ما يكون وراءها من تلال لازوردية ، ومن أفق ساطع بالضياء ، ومن سحب متمازجة ، تختلط عندها درجات الالوان .. وكانت الضوضاء عند الجسر ، اذ كان ثمة جواد يقترب ، ولكن الطريق الكثيرة المنعرجات حجبته عن عينى .. غير أنه كان يدنو ، فهممت بأن أغادر مكانى ، ولكنى وجدت الطريق ضيقة فآثرت أن أثبت فى موضعى حتى يمر بى . وكنت فى تلك الايام شابة تقبع فى ذاكرتها تلك القصص التى سمعتها فى طفولتها ... فلما نضجت ، صارت هذه القصص اذا ماتحركت من رقادها ، أضفى عليها الشباب اليافع قوة وحيوية فوق ماكانت الطفولة تقوى على اسباغه عليها .. ومن ثم ، فبينما كان الجواد يقترب ، وفيما كنت أترقب ظهوره خلال الغسق ، تذكرت بعض قصص « بيسى » عن روح تدعى « جيتراش » كانت تظهر فى شمال انجلترا على صورة جواد وبغل وكلب ضخم ، لترتاد الطرق المنعزلة الموحشة ، وتهبط أحيانا أمام المسافرين الذين فاجأهم الليل فى الطريق ، مثل ما كان هذا الجواد مقبلا الى فى تلك الآونة .

وازداد الجواد اقترابا ، ولكنه لم يكن قد بلغ بعد نطاق ابصارى .. ثم سمعت بجانب وقع السنابك حفيفا بين الحشائش .. واذا بين جذوع أشجار البندق القريبة كلب ضخم ، كان اختلاط اللونين الابيض والاسود فى جسمه يبرز شكله وسط الاشجار . كان يشبه تماما احدى الصور التى تظهر فيها روح « جيتراش » ، كما كانت تصفها بيسى .. فهو مخلوق يشبه الاسد ،

طويل الشعر ، ضخم الرأس ٠٠ على انه مر بى فى هدوء ، فلم يتريث ليتطلع الى بعينين مخيفتين تندلع منهما النار ، كما توقعت !٠٠ ثم تبعه الحصان ٠٠ جواد مرتفع ، يعلو ظهره راكب ٠ وبدد الرجل - ذلك المخلوق الآدمى - سحر الخرافة فى الحال ، لانه لم يرد فى الاسطورة ان شيئا علا ظهر « جيتراش » اطلاقا ، بل كان يهيم وحده ٠ ومع ان العفاريت ربما ركبت رمم الوحوش الضارية - كما كان يخيل لى - الا انها يندر ان تشتهى التستر فى شكل آدمى عادى ٠ واذن فليس هذا روح « جيتراش » ، وانما هو مجرد مسافر يختصر طريقه الى (ميلكوت) بالانطلاق فى هذه الناحية ٠٠ على انه لم يكد يمر بى ويمضى فى سيره بضع خطوات ، حتى اضطررت للالتفات ، على صوت انزلاق ، وصيحة تردد : « ياالله ! ٠٠ ما العمل الآن ؟ » ، ثم استرعى انتباهى صوت كبوة ، فقد سقط الجواد براكبه ، منزلقين على صفحة الجليد الذى كان يكسو الجسر ٠ وعاد الكلب يتواثب ، فلما رأى سيده فى مأزق ، وسمع الجواد يئن ويتوجع ، راح ينبح حتى رددت تلال المساء نباحه الذى كان من الضخامة بقدر حجمه ٠ ثم راح يتشمم الجسمين الساجيين ، وهرع نحوى ٠٠ فقد كان ذلك كل مايستطيعه - اذ لم يجد بالقرب منه من ينشد مساعدته ومعونته سواى - فأطعته ، وسرت الى الرجل الذى كان يحاول اذ ذاك أن يتخلص من جواده ، باذلا فى ذلك جهودا جبارة نمت عن أنه لم يصب بكثير أذى ٠ ومع ذلك فقد سألته : « هل اصابك أذى ياسيدى ؟ » ٠٠ ولعله كان لحظتئذ يسب ويلعن ، ولكنى لست واثقة ٠٠ كان - على أية حال - يتفوه بعبارات منعته من الرد على فى الحال٠٠ فعدت أسأله : « هل استطيع ان أفعل شيئا من أجلك ؟ » ٠٠ فأجاب وهو ينهض من عثرته أولا على ركبتيه ثم على قدميه : « بل قفى جانبا ! » ٠٠ ففعلت٠ وتلت ذلك من جانب الجواد عملية من اللهث ، وركل الارض ، يصحبها نباح مايجرى ٠٠ وانتهى الحادث بخير ، فقد هدأ الجواد ونهض ٠ كما سكت الكلب، عندما نهره سيده قائلا « صه يابايلوت ! » ٠ ثم انحنى الرجل يتحسس قدمه وساقه ليطمئن الى سلامتهما ٠ ولاح ان شيئا آلمه ، لانه توقف عند مكانى الذى كنت قد زايلته ، ثم جلس فيه ٠ وكنت راغبة فى أن أكون ذات نفع ، ولو من قبيل المجاملة على الاقل ، فاقتربت منه مرة اخرى وقلت : « اذا كنت قد اصبت بأذى وفى حاجة الى عون ياسيدى ، ففى وسعى أن أجيئك بمن تشاء، سواء من (ثورنفيلد) أو من (هاى)

- شكرا ٠٠ سأتغلب على الالم ٠ ان عظامى سليمة ، ولكنى اصبت بالتواء فى قدمى

ثم وقف مرة أخرى ،وجرب قدمه،ولكن النتيجة انتزعت منه آهة،برغمه !٠٠

وكان بعض ضياء النهار لايزال يتسكع ، والقمر يشرق بضوء شاحب ، فامكنني أن أرى الرجل بوضوح • كان يرتدى فوق جسمه معطفا للركوب ذا ياقة من الفراء ومشابك من النحاس ، اما بقية التفاصيل فلم تكن ظاهرة بجلاء ، ولكنى تبينت طول قامته وعرض منكبيه ووجهه الاسمر ، بقسماته الجادة وحاجبيه الغزيرين • وكانت عيناه وحاجباه المتشابكان تنم اذ ذاك عن حنق وتجهم •• وكان قد جاوز سن الصبا ، ولكنه لم يبلغ اوسط العمر ، فلم يساورنى خوف منه ، وانما غشينى بعض الخفر والحياء • ولو كان سيدا شابا جميل المحيا بادى الجرأة ، لما جسرت على الوقوف وسؤاله رغم ارادته ، وعرض خدماتى عليه دون أن يطلبها ! وان كنت لم ار شابا جميلا ، تقريبا •• ولا تحدثت الى شاب جميل فى حياتى اطلاقا •• وكنت أشعر بتوقير واحترام بالغ للجمال والرشاقة ، والشهامة والفتنة - دون ماتجربة عملية - ولكن لو اننى وجدت هذه الخصال مجسمة فى رجل ، لادركت بغريزتى أن ليس لهذه الاشياء - ولا يمكن أن يكون لها - تجاوب معشىء فى شخصى ، ولاعرضت عنهاوهربت منها كما اهرب من النار والبرق أو أى شىء آخر براق ولكنه منفر كريه ! •• وحتى هذا الرجل الغريب ، لو انه ابتسم فى وجهى ومازحنى عندما وجهت اليه الحديث ، أو لو أنه أبى تطوعى لخدمته فى مرح مشفوع بالشكر،لواصلت سيرى دون أن أجد بى رغبة فى سؤاله مرة أخرى • ولكن عبوسه وخشونته طمأنانى • وعندما لوح لى بيده أن أمضى ، لزمت مكانى وقلت : « لايمكن أن أفكر فى تركك ياسيدى فى مثل هذه الساعة المتأخرة ، وفى مثل هذه الطريق المنعزلة ، حتى أراك قادرا على امتطاء جوادك »

فلما سمع ذلك تأملنى - ولم يكن قد وجه نظراته ناحيتى من قبل - ثم قال: « أظن الاجدر بك أن تكونى فى منزلك ، اذا كان لك منزل فى هذا الجوار ! •• من أين جئت ؟ »

- من مكان قريب جدا • ولا أخشى الخروج فى ساعة متأخرة مادام القمر مشرقا • واذا شئت ، ذهبت من أجلك الى (هاى) على عجل • فالواقع اننى ذاهبة الى هناك لالقى خطابا فى صندوق البريد

- اتقيمين قريبا جدا •• اتعنين فى هذا المنزل الذى تعلوه الشرفات ؟ وأشار الى (ثورنفيلد هول) ، الذى كان القمر يلقى عليه ضياء خافتا اظهره للعين فى وضوح شاحب بين الاشجار ، ولكنه بدا - اذا قورن بسماء الغرب المعتمة - وضاء جليا •• وأجبت : « نعم ياسيدى »

- منزل من هذا ؟

- منزل مستر روشستر

- اتعرفين مستر روشستر ؟

ـ كلا .. لم أره من قبل
ـ اذن فهو لايقيم هناك ؟
ـ كلا
ـ هل تستطيعين ان تخبرينى أين هو ؟
ـ لاأستطيع
ـ انت بالطبع لست خادمة فى القصر .. انت ..

ثم توقف وتأمل زيى ،الذى كان كالعادة غاية فى البساطة : معطفا اسود من صوف المارينو » ، وقبعة صغيرة من جلد السمور ـ لايليق احدهما بوصيفة ـ وتبدت عليه الحيرة فى أمرى ، فقلت أعاونه : « أنا المعلمة ! »

ـ آه ، المعلمة .. يالله ، كيف نسيت !؟ .. المعلمة !

وعاد يتفحص ثوبى ، ثم نهض من مكانه بعد دقيقتين ـ وقد نطقت أساريره بالالم وهو يحاول النهوض ـ وقال : « لا استطيع أن أبعث بك لتاتينى بمن يساعدنى ، ولكن فى وسعك اذا تفضلت أن تعاونينى قليلا بنفسك »

ـ أية خدمة أؤديها لسيدى ؟

ـ ألديك مظلة استطيع أن أتوكأ عليها ؟

ـ كلا

ـ حاولى أن تمسكى بعنان جوادى وتأتينى به .. هل أنت خائفة ؟

وكان خليقا بى أن أخاف أن ألمس جوادا وأنا وحدى ، أما وقد طلب منى ذلك ، فقد اضطررت الى أن أطيع .. فخلعت فراء يدى ووضعتهما على حجر ناصية الدرب ، ثم ذهبت الى الجواد العالى ، وحاولت أن أمسك بالعنان . ولكن الجواد كان خفيف الحركات فلم يدعنى أقترب من رأسه . وعبثا بذلت الجهد بعد الجهد ، والخوف من قدميه اللتين تضربان فى الارض ، يكاد يقتلنى !.. وانتظر الرجل ، وراقبنى قليلا ، وأخيرا ضحك وقال : « أرى أن الجبل لن يجىء الى الانسان ، ولذلك فكل ماتستطيعينـه هـو أن تساعدى الانسان على الذهاب الى الجبل !.. أرجوك أن تأتى الى »

وذهبت اليه ، فاستطرد يقول : « معذرة ، فان الضرورة تحتم على أن استعين بك » .. ثم وضع يدا ثقيلة على كتفى واعتمد عليها متخففا ، وراح يعرج فى مشيته الى الجواد .. حتى اذا تمكن من مسك العنان والتحكم فيه ، وثب الى السرج وهو يزوى وجهه لذلك الجهد الذى لوى قدمه المخلوعة . واخيرا ، بعد أن اطلق شفته السفلى من عضة قوية متألمة ، قال :

« الآن ناولينى سوطى . انه هنالك تحت السياج » فبحثت عنه وجئته به ،

فقال : « أشكرك . والآن هيا اسرعى بالخطاب الى (هاى) ، ثم عودى باسرع ماتستطيعين ! » .. وبلمسة من كعبه المهموز ، وثب الجواد الى الامام ، ثم الى الخلف ، قبل ان ينطلق كالسهم .. واندفع الكلب فى أعقابه .. ثم اختفى الثلاثة ، « أشبه بالمروج فى البيداء .. تعصف بها الرياح الهوجاء ! »

* * *

◆ **وعندئذ** التقطت فراء يدى وسرت فى طريقى .. وقد مر بى الحادث كغيره من الاحداث العادية،لايحمل فى اطوائه أهمية، أو قصة ، أو مصلحة ذات بال ، وان كان قد ادخل تغييرا على ساعة من حياتى الرتيبة التى تسير على منوال واحد :فهأنذى قد سئلت المعونة ولم أبخل بها ، وبذلك أتيح لى الشعور بالاغتباط لاننى قمت بعمل ما ، ربما كان تافها وقصير الامد ، الا انه كان ايجابيا بعد أن تولانى الملل والسأم من حياة سلبية كلها! .. **كما كان هذا الوجه الجديد أشبه بصورة جديدة أضيفت الى قاعة الذكريات فى رأسى .. صورة تختلف عن كل الصور المعلقة هنالك ، لسببين : أولهما انها صورة رجل ، وثانيهما انها كانت غامضة ، قوية ، متجهمة ! .. وقد لازمتنى هذه الصورة عندما دخلت (هاى) ، واودعت الخطاب مكتب البريد، كما تمثلتها وأنا أسير بسرعة عند سفح التل فى طريق عودتى الى المنزل .** وعندما بلغت الحجر القائم عند ناصية الدرب توقفت قليلا اتطلع حولى منصتة ، يخامرنى خاطر بأن حوافر جواد لن تلبث أن تطرق ارض الجسر المعدنية مرة اخرى ، وأن راكبا يرتدى معطفا قد يظهر من جديد مع كلبه الذى يشبه « جتراش » . ولكننى لم أر أمامى سوى السياج والصفصاف المقلم الاطراف ، بأعناقهما العالية ، وكأنما يهمسان الى القمر .. ولم اسمع سوى حفيف الريح المزمجرة بين الاشجار على مسافة بعيدة حول (ثورنفيلد) . وعندما صوبت نظرى الى ناحية هذه الزمجرة عبر واجهة القصر ، شاهدت نورا مضيئا فى

احدى النوافذ ، فانتبهت الى أننى قد تأخرت،وأسرعت الخطى ٠

لم تكن بى رغبة فى العودة الى (ثورنفيلد) ، لان اجتياز عتبته كان بمثابة العودة الى حياة الركود ٠ أما اجتياز القاعة الساكنة والدرج المظلم والرجوع الى حجرتى الصغيرة المنعزلة ، ثم لقاء مسز فيرفاكس الهادئة ، وقضاء أمسيات الشتاء الطويل فى رفقتها ـ ورفقتها فقط ـ فقد كان كفيلا بأن يقضى كل القضاء على الانفعال البسيط الذى أيقظته فى نفسى تلك النزهة، وبأن يعيدنى الى قيود الزى الرسمى ـ كمعلمة فى دار لها تقاليدها ـ والى الكيان الساكن ٠٠ كيان له من مزايا الامن والراحة ما غدوت عاجزة عن تقدير قيمته ٠٠ كان الاجدر بى ـ اذ ذاك ـ أن تطوح بى عواصف حياة قلقة غير مستقرة ، لتعلمنى التجاريب القاسية كيف أتلهف على هدوء أتململ منه الآن !٠٠ نعم ، ان ذلك كان خليقا بأن يتيح لى عين الفائدة التى يلقاها رجل سئم الجلوس الهادىء فى مقعد جد مريح ، اذا ماقدر له ان يقوم بنزهة طويلة على قدميه ! ٠٠ وكما ان الرغبة فى الحراك طبيعية فى مثل ظروف ذلك الرجل ، فانها كانت طبيعية فى ظروفى اذ ذاك !

وتلكأت عند الابواب الخارجية ، ثم تلكأت فوق المروج ، ورحت أذرع الرصيف جيئة وذهابا ٠ وكان مصراعا الباب الزجاجى مغلقين ، فلم يتسن لى مشاهدة ما كان فى الداخل ٠ وخيل الى أن عينى وروحى قد انصرفت عن المنزل المظلم ـ وعن الفراغ المعتم بين جدرانه ، وقد بدا هذا الفراغ مقسما الى حجرات عديمة الضياء ـ لتتطلع الى السماء الممتدة أمامى ، بحرا أزرق مبرأ من شوائب السحب ، ومن فوقها يسير القمر فى رزانة ووقار ، وكأن مداره يشرئب بعنقه وهو يجتاز قمم التلال التى جاء من ورائها ليبلغ أوج المجد ٠ وعندما شاهدت النجوم المرتجفة تتبع طريق القمر ، ارتعدت نياط قلبى بدورها ،

وتأججت الدماء في شراييني !

على ان بعض التوافه لاتلبث ان تعيدنا الى الارض ٠٠ فقد دقت الساعة فى القاعة ، فكان ذلك كافيا لان يصرفنى عن القمر والنجوم ، ففتحت بابا جانبيا دلفت منه الى الداخل ٠٠ ولم يكن البهو قد أضىء بعد الا بمصباح برونزى مدلى من السقف ، ولكن وهجا دافئا كان يغمر البهو وبعض درجات السلم ، منبعثا من حجرة المائدة الكبيرة التي كان مصراعا بابها مفتوحين ، تظهر بينهما نيران الموقد البهيجة ، والمفروشات والرياش ، فى اشراق بديع ٠ وتبينت فى الداخل جماعة جلست بالقرب من الموقد ، ولكننى لم آكد ألمحها وأفطن الى خليط من الاصوات المبتهجة – تميزت من بينها صوت « أديل » – حتى أغلق الباب ٠

وبادرت الى حجرة مسز فيرفاكس ، حيث وجدت نارا موقدة ، ولكننى لم أر أثرا لشمعة ، أو لمسز فيرفاكس ، بل كان يجلس على السجادة ، ويتفرس فى الوهج ، كلب كبير طويل الشعر ، أشبه بجتراش الذى صادفته فى الطريق !٠٠ كان يشبهه لدرجة أننى تقدمت وناديته « بايلوت » ، فنهض واقترب ، يتشممنى ٠ فربت عليه ، واذا به يبصبص بذيله الكبير ، ولكنه بدا مخلوقا مرعبا لايصح الانفراد به ٠ ولم أدر من أين جاء ، فقرعت الجرس ، لاننى كنت فى حاجة الى شمعة ، وفى حاجة كذلك الى معرفة قصة هذا الزائر ٠ ودخلت « لياه » ، فسألتها :

– أى كلب هذا ؟

– **لقد جاء مع سيدى** – مع من ؟ – **مع سيدى ، مستر روشستر ، اذ وصل منذ قليل**

– حقا ! وهل مسز فيرفاكس معه ؟

– **نعم ٠٠ ومس آديل ٠ انهم بحجرة الطعام ، وقد ذهب جون لاستدعاء جراح ، لان السيد وقع له حادث ٠ كبا جواده فالتوى كاحله ٠**

– هل سقط الجواد فى طريق (هاى) ؟

ـ نعم ، انزلقت أقدامه فوق بعض الجليد أثناء هبوطه التل
ـ آه ٠ آتينى بشمعة من فضلك يا « لياه »
وجاءت « لَيَاه » بالشمعة ٠ واقبلت فى أثرها مسزفيرفاكس، فروت لى نفس الاخبار ، مضيفة الى ذلك أن الجراح قد وصل، وانه كان اذ ذاك مع مستر روشستر ٠٠ ثم أسرعت الى الخارج لتأمر باعداد الشاى ، فصعدت لاخلع ملابسى ٠٠

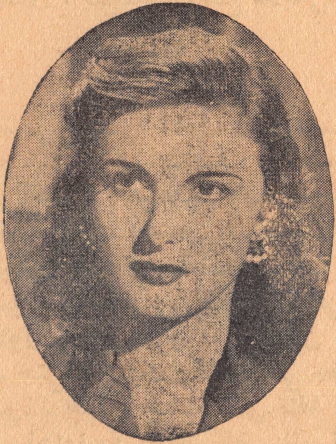
خاتمة

وبذلك ينتهى الجزء الاول من القصة ٠٠
ويليه الجزء الثانى فى منتصف أغسطس القادم
وفيه تدخل القصة فى مرحلتها العنيفة المثيرة ، بل تبدأ القصة الحقيقية ـ بعد ان استخدمت المؤلفة هذا الجزء الاول ليكون بمثابة « مقدمة » طويلة لاحداث المأساة الرئيسية ـ وهكذا نرى فى الجزء الثانى كيف يتطور هذا اللقاء الاول بين « جين اير » وبين « سيدها » ـ روشستر ـ حتى يقع حادث غامض فى مخدع السيد ، يفتح امام بصيرة « جين » الباب الذى تنفذ منه الى حل ما استعصى على ذهنها من «الغاز» قصر (ثورنفيلد هول) ، والغوامض التى تكتنف حياة صاحبه وقاطنيه !٠٠ كما تقف منه على سر تلك الضحكة الغامضة الغريبة التى كانت تتردد فى جنبات القصر ، فى سكون الليل !٠٠ وفى غضون ذلك ، تنسج المأساة الخفية التى كان يعيش فيها « روشستر » ، خيوطا تربط بينه وبين « جين » ، بروابط شديدة التعقيد !
اقرأ التفصيلات الشائقة المثيرة لهذه الاحداث الرئيسية للقصة ، فى الجزء الثانى منها ، الذى يصدر فى منتصف أغسطس

حاليا بسينما أوبرا بالقاهرة

يقدم ستوديو مصر أروع أفلامه فى عام ١٩٥٦

العروسة الصغيرة



قصة أخاذة ، قوية

تأليف : يوسف جوهر اخراج : احمد بدرخان

تمثيل بطلى السينما المصرية

مريم فخر الدين و يحى شاهين

مع

محمود المليجى ، سراج منير ، سعيد أبو بكر ، وداد حمدى ، صلاح سرحان ، الطفلة نادية الشناوى

هذه الدرّة الكلاسيكيّة !

عزيزى القارئ ..

لو أحصيت شوامخ القصص الخالدة فى الأدب الانجليزى الكلاسيكى، أمثال "قصة مدينتين" و"داڤيد كوبرفيلد" .. لكانت "جين اير" فى مقدمة التراث الخالد لهذا الأدب العريق .. فهى تحتل فيه مكانة لا تقل عن مكانة "البؤساء" فى الأدب الفرنسى مثلاً، أو "أنّا كارنينا" فى الأدب الروسى .. !

لذلك لا أغالى اذا اعتبرت ترجمة "جين اير" إلى العربية - لأول مرة ! - ترجمة كاملة أمينة، "حدثاً" هاماً فى المكتبة العربية، تفخر "مطبوعات كتابى" بأن تكون سباقة اليه، كعهدك بها دائماً خلال المدة القصيرة التى انقضت بعد ظهورها فى عالم المطبوعات العربية ...

و"مطبوعات كتابى" تنتهز فرصة تقديمها هذه التحفة الجبّارة اليك، فتجدّد لك العهد على أن تكون سلسلتها أمتع وأوفى مكتبة عربية لشوامخ الكتب العالمية، بنصها الكامل .. كما كتبها مؤلفوها الخالدون !

